

د. عبد الوهاب المسيري
الحمائم والصقور والنعام
دراسة في الإدراك والتحليل السياسي



دار الحسام

د. عبدالوهاب محمد المسيرى

الحمائم والصقور والنعام

دراسة فى الإدراك الغربى والصهيونى

الحماثم والصقور والنعام

دراسة فى الإدراك الغربى والصهيونى

المؤلف: د. عبدالوهاب محمد المسيرى

الغلاف: عمر الفيومى

الناشر: دار الحسام

القاهرة ت/ ٥١١٥٧٦٣ ص . ب / ٥١ الغوريه

رقم الإيـداع: ٩٥/١١٥٣٣

الترقيم الدولى: 977 - 5659 - 06

حقوق الطبع والنشر والتوزيع محفوظة

الطبعة الأولى

١٩٩٦م

فى الإدراك والسلوك والتبعية الإدراكية

من أعقد القضايا التي يواجهها المحللون السياسيون قضية علاقة إدراك الإنسان للواقع المحيط به وبسلوكه ومدى تأثير الإدراك (والوعي والأفكار والرموز) في السلوك الإنساني . وهي قضية لا تختلف كثيراً عن مشكلة الذاتية والموضوعية في العلوم الإنسانية والاجتماعية بل والطبيعية . وهذا الكتاب يحاول أن يلقي بعض الضوء على هذه القضية : هذا هو هدفه ، وهذا ما يرمي إلى تحقيقه . وعلى الرغم من أن كل الفصول تدور حول الصراع العربي الإسرائيلي (وموضوعات أخرى على علاقة به) ، إلا أن هذه مجرد دراسات لحالات ، إذ يظل الموضوع الأساسي هو قضية الإدراك ، وما الحالات التي أتينا بها سوى محاولات مختلفة لتوضيح بعض أبعاد هذه القضية الكلية والمجردة من خلال أمثلة متعينة .

١ - الإدراك والسلوك

لا يدرك الإنسان واقعه بشكل حسيّ مادي مباشر ، إلا في حالات نادرة ، تتسم بالبساطة ، كأن تلسع يده سيجارة أو يدخل في عينيه جسم صلب . فالإنسان ليس مجموعة من الخلايا والأعصاب والرغبات والدوافع المادية (الاقتصادية أو الجنسية) التي يمكن أن يُرد لها في كليته (كما يزعم الماديون) ، وسلوكه ليس مجرد أفعال وردود أفعال مشروطة ، تتحكم فيها قوانين الميكانيكا أو البيولوجيا (كما يرى بعض السلوكيين) . فعقله ليس مجرد مخ مادي : صفحة بيضاء تتراكم عليها المعطيات المادية ، وإنما هو عقل مبدع ، له مقدرة توليدية ، وهو مستقر كثير من الخبرات والمنظومات الأخلاقية والرمزية ، ومستودع كثير من الذكريات والصور المخزونة في الوعي واللاوعي .

ولذا حينما يسلك الإنسان فإنه لا يسلك كرد فعل للواقع المادي بشكل مباشر ، وإنما كرد فعل للواقع كما يدركه هو بكل تركيبته ، ومن خلال عقله المبدع

الذي يتفاعل ويُقيم، ومن خلال ما يسقطه على الواقع من أفراح وأتراح، وأشواق ومعاني، أو رموز وذكريات، ومن خلال المنظومات الأخلاقية والرمزية التي تحدد له مجال الرؤية، فتُبقي وتستبعد وتؤكد وتُهْمَش . كل هذه العمليات المركبة هي التي تمنح الإنسان ذاتيته وخصوصيته، وتمنح كل فرد فرادته، حتى يصبح من الصعب التنبؤ بسلوكه من خلال القوانين المادية والطبيعية العامة .

وبسبب تركيبية الإنسان هذه، ونظراً لأنه لا يستجيب للواقع المادي مباشرة وإنما يستجيب له من خلال إدراكه نرى أنه لا يمكن لأي دارس أن يحيط بأبعاد أي ظاهرة إنسانية (سياسية كانت أم اجتماعية أم اقتصادية) إلا بالغوص في أكثر مستويات التحليل عمقاً، أي النماذج المعرفية أو الإدراكية الكامنة، التي تترجم نفسها إلى خرائط معرفية ومقولات إدراكية يُنظم بها الإنسان واقعه ويُصنّفه، وإلى صور إدراكية يدرك من خلالها نفسه وواقعه ومن حوله من بشر ومجتمعات وأشياء ونحن نضع النموذج المعرفي (والخريطة المعرفية والصورة الإدراكية) في مقابل الواقع المادي في ذاته - أي الواقع الخام الموجود خارج حواس الإنسان والذي يتشكل بإدراكه . وأزعم أن الخرائط والنماذج المعرفية والصور الإدراكية التي يحملها الإنسان في عقله ووجدانه تحدد ما يمكنه أن يراه في هذا الواقع الخام، فهي تستبعد وتُهْمَش بعض التفاصيل فلا يراها، وتؤكد البعض الآخر بحيث يراها هامة ومركزية . ولعل أكثر الأمثلة درامية على ما نقول هو الطريقة التي تتعامل بها كل حضارة مع الألوان . فهناك حضارات لا يوجد في نموذجها المعرفي وخريطتها الإدراكية سوى لونين (أبيض وأسود)، وحضارات أخرى لا يوجد فيها سوى أربعة ألوان، وهناك الحضارات الأكثر تركيباً التي يضم نموذجها ألوان الطيف الأساسية وبعض التنويعات الأخرى عليها . ويُقال أن أعضاء الحضارات التي لا يضم نموذجها المعرفي وخريطتها الإدراكية سوى أربعة ألوان وحسب لا يرى أبنائها سوى أربعة ألوان . وقد يبدو هذا أمراً متطرفاً، ولكن حاول أن تنظر إلى صورة زيتية ملونة بصحبة ناقد محنك وستجد أنه سيكتشف من التنويعات اللونية ما لم يطرأ لك على بال لأن نموذجك المعرفي وخريطتك الإدراكية قد حددا إدراكك، وهي خريطة قام الناقد بإضافة مقولات جديدة لها فأدركت من التنويعات اللونية ما

لم تدرك من قبل . ونحن هنا لا نتحدث عن «عمى الألوان» (وهو عيب فسيولوجي قد يُصاب به الإنسان) وإنما نتحدث عن حدود إدراكية ناجمة عن حدود النموذج المعرفي ذاته والخريطة الإدراكية ذاتها . فالإدراك يتم من خلال الأداة، أي النموذج، ويتحدد الإدراك بمقدار مدى ضيق النموذج أو اتساعه .

هذا لا يعني أن الواقع المادي الخام غير موجود بدون الإدراك الإنساني له، فهو ولا شك هناك في ماديته وطبيعته وموضوعيته ولاشخصيته وعموميته، خلقه الله خارج وعينا وإدراكنا وإرادتنا، وهو ولا شك له أثره في تحديد بعض جوانب فكر البشر وسلوكهم بدرجة تتفاوت في مقدار عمقها من إنسان لآخر ومن لحظة زمنية لأخرى . ولهذا يمكن تفسير بعض جوانب وجود الإنسان وسلوكه باستخدام المنهج المادي والنماذج المستمدة من عالم الطبيعة (والتي تُستخدم عادةً في تفسير الظواهر الطبيعية) . ولكن يظل هناك في الإنسان ما يستعصي على التفسير من خلال هذا المنهج ومن خلال تلك النماذج .

لكل هذا حينما ندرس الظواهر الإنسانية لابد من استعادة لا الفاعل الاقتصادي أو الاجتماعي أو الجسماني أو الطبيعي وحسب، أي الفاعل الإنساني في علاقته المادية المباشرة مع واقعه المادي، ومع الملبسات المادية (الاجتماعية أو الاقتصادية . . . إلخ) المحيطة به، وإنما يجب استعادة الفاعل الإنساني، الإنسان الإنسان، أي الإنسان في كل تركيبته وأسراره وفاعليته وإبداعه التي تجعله يتجاوز بيئته المادية الطبيعية المباشرة وتجعل من العسير رده في كليته إليها . ولذا لابد وأن نؤكد أنه لا يمكن دراسة ظاهرة الإنسان والظواهر الإنسانية مثلما نرصد الظواهر الطبيعية، ولا يمكن أن نسجل سلوك الإنسان كفرد أو كجماعة كما نسجل سلوك النملة وجماعات النمل . فمثل هذه الرؤية (بغض النظر عن لا إنسانيتها المقيتة) هي رؤية غير دقيقة لأن الدوافع (خيرة كانت أم شريرة)، وأشكال الوعي (مهما كان زيفها وانفصالها عن الواقع المادي)، والمعنى، أي الدلالة الداخلية التي يراها الإنسان فيما يقع له من أحداث وفيما يحيط به من ظواهر (مهما كانت سطحيته أو عمقه) تشكل جزءاً أساسياً من الواقع الإنساني .

وهذه القاعدة لا يمكن لأي إنسان تجاوزها، والصهاينة لا يشكلون أي استثناء لها . ولذا حينما ندرس سلوكهم لابد وأن نُذكّر أنفسنا أن ما يحدد سلوكهم ليس الاستجابة المباشرة للعناصر والملازمات المادية المختلفة المحيطة بهم، وإنما إدراكهم لها . أنظر مثلاً لاستجابة هذين المعلقين الإسرائيليين لحقيقة «مادية موضوعية» مثل ظهور جيل جديد في فلسطين المحتلة وُلِد وتربى تحت حكم الاحتلال الإسرائيلي ذهب المعلق الأول، وهو الجنرال بن إيعازر، إلى أن ظهور هذا الجيل يعني في واقع الأمر ظهور جيل برجماتي مرن قادر على التكيف، لا يكثرث بالسياسة، مما يجعل من السهل القضاء على أي تمرد له طابع سياسي . بينما يرى الثاني، وهو يحزقييل درور، أن ظهور مثل هذا الجيل الجديد يعني في واقع الأمر ظهور جيل غير خائف من الإسرائيليين، وأن هذا هو الذي أدى إلى اندلاع الانتفاضة . وهكذا نجد أن نفس العنصر المادي فُسر تفسيرين متضادين تماماً . والتضاد مصدره نموذجين معرفيين ورؤيتين مختلفتين للإنسان، واحدة ترى أن الإنسان ينسى تاريخه وتراثه وذاته بمرور الزمن، فهو مادة محضة تعكس الواقع المادي المتغير وقوانين الحركة الأزلية، والأخرى ترى أن الإنسان لا ينسى تاريخه بسهولة، وأن تزايد الظلم قد يؤدي إلى تصعيد الثورة . ومما لاشك فيه أن رؤية كل واحد منهما ستحدّد طريقة استجابته لما حوله وسلوكه تجاهها .

وأرجو ألا يُفهم مما أقول أنني أذهب إلى أن إدراك الإنسان يتحكم في سلوكه، فمثل هذا التصور يسقط في نفس الواحدية والاختزالية التي يسقط فيها النموذج السلوكي المادي الذي يُنكر أهمية الإدراك تماماً . فالأول يُنكر أهمية الواقع المادي والثاني يُنكر أهمية الإدراك الإنساني . ما نطرحه نحن هو أمر مغاير تماماً، فنحن نذهب إلى أن سلوك الإنسان مركّب للغاية تحدده عدة عناصر متداخلة من بينها إدراك الإنسان لواقعه . وأن الإدراك الإنساني لا يؤدي إلى سلوك بعينه، وإنما يخلق تربة خصبة تزيد من احتمالات أن يسلك الإنسان سلوكاً بعينه دون غيره . فالعلاقة بين السلوك والإدراك - في تصورنا - علاقة احتمالية . وحتى إن وقع الإنسان أسير رؤيته وإدراكه وذاتيته بحيث أصبحت تتحكم فيه تماماً وتسيره فإنه

يمكن الحوار معه وتنبيهه لبعض جوانب الواقع التي يتجاهلها . وأنا كمسلم أؤمن أن الله سبحانه وتعالى قد منح كل البشر قدراً من الرشد، وأن الإنسان بما حباه الله من عقل قادر على أن يتجاوز إدراكه الضيق ليصل إلى إدراك أكثر رحابة وإنسانيته . أما إذا كان الإنسان فاشياً عنصرياً، ممسكاً بمدفع رشاش، ويُصر على أن يسلك في حدود رؤيته وإدراكه فيبطش بالآخرين ويدوس عليهم، فإن ما نسميه «الحوار المسلح» هو السبيل الوحيد .

ولكن الخطاب السياسي العربي في تحليله للصهاينة (وللحضارة الغربية، بل وللذات العربية) أسقط الإدراك من حسابه وبالتالي أسقط الخصوصية فسقط في التعميم . ولا يعدو رصدنا للعدو أن يكون حديثاً عاماً عن قوة العدو العسكرية والاقتصادية وقوته ومخططاته وربما عنصريته، ولذا نجد أن كثيراً من الدراسات تقوم بتوثيق ما نعرف مسبقاً، دون أي تعميق لرؤيتنا أو إضافة لإدراكنا .

وقد أدّى هذا إلى تطبيع النظام السياسي الإسرائيلي، أي محاولة دراسته باعتباره كياناً سياسياً طبيعياً عادياً بحيث تُستخدم نفس المقولات التحليلية العامة التي تُستخدم في دراسة النظام السياسي الأمريكي وكأن الكيان السياسي الإسرائيلي لا يختلف في أساسياته عن أي كيان سياسي آخر . فيتم الحديث عن نظام الحزبين في الديمقراطية الإسرائيلية، وعن أن كلاً من إنجلترا وإسرائيل لا يوجد فيهما دستور، وأن النظام السياسي الإسرائيلي يتبع النمط الأنجلو أمريكي (الثنائي) لا النمط الأوربي الأكثر تعددية .

وعلماء السياسة العرب الذين يتبنون مثل هذه الرؤيا يُخطئون مرتين : من الناحية المعرفية ومن الناحية الأخلاقية . فمن الناحية المعرفية يمكن القول أن وصفهم للظاهرة الصهيونية ليس له مقدرة تفسيرية عالية، فهو لا يمكنه أن يُفسّر ظاهرة مثل المنظمة الصهيونية أو دور الوكالة اليهودية التي تساعد سكان الدولة الصهيونية من اليهود وحسب، وتستبعد العرب، فهذه المؤسسة ليس لها نظير في أية «ديموقراطية» أخرى . كما لا يمكنه تفسير قانون العودة ولا ضخامة الدعم المادي والمعنوي الذي يقدمه العالم الغربي للجيب الصهيوني . كما أنهم يُخطئون من

الناحية النضالية والأخلاقية إذ أنه كيف يمكن الحديث عن ديموقراطية تستند إلى حادثة اغتصاب للأرض وذبح لبعض سكانها وطردها لبعض الآخر واستبعاد لمن تبقى من العملية السياسية ذاتها؟ والفشل الإدراكي المعرفي التفسيري هنا هو ذاته الفشل النضالي الأخلاقي، إذ أن التطبيع يخفي عن الأنظار (وعن الضمير) الظروف الخاصة بالكيان الصهيوني ككيان استيطاني إحلالي، وحقيقة أن استيطانية الكيان الصهيوني وإحلاليته واعتماده الكامل على الدعم الغربي هو القانون الأساسي الذي يحكم ديناميته ومساره في الماضي والحاضر. فهذه الاستيطانية الإحلالية هي التي تُفسر عدم وجود دستور حتى الآن في إسرائيل، وتُفسر أهمية قانون العودة ومركزيته. وهذه الاستيطانية الإحلالية هي التي تجعلنا نكتشف أن الأحزاب الإسرائيلية ليست أساساً أحزاباً وإنما مؤسسات استيطانية استيعابية تضطلع بوظائف لا تضطلع بها الأحزاب السياسية في الدول الأخرى ويتم تمويلها عن طريق المنظمة الصهيونية العالمية. وهذه الاستيطانية الإحلالية (ودور إسرائيل الوظيفي) هي التي تُفسر ضخامة الدعم الإمبريالي لإسرائيل.

وإدراك الإسرائيليين للطبيعة الاستيطانية الإحلالية لدولتهم ولاعتمادها الكامل على الولايات المتحدة ولأسباب وجودهم وسر استمرارهم هو الذي يُحدد سلوكهم وحربهم وسلمهم، وما ينكرونه علينا وما قد يُقررون منحه إيانا. وإسقاط هذه الأبعاد الخاصة يجعل من عملية التطبيع المعرفية المنهجية عملية تسويق وتبرير غير واعية للوجود الصهيوني وإضفاء درجة من الشرعية عليه.

٢ - الإدراك والتبعية للحضارة الغربية

ولابد وأن نثير هنا قضية أخرى مرتبطة تمام الارتباط بسابقتها وهي ما سماه أحد علماء الاجتماع الغربيين «إمبريالية المقولات» - أي أن تقوم إحدى القوى بتحديد النماذج المعرفية والمقولات التحليلية الأساسية بطريقة تعكس إدراكها للواقع وتخدم مصالحها وتستبعد إدراك الآخرين وتهمل مصالحهم. ويبدو أننا نخضع تماماً لإمبريالية المقولات الغربية وأنها سقطنا بشكل شبه كامل في التبعية الإدراكية. فقد استوردنا نماذجنا المعرفية ومقولاتنا التحليلية فيما نستورد من أشياء من الغرب.

ولذا فنحن حينما نتحدث عن الحضارة الغربية وحينما نتحاور بشأنها ونتخذ مواقف معها أو ضدها تتضح تبعيتنا الإدراكية، إذ أننا عادةً ما نفعل ذلك بناءً على المعطيات التي تسمح لنا هذه الحضارة بالاطلاع عليها وداخل أطر جاهزة ونماذج معرفية مسبقة أعدها مفكرون غربيون ونطرح نفس الأسئلة التي يطرحونها هم عن حضارتهم ومن منظورهم، أي أننا ندرك الحضارة الغربية لا بشكل مباشر وإنما كما يشاء أصحابها لنا أن ندركها . بل إننا بدأنا ننظر إلى أنفسنا من خلال مقولات الغرب التحليلية ونماذجه الإدراكية . ولذا بدأ الإنسان العربي يرى نفسه متخلفاً مهماً بذل من جهد ومهما أنتج من روائع، وبدأ يحكم على نفسه بالهزيمة في المعركة قبل دخولها . والتبعية الإدراكية ليست تبعية اقتصادية وحسب (وإن كانت تترجم نفسها إلى ذلك)، وإنما هي تبعية عميقة كامنة تنصرف إلى أسلوب الحياة (بما في ذلك النشاط الاقتصادي) وإلى رؤية الذات ورؤية الآخر .

ولنبداً برؤية الآخر، ولأضرب مثلاً على ما أقول من الثورة الفرنسية التي يعرف معظمنا أحداثها ابتداءً من اجتماع ملعب التنس وانتهاءً بحروب الثورة الفرنسية وظهور نابليون . نحن نعرف كل هذه الأحداث تمام المعرفة . ولكن ماذا عن نندي Vendee؟ بل ما هي نندي هذه؟ يجب عليّ أن أتحدى بشيء من الشجاعة وأعترف أنني لم أكن قد سمعت عنها قط من قبل إلى أن قامت معركة في فرنسا بين بعض مؤرخي الثورة الفرنسية فيها، فعرفت أنها ثورة اندلعت في غرب فرنسا (١٧٩٢ - ١٧٩٣) (أشار لها أحد المراجع بأنها «ثورة مضادة») وقضت عليها قوات الثورة بوحشية بالغة حتى أن المؤرخ الفرنسي بيبير شونو (الأستاذ في السوربون) قال : "إن قوات الثورة الفرنسية لم تكن تحاول إخماد التمرد وحسب، وإنما قامت بعملية إبادة (هولوكوست) كانت في فظاعة الإبادة النازية وأكثر فاعلية منه" . وقد قال وسترمان، جنرال الثورة الفرنسية الذي أحمده التمرد : "لقد دست على الأطفال بسنابك خيلي وذبحت النساء حتى لا يلدن أي متمرد بعد ذلك" . ويجب أن نتذكر أن هذه هي كلمات ممثل ثورة الحرية والإخاء والمساواة (التي أرسلت بقواتها الاستعمارية إلى مصر والشرق) .

وقد يقول البعض أن كل هذا في سبيل «التقدم»، ولكن يذهب بعض المؤرخين الآن إلى أن الثورة الفرنسية أبطأت عملية تحديث فرنسا التي كانت قد بدأت تحت حكم الملكية المطلقة، ومن ثم أعطت إنجلترا الفرصة لتصبح القوة الصناعية الكبرى في القرن التاسع عشر. وأعترف أنني لا يمكنني الأخذ برأي هذا الفريق أو ذاك، وبالذات بخصوص ناندي التي لا أعرف عنها شيئاً، أو بخصوص تطور أوروبا الاقتصادي، فالذي أعرفه عن هذا الموضوع هو أحداث بعينها تعبر عن رؤية محددة للثورة الفرنسية، تتناولها المراجع الغربية، والمراجع العربية التي تنقل عنها. أما تلك الأحداث التي قد تتحدى هذه الرؤية فيتم استبعادها تماماً أو يتم تهميشها.

كما أننا حينما نطرح أسئلة بخصوص أي ظاهرة فنحن لا نطرحها من وجهة نظرنا وإنما ننساق دائماً وراء تلك الأسئلة التي يطرحها الغرب، وهي أسئلة تعبر عن رؤيته ومصالحه. ولناخذ على سبيل المثال قضية الأسرة، وهي قضية أصبحت لا تعني الإنسان الغربي كثيراً بعد تصاعد معدلات التحديث والعلمنة وتآكل نظام الزواج والأسرة وقبوله التام لهذه الحقيقة كنتيجة حتمية «للتقدم». ولهذا لا تسأل كتب التاريخ الغربية عن عدد الأطفال غير الشرعيين بعد الثورة الفرنسية، وعما حدث لنسبة الطلاق؟ هل ارتفعت أم انخفضت أم ظلت على ما هي عليه؟ ولكن أليس من الواجب علينا، ونحن على عتبات هذا المستقبل العقلاني المادي الحديث، الذي يبشر به بعض كبار مفكرينا، أن نسأل مثل هذه الأسئلة حتى نعرف بطريقة «علمية» شاملة ومركبة أحداث الثورة لا كمجرد وقائع وإحصائيات «برانية» وإنما كحقائق «جوانية» تركت أثراً عميقاً على الإنسان الفرنسي؟ وقد فتشت عن الإجابة وعرفت أنه بعد اندلاع الثورة بثلاثة أعوام زادت حالات الطلاق زيادة ملحوظة، كما أن عدد الأطفال غير الشرعيين زاد زيادة هائلة.

وقد دُبت على إثارة الشكوك بخصوص قضية «إعلان حقوق الإنسان»، لا لأنني معاد لهذه الحقوق أو رافض لها، وإنما لأنني مدرك أنها قاصرة إلى حد ما، لأن هذا الإعلان قد جعل الفرد المنعزل البسيط (الإنسان الطبيعي البورجوازي) هو نقطة البدء والانطلاق. واقترح بدلاً من ذلك «إعلان حقوق الأسرة» كوحدة

اجتماعية أساسية مركبة . ولعل الحقائق الخاصة بالأطفال غير الشرعيين بعد الثورة الفرنسية (وفي أوروبا منذ ذلك التاريخ، وفي كل العالم عما قريب) قد تُعطي شيئاً من الترجيح للمفهوم الذي أطرحه، لأنه من الواضح أن حقوق الإنسان لا تتضمن الأطفال الذين لم يولدوا بعد! والأطفال غير الشرعيين هم نتاج ذكر وأنثى استمتعوا بـ «حقوق الإنسان» وحرياته (كما حددها الغرب) في لحظات لم يفكروا أثناءها في حقوق الأطفال . ولا يمكن أن نصدر إعلان حقوق الإنسان ثم نحاول الآن إصدار إعلان تكميلي بحقوق المرأة ثم إعلاناً ثالثاً لحقوق الأطفال وهكذا، فهذه العملية غير عقلانية بالمرّة لأنها أهملت في البداية الوحدة التحليلية الاجتماعية الحقيقية الواحدة، وهي الإنسان ككائن اجتماعي ينتمي إلى أسرة ومجتمع، وأحلت محله الإنسان كذرة منعزلة، كائن مكتفٍ بذاته (وكأنه وحش الغابة) لا وجود له إلا في ذهن روسو وهولباخ وفولتير وغيرهم من مفكري عصر العقل والاستنارة البورجوازي .

وتظهر التبعية الإدراكية بدرجة فكاية في تحديد مؤشرات التقدم والتخلف . فعلى سبيل المثال، حتى بداية السبعينيات (قبل "اندلاع" ثورة البيثة) كان استخدام المبيدات والأسمدة الصناعية يُعدُّ من مؤشرات التقدم . وقد قبلناها ساعتها وكنا نحاسب أنفسنا على هذا الأساس، إلى أن اكتشف الغرب أن هذا التقدم يؤدي إلى السرطان وتدمير التربة، فأصبح استخدام المبيدات والأسمدة الصناعية من مؤشرات التخلف . وقد أصبح استخدام التليفونات والسيارات ودرجة التنقل من مؤشرات التقدم (دون حساب تكلفتها كما حدث مع المبيدات) . وقد ضرب الأستاذ عادل حسين مثلاً طريفاً على التبعية الإدراكية في مجال مؤشرات التقدم (استقاه من كتابات الأستاذ أحمد حسين رحمه الله) فأشار إلى أن بعض «العلماء» يتبنون استخدام الكرسي كمؤشر على التقدم والتخلف، فمن استخدمه كان متقدماً ومن لم يستخدمه كان متخلفاً . ولكنه يشير بعد ذلك إلى حقيقة في غاية الأهمية وهي أن الكرسي جزء من التشكيل الحضاري الغربي، استخدمه الغربيون حينما كانوا في أدنى مراحل تخلفهم وكان بعضهم لا يزال يُقدِّم الضحايا البشرية (في بعض أجزاء أوروبا، مثل البلاد السلافية) . وقد استخدم الغربيون الكرسي لا لتقدم أحرزوه وإنما

لسبب مادي وجيه للغاية وهو برودة الأرض، ولعلهم قدّموا بعض الضحايا البشرية جلوساً على الكراسي! وهناك شعوب أخرى مثل اليابانيين والعرب لم يستخدموه وهم في أقصى تقدمهم . ولا يمكن الزعم مثلاً أننا أصبحنا أكثر تقدماً من عرب العصر العباسي الأول لأننا لمجّلس على الكراسي من طراز لويس السادس عشر أو حتى الخامس عشر، بينما كانوا هم يفتشون الأرض، كما لا يمكن أن نزعّم أن وكيل وزارة الصناعة مثلاً أكثر تقدماً من مدير شركة «سوني» اليابانية لأن الأول يعود إلى منزله ويجلس على كرسي، بينما يعود الثاني فيخلع رداءه الأوربي ويرتدي رداءه الياباني التقليدي ويجلس على الحصير ويستريح . ولكن الكرسي تحول إلى مؤشر على التقدم بسبب انكسارنا من الداخل وتبعيتنا الإدراكية . وقد سمعت مرة بحثاً لأحد جهابذة علم الاجتماع المصري استخدم «عدد ساعات الاستماع للموسيقى السيمفونية» كمعيار للتقدم والتخلف - وياله من معيار هزلي سخيف يؤدي إلى نتائج عنصرية كريهة، إنه يشبه من بعض الوجوه عالماً غربياً يحكم على فنون بلده بالتخلف لأنها لا تضم فن الخط Calligraphy، ولأن المباني العامة فيها لا تزينها حكم مكتوبة بخط جميل، ففن الخط فن مقصور على الحضارات الشرقية . وقد وصل هذا الفن إلى قمة ازدهاره عند العرب والمسلمين لأسباب دينية وحضارية خاصة بهم وحدهم، ولا يصلح كمعيار عالمي لقياس التقدم والتخلف .

ونفس الشيء ينطبق على كثير من الأفكار والنظريات التي ترد لنا من الغرب، إذ نتلقاها في سلبية موضوعية مذهلة ونقوم بتطبيقها على أنفسنا بكفاءة شديدة دون أن ندرس شيئاً عن جذورها ولا نعرف شيئاً من خصوصيتها الغربية ولا نعرف إلا القليل عن تضميناتها الفلسفية، فنحن ننقل ما يُراد لنا نقله داخل الأطر القائمة الجاهزة . ولناخذ فرويد على سبيل المثال، قام الباحثون العرب بنقل كثير من أفكاره وترجمة أعماله بدرجات متفاوتة من البراعة والدقة، ويمكن للإنسان العربي الآن أن يحيط إحاطة كافية بفكره وأعماله من خلال المكتبة العربية . ولكن إن طالعت هذه الكتب العربية لن تجد أيّاً منها يتحدث مثلاً عن خلفية فرويد الاجتماعية والإثنية في فيينا في القرنين التاسع عشر والعشرين . هل كان المجتمع

الذي يعيش فيه فرويد والذي زوده بالقيم مجتمعاً متماسكاً صحياً أم مجتمعاً غير متماسك متآكل (حتى لا نستخدم مصطلحات أخلاقية مثل «منحل» و«مريض» فتثور ثائرة «العلماء» علينا وهم يفضلون لغة علمية محايدة)؟ وإن فعلنا ذلك فإننا سنكتشف أن فيينا قبل الحرب العالمية الأولى كانت من أكثر المجتمعات العنصرية في أوروبا وازدهرت فيها الأحزاب ذات التوجه العنصري ومما له دلالة أن أكثر الكتب شيوعاً في أوروبا في هذه الفترة كانت الكتب العنصرية . وهذا أمر منطقي، فهذه هي المرحلة الإمبريالية وتقسيم العالم التي شاعت إبانها الفلسفات الداروينية والنيتشوية والتي أعلنت أن الخالق قد انسحب من الكون أو حل فيه ثم مات (حسب رأي نيتشه المعلن ورأي داروين الكامن ورأي معظم فلاسفة عصر التحديث والتصنيع) . ويبدو أن مجتمع فيينا كان متمركزاً بشكل غير عادي ومتطرف حول فكرة اللذة . يُلاحظ انتشار الأمراض السرية بين أعضاء النخبة في أوروبا في تلك الفترة . (ومما له دلالة أن كلاً من نيتشه فيلسوف العدمية والعنصرية والنازية وهرتزل فيلسوف العنصرية الصهيونية، كانا مصابين بمرض سري عجل بوفاة كل منهما) . ولا يوجد عندي إحصائيات عن أعضاء الجماعة اليهودية، وهم عادةً ما يمثلون بشكل متبلور ما يحدث في المجتمع، وفرويد ينتمي إلى هذه الجماعة . ولعلنا لو عرفنا بعض هذه الأبعاد الاجتماعية والاقتصادية والحضارية من خلفية فرويد لأمكننا أن نكتشف ملامح جديدة في فكره كانت خافية علينا، ولأمكننا أن نطرح عليه أسئلة مختلفة عن تلك التي يطرحها العلماء الغربيون الذين يعيشون تحت نفس الظروف .

وماذا عن القبّالاه اللوربانية وميراث فرويد اليهودي؟ إن بحثت في المكتبة العربية لن تجد كتاباً جاداً واحداً في هذا الموضوع (إلا كتاب الدكتور صبري جرجس التراث اليهودي الصهيوني والفكر الديني الرائد، وهو كتاب كتبه عالم معروف يُشار إليه بالبنان ومع هذا يتم تجاهله تماماً من قبل المستخصصين) . ويبدو أن القبّالاه اللوربانية هذه تشكّل إطاراً معرفياً لأفكار فرويد وكافكا والفلسفة التفكيكية (وُصفت هذه القبّالاه بأنها تؤله الجنس وتجنس الإله) . وقد يكون من المفيد أن نعرف علاقة القبّالاه اللوربانية بالغنوصية التي يتواتر ذكرها الآن في الكتابات الدينية والفلسفية والأدبية وكأننا في القرن الأول الميلادي . وأعتقد أنه

من الصعب فهم التحديث والحداثة وما بعد الحداثة دون فهم كامل للقبالة (اليهودية ثم المسيحية) .

وفي الآونة الأخيرة ثارت زوبعة بنيوية ثم أخرى تفكيكية، كما بدأت تثور زوبعة ما بعد التفكيكية وما بعد الحداثة وما بعد هذا وذاك . فهل حاول أحد ممن يعرض هذا الفكر الأدبي والفلسفي أن يبين علاقته بمدارس تفسير التوراة عند اليهود؟ ويحدثنا رولان بارث عن «لذة النص» وهي لذة ذات طابع جنسي (ولذا يتلاعب هذا «الفيلسوف» بكلمات مثل «نصي تكستوال Textual» و«جنسي سيكشوال Sexual» ولترجمها «جنسي» حتى يمكننا أن نلعب نحن أيضاً)، هل يعرف أحد ممن تحدث عن لذة النص هذه أن هذا مفهوم قديم عند المفسرين اليهود، وأن إحدى مدارس التفسير (التأثرة بالقبالة اللورانية) تشبه التوراة بامرأة عارية تقف خلف حجب، يتساقط الواحد تلو الآخر إلى أن نصل إلى أعماق مستويات القراءة الذي يشبه بالجماع الجنسي؟ وإذا كنا نتحدث عن التفكيكية واللذة فهل لكل هذا علاقة بتآكل فكرة المعنى في الحضارة الغربية؟ هل التفكيكية هي الأخرى تعبير عن تزايد معدلات العلمنة؟ هذه هي بعض الأسئلة التي كان يجدر بمن ينقلون الفكر البنيوي والتفكيكي وغيره من الأفكار أن يطرحونها، بدلاً من نقل الأفكار وكأنها حقائق مطلقة ظهرت كاملة دون مقدمات أو أسباب، فيزيدون من تبعيتنا الإدراكية بدلاً من أن يزيدوننا معرفة وحكمة .

٣ - التبعية الإدراكية والمصطلحات السياسية

وتظهر التبعية الإدراكية في الخطاب السياسي العربي والمصطلحات التي يستخدمها المحللون، فمن الواضح أننا نفشل دائماً في أن نسمي الأشياء ونترك الآخر يصنفها ويسميها لنا، ومن يُسمي شيئاً فقد صنّفه ووضع داخل خريطة إدراكية كبرى، تنبع من إدراكه ومصالحه . فنحن على سبيل المثال حينما نكتب تاريخ أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين في العالم، فإننا عادةً ما نتحدث عن «المسألة الشرقية» وعن «رجل أوروبا المريض» مما يجعلنا ننظر إلى الدولة العثمانية (التي كانت تحمي شعوبها - رغم ضعفها واستبدادها - من الهجمة

الاستعمارية الغربية التي عصفت بالعالم بأسره) فننظر إليها باعتبارها «رجلاً مريضاً» وحسب، وننسى «رجل أوروبا النهم المفترس»، أي الإمبريالية الغربية التي كانت تبعد سكان أفريقيا آنذاك بعد أن كانت قد أبادت أعداداً هائلة من سكان الأمريكتين الأصليين، وبعد أن أبادت سكان أستراليا ونيوزيلندا، والتي كانت تقوم باستعباد سكان آسيا، وتخوض حرباً لتسويق الأفيون في الصين لنشر التقدم في ربوعه! ننسى هذا الرجل النهم الذي دس السم في طعام الرجل المريض، كما ننسى أنه لو تُرك الرجل المريض وشأنه لربما شفاه الله وعافاه على يد «رجل مصر الفتى». ولكنه النموذج الإدراكي المستورد من الغرب الذي يجعلنا ننظر إلى أنفسنا وتاريخنا من خلال عيون غربية.

وتظهر تبعيتنا الإدراكية للغرب في المصطلح الذي نستخدمه لوصف الصهيونية، فنحن نصف الصهيونية بأنها «الصهيونية العالمية»، وهي ترجمة موضوعية وأمينة لعبارة World Zionism (ونحن نترجم حتى حينما نفكر)، ولو نظرنا حولنا بضعة دقائق وتخلينا عن المقولات الإدراكية المستوردة والكامنة في المصطلح لوجدنا أن الصهيونية لا أثر لها في الصين أو الهند أو أفريقيا (باستثناء جنوب أفريقيا) ولا في كل آسيا (باستثناء الجيب الاستيطاني في فلسطين) ولا في أمريكا اللاتينية (إلا في داخل الجيب اليهودي في الأرجنتين) - أي أن الصهيونية (وهي إفرار لحركات التاريخ الغربي ولا يمكن فهمها إلا داخل هذا الإطار) توجد أساساً في العالم الغربي. ولذا كان من الضروري أن نسميها «الصهيونية الغربية» فهذه هي التسمية الوحيدة الدقيقة التي تستند إلى رؤية عميقة للواقع. ولكننا لم ندرك هذه الحقيقة البديهية لأننا وقعنا صرعى ما صُدِّر لنا من مصطلحات تُجسد نموذجاً معرفياً غربياً، والتصقت كلمة «عالمية» بالصهيونية وأحرزت شيوعاً لا نظير له. وكلمة «عالمية» تُضفي على الصهيونية هبة لا تستحقها، ورهبة لا تنبع منها، وقوة لا تمتلكها. كما أن الكلمة تعبر عن مضمون عنصري كامن، فحينما نُحت مصطلح «صهيونية عالمية» كانت كلمة «عالمية» مرادفة في العقل الغربي لكلمة «غربية»، ومن هنا مطالبة هرتزل مثلاً بإنشاء «دولة يحميها القانون العام (أي

الدولي)» وهو يعني في واقع الأمر القانون الغربي أي القوة الغربية . ويمكن القول أننا نقول «الصهيونية العالمية» مثلما نقول «الإمبريالية»، ونحن في هذا نكون قد تجاوزنا الحقيقة أيضاً . فمجال الصهيونية ليس العالم، إذ تظل فلسطين ساحتها الأولى والأساسية . وإن قامت الدولة الصهيونية بنشاط عالمي فهي تفعل ذلك بهدف تأمين الجيب الاستيطاني في فلسطين .

ومن أكثر الأمثلة درامية على فشلنا في تسمية الأشياء وإدراكها من منظورنا «نحن» لا من منظورهم «هم» تسميتنا للمستوطنين الصهاينة، فنحن نسميهم «رواد» ويتفلسف بعضنا ممن يعرفون العبرية ويقولون «حالتسيم» أي «رواد» والـ «حالتسيوت» أي «الريادة» . وهكذا تتوارى الحقيقة، ويضيع المتلقي العربي في محاولة نطق كلمة أعجمية مخارجها الصوتية غريبة عليه . كما أن كلمة «رواد» تحمل فخامة غير عادية وإيحاءات إيجابية، فالرائد دائماً في المقدمة يرتاد الصعب والمجهول . نقول هذا ونحن نعرف فيما بين أنفسنا أنهم مغتصبون لأرضنا وأنهم استولوا عليها بقوة السلاح الغربي، لا بسلاحهم هم، وبدعم من العالم الاستعماري لا بجهودهم الذاتية . أما الفلاحون الفلسطينيون، في أواخر القرن الماضي فكانوا ينظرون إلى هؤلاء الرواد/ الحالتسيم ويسمونهم بـ «المسكوب» نسبة إلى موسكو (مسكفا أو مسكبا) وهي تعني عندهم الأجانب أو الدخلاء - ويالها من تسمية بسيطة دالة تصل إلى جوهر الظاهرة كما نخبرها نحن، لا كما سماها صاحبها الذي يود إخفاءها وتعميتها .

وتظهر سخافتنا غير العادية في قولنا «معاداة السامية» وهي ترجمة للعبارة الغربية anti-Semitism وهي عبارة بلهاء تعادل بين اليهود والساميين وتُقرن بينهما، مع أن العبرانيين القدماء كانوا لا يشكلون سوى خلية حضارية صغيرة، تابعة بشكل يكاد يكون كاملاً للتشكيلات السامية الكبرى مثل تشكيلات البابليين والآشوريين والآراميين، وهي التي ورثها التشكيل العربي/ الإسلامي . وتُعدُّ اللغة العربية أهم اللغات السامية على الإطلاق حسب رأي علماء اللغات السامية، فلو صح استخدام المصطلح للإشارة إلى أحد فإنما يجب أن يشير لنا نحن العرب .

ولكن الحضارة الغربية في القرن التاسع عشر لم تكن قد وصلت إلى هذا المستوى المعرفي بعد، ولهم عذرهم فالمعرفة لا تأتي دفعة واحدة . كما أن الفكر العنصري الغربي المعادي لليهود كان يحاول استبعادهم كعناصر داخل التشكيل الحضاري الغربي ففرّق بين الآريين والساميين وفضّل الفريق الأول على الثاني . فكأن عبارة «معاداة السامية» هذه تعبير عن جهل غربي وعن عنصرية غربية وعن صهيونية غربية كامنة تهدف إلى التخلص من اليهود والإلقاء بهم في أرض فلسطين . ونقوم نحن بموضوعة بلهاء بترجمة المصطلح ونقول «معاداة السامية» - مع أنه كان من الممكن ببساطة شديدة أن نقول «معاداة اليهود» دون أن نستورد المصطلح المتحيز ضدنا، الخاطئ في حد ذاته .

والصراع العربي/ الإسرائيلي يُعدُّ في شكل من أشكاله صراعاً على تسمية الأشياء، فنحن نسمي تلك الأرض الواقعة بين سوريا والأردن ومصر «فلسطين»، بينما يسميها الصهاينة «إسرائيل» . ونسمي نحن سكانها «الفلسطينيين» ويسمونهم هم «سكان المناطق» . إذ أنه لا وجود لفلسطين ولا للفلسطينيين في المصطلح الصهيوني . ونحن نسمي الوجود الصهيوني في فلسطين «استعمار استيطاني إحلالي» واغتصاب، ويسمونه هم «عودة لأرض الميعاد، أو أرض الأجداد» . وقد تنبّه الصحفي الإسرائيلي روبرت روزنبرج لهذا الجانب في الصراع فقال في مقال له في الجيروساليم بوست بعنوان «ينامون بعمق في إسرائيل» : "قل لي كيف تصف المناطق وراء الخط الأخضر سأقول لك من أنت : محتلة؟ محررة؟ مهزومة؟ مدارة؟ يهودا والسامرة وغزة؟ قل لي كيف تصف الأحداث التي تقع هناك وسأقول لك من أنت؟ اضطرابات عادية؟ شغب؟ هيجان؟ قمع؟ مبالغة؟ إعلامية مؤقتة؟ حرب؟" .

المصطلحات لا توجد في فراغ وإنما داخل أطر إدراكية تُجسد نماذج معرفية . وقد تمت آخر محاولة لسلب الإنسان العربي حقه في تسمية الأشياء بحسن نية حينما طالب بعض الكتّاب العرب إسقاط كلمة «انتفاضة» ذاتها وإحلال كلمة «ثورة» محلها لأن الثورة في تصورهم هو عمل أكثر عنفاً وجذرية من الانتفاضة .

وأنا لا أعارض على كلمة «ثورة» كتسمية عامة لما يحدث هناك، وتجمع بينها وبين الظواهر المماثلة كجزء من تراث عالمي، ولكن مع هذا يظل للانتفاضة خصوصيتها التي يجب أن نعبر عنها . ونحن لو حللنا تفكير الكتّاب الذين يعترضون على كلمة «انتفاضة» لاكتشفنا أنهم متأثرين بالتراث اللغوي والمعرفي الغربي، حيث ترتب المحاولات الإنسانية لرفض القهر ترتيباً هرمياً يستند إلى تجربة الإنسان الغربي التاريخية، بحيث يوجد في قاعدة الهرم «أعمال الشغب riots» تعلوها «التمردات insurrections» ويعلوها «العصيان rebellion»، ثم أخيراً في قمة الهرم توجد «الثورة revolution» بكل ما تحمل من معاني الانقطاع الكامل والرفض التام للنظام القديم وطرح رؤية جديدة .

وهذه التقسيمات اللغوية نابعة لا من عبقرية اللغات الأوروبية وحسب وإنما من التجربة الحضارية التاريخية الغربية ذاتها حيث توجد عدة انقطاعات كاملة . فعصر النهضة كان رفضاً للعصور الوسطى ورفضاً للدين والكنيسة، وهناك كذلك الثورتان الفرنسية والبلشفية وهما تجربتان تاريخيتان ليس لهما ما يشبههما في التشكيلات الحضارية الشرقية، فهما يشكلان ما يشبه الانقطاع الكامل عما سبق وهدماً كاملاً للنظام القديم، ورفضاً جذرياً للدين وللقيم الأخلاقية المرتبطة به وطرح رؤية جديدة للعالم والإنسان . وكل هذا أمر مفهوم داخل التاريخ الغربي، وعلينا فهمه واحترامه .

ولكن يبدو أن التغيير داخل التشكيلات الحضارية الشرقية يأخذ شكلاً مغايراً يحتفظ بقدر من الاستمرارية (ربما بسبب الامتداد الزمني لهذه التشكيلات وكثافتها التاريخية) . فالثورة الماوية في الصين، رغم كل ديباجاتها الماركسية اللينينية، احتفظت بكثير من التقاليد الصينية، سواء على مستوى العقيدة أو السياسة . وانتقال اليابان إلى العصر الحديث تم في إطار الحفاظ على التراث والهوية (بما حدا ببعض علماء الاجتماع أن يطرح مصطلح «رأسمالية إقطاعية» ليصف النظام الاقتصادي الياباني) . والإسلام يطرح نفسه كدين توحيدي جديد لا يشكل انقطاعاً عن الأديان التوحيدية التي سبقتة وإنما استمراراً لها وتصحيحاً لمسارها .

وأعتقد أن الشرق الإسلامي ظل يتمتع بقدر كبير من الاستمرارية حتى نهايات القرن التاسع عشر .

وكلمة «انتفاضة» مناسبة تماماً لوصف هذه الاستمرارية وهي مشتقة من فعل «نفض» مثل «نفض الثوب» بمعنى «حركه ليزيل عنه الغبار أو نحوه» . ولعل هذا وصف دقيق للاستعمار الاستيطاني الصهيوني الذي لم يضرب جذوراً في تربتنا الجغرافية والتاريخية، فهو مثل الغبار الذي علق بالثوب الفلسطيني ولم يمس الجوهر . ويقولون أيضاً «نفض المكان» أي «نظر جميع ما فيه حتى يعرفه»، وهذا تكتيك معروف لدى شباب الانتفاضة . ويقولون أيضاً «نفض الطريق» أي «طهره من اللصوص» . ويقال «النفضة» وهي الجماعة الذين يعيشون في الأرض متجسسين لينظروا هل فيها عدو أو خوف، وهذا أيضاً تكتيك آخر للمستفيدين . وتحمل الكلمة أيضاً معاني الخصوبة فيقال : «نفض الكرم» أي «تفتحت عناقيده» ويقال، وهذا هو الأهم، «نفضت المرأة» أي «كثرت أولادها»، و«المرأة النفوض» هي المرأة الكثيرة الأولاد، أي المرأة التي لا تكف عن الإنجاب تماماً مثل الأنثى الفلسطينية . وانظر كذلك إلى تعبير مثل «نفض عنه الكسل» و«نفض عنه الهم» وكذلك «انتفض واقفاً» وهي كلها اصطلاحات تعني أن ما يحدث الآن كان هناك دائماً، لكنه كان متوارياً وحسب .

ونحن هنا لا نرفض كل المصطلحات والكلمات الغربية ولا نطالب بضرورة اتخاذ «بدائل» عربية لها، فهذا في تصوري تردُّ كامل وتقبل غير مشروط للنموذج المعرفي الغربي، بل ويساهم في ترويجه، إذ أنه يعطيه وجهاً عربياً إسلامياً يخبيء واقعاً غربياً . وهذا الموقف يشبه من بعض الوجوه مهندس الديكور الذي يبني شقة غربية من جميع الوجوه، ثم يضيف لها «حتة أرابيسك» أو «ركن عربي» ليمسك بتلابيب هوية آخذة في التآكل . أنا لا أتحدث عن بدائل (وكأن المصطلحات قطع غيار)، وإنما أطالب بنموذج معرفي متكامل ونسق لغوي يعبر عنه، ونقطة ابتداء مغايرة لرصد واقعنا وواقعهم، وهذا النموذج الجديد لا يرفض النماذج الأخرى بل على العكس يفتح عليها كلها دون خوف أو وجل، لأنه واثق من نفسه .

وظاهرة «الثورة» يمكن دراستها داخل التشكيل الحضاري الغربي وداخل التشكيلات الأخرى، وندرك مضامينها العديدة وقوانينها المتنوعة (فالثورة ليست ظاهرة طبيعية بسيطة لها قانونها المادي العام) وتتفاعل معها وتأخذ منها دون التخلي عن خريطتنا المعرفية . إنني أحترم خصوصيتي مثلما أحترم الخصوصية الغربية وكل الخصوصيات الأخرى التي سأدركها . وفي تصوري أنني من خلال إدراكي لخصوصيتي سأدرك خصوصية الآخرين . واصطلاح «ثورة» كما هو متداول يتسم إما بكثير من العمومية أو بكثير من الالتصاق بالتجربة الغربية في التمرد على الظلم، ولذا فهو لا يصلح لوصف التجارب المغايرة بسبب عموميته الزائدة وخصوصيته المتطرفة، أي أنه ليس اصطلاحاً علمياً بالمرّة، ويمثل محاولة فرض مفاهيم واصطلاحات من التاريخ الغربي على أحداث التاريخ العربي . يجب أن ندرس، منطلقين من خصوصيتنا، التجربة الغربية في الثورة (وفي النكوص عنها، وإلا بهم نفساً ما حدث في الاتحاد السوفيتي؟) . ويجب أن نتفاعل مع هذه التجربة دون أن نضطر إلى تسمية «الانتفاضة» (بما تحمل من معاني الخصب والاستمرار والتجذر الواصل من نفسه) «ثورة» (بكل ما تحمل من معاني الاحتراق والبدائيات الجديدة) . نفعل ذلك دون أن نفصل الانتفاضة عن التراث الثوري الإنساني الذي لا تشكل التجربة الغربية فيه سوى جزء من كل .

إن الثورة انقطاع، أما الانتفاضة فعودة لما سبق واسترجاع للهوية التي سلّبت حتى تصبح «إسرائيل» مرة أخرى «فلسطين» كما كانت دائماً عبر التاريخ، وكما ستكون بإذن الله في المستقبل . والمناضلون الفلسطينيون في اختيارهم لكلمة «انتفاضة» قد وضعوا يدهم على واحدة من أهم خصائص تحركهم التاريخي المبارك، وهو أنه تحرك داخل إطار الهوية التي تمتد من الماضي عبر الحاضر إلى المستقبل، ورفض للتبعية السياسية والاقتصادية والإدراكية . ولا يمكننا أن ننسب لشباب الانتفاضة الذين اختاروا المصطلح معرفة بكل هذا وإدراك واعٍ له، ولكن لا يمكن أيضاً أن ننكر إحساسهم الحضاري السليم بلحظتهم التاريخية أو ارتباطهم المباشر بتراثهم أو إعراضهم النفسي والمعرفي عن النموذج الهرمي الغربي . فقد أثروا أن يحملوا علم الانتفاضة بكل مدلولات الكلمة العميقة والدالة والتي لا

نظير لها في اللغات الأوربية . وفي العالم الغربي ذاته أدركوا خصوصية الانتفاضة ولذا فهم يكتبون الكلمة كما هي بحروف لاتينية دون محاولة للبحث عن مرادف لها في معجمهم اللغوي .

٤ - الاستعارة والصورة والإدراك

سُيْلَاحِظُ القارئ أنني في هذه الدراسة (وغيرها من الدراسات) كثيراً ما أتناول الاستعارات والصور الكامنة والواضحة في أقوال العرب والصهاينة، كما أنني لا أحجم أحياناً عن استخدام الاستعارات في التعبير عن بعض الأفكار . وكثيرون يظنون أن الصور زخرفة وأن الاستعارات إضافة ومحسنات لفظية، ولكننا نعرف تماماً أنها أبعد ما تكون عن ذلك، فهي وسيلة إدراكية لا يمكن للمرء أن يدرك واقعه أو أن يعبر عن مكنون نفسه دونها . فالاستعارة إذن مرتبطة تمام الارتباط بالنماذج المعرفية والإدراكية وخير وسيلة للتعبير عنها . وإذا أراد الدارس أن يصل إلى هذه النماذج ويعرف هويتها فلا يمكنه قط أن يطرح الاستعارات والصور جانباً باعتبارها رخارف . بل إننا نعرف أن الاستعارة جزء أساسي من نسيج اللغة ذاتها وعملية التفكير الإنسانية . ومن هنا تناولنا الاستعارة بالتحليل واستخدام إياها . ففي كتابي عن الانتفاضة قمت بتحليل استخدام شامير لصورة «عملاق جلفر» وبيّنت أنها مقلوب الصورة الصهيونية القديمة «داود وجالوت» . وأشارت إلى التحول الذي دخل على الرأي العام العالمي بحيث أصبح يستخدم صورة داود الذي يمسك بالقلع لإدراك العربي . ونحن إذا كنا نحاول دراسة السلوك الإنساني وأن نرصده الإنسان في كل تركيبته، فإننا لابد أن نرصد المعنى، والمعنى يتجلى في الاستعارات والصور أكثر من الخطاب المباشر .

وقد أشرت في كتابي عن الانتفاضة إلى واقعة دالة وطريفة ذكرها ضابط إسرائيلي، إذ شاهد شاباً فلسطينياً يرفع علم فلسطين فوق مئذنة في يوم مطير . وقد أنجز الشاب ما يريد بعد جهد جهيد . وقد تركت الصورة أثراً عميقاً في نفس الضابط الإسرائيلي، واعتبر أن المجاهد الفلسطيني هو عكس صورة المستوطن الصهيوني الباحث عن الدعة والراحة . وقد تصادف أن بعض المعلقين السياسيين

العرب المهتمين بالانتفاضة استخدموا نفس المقال الذي وردت فيه هذه الواقعة كأحد مصادرهـم . وقد فوجئت أنهم أسقطوا كلمة «مئذنة» وحولوها إلى «برج عال» (أي أنهم علمنوها وطبّعوها وجعلوها جسماً مادياً عالياً والسلام) . وأنا هنا لا أتحدث عن عدم التزامهم الدقة العلمية، فالمئذنة في نهاية الأمر برج عال . ولكن ما يهـمنا في عملية الرصد الدقيقة أن الإسرائيلي شاهد فلسطينياً يتسلق مئذنة وأن هذا هو ما رآه في أحلامه تلك الليلة، وهذا ما رواه لأصدقائه، وهذا ما سيحدد سلوكه . ولذا فإسقاط الواقعة التي تحولت إلى استعارة وصورة محددة في ذهنه (نموذج إدراكي) ستقلل من مقدرتنا على تفسير سلوك هذا الإسرائيلي وبالتالي التنبؤ به . وكما تحدثنا عن إمبريالية المقولات، يمكننا أيضاً أن نتحدث عن إمبريالية الاستعارات، وهي الاستعارات الأساسية التي تعبر عن إدراك الآخر وعن أحاسيسه الوجودية المتعينة وعن نموذج المعرفة . وكثيراً ما تقتحمنا هذه الاستعارات وتهيمن علينا وبالتالي يهيمن علينا النموذج المعرفي الكامن فيها .

وقد قمت في هذا الكتاب بتحليل بعض المصطلحات السياسية لأبـين الجانب المجازي فيها مثل «رجل أوربا المريض»، و«الحمام والصقور» . واكتشفنا أن الحمام والصقور مجاز (أي أن المسالين مثل الحمام والمتشددين مثل الصقور) ونحتنا استعارتين أخريـن، دجاج ونعام، وولـدنا استعارات مختلطة مثل الدجاج والنعام التي تأخذ هيئة الصقور . إن الاهتمام بالمجاز والصور هو في نهاية الأمر اهتمام بالإدراك والدوافع والسلوك المتعين للإنسان وبتركيبته التي تعجز اللغة الإخبارية المباشرة عن نقلها .

وأخيراً....

يجب ألا ننطلق في رصدنا للبشر ولكل الظواهر المحيطة بنا من مقولات ثابتة مسبقة، أو من إدراك الآخرين لهم، إذ يجب أن نؤسس دراستنا على تجربتنا وتفاعلنا نحن مع الظواهر وأن ننفض عنا أي تبعية إدراكية . كما يجب ألا ندرس البشر وكأنهم انعكاس مباشر لواقعهم المادي، أشياء صماء تتأثر بقوانين الحركة المادية، ظواهر طبيعية تُرصد من الخارج كما تُرصد الأشياء، إذ يجب دراستهم كبشر يحسون بما حولهم بطريقة محددة ويسقطون عليها معنى داخلياً هو الذي

يحدد أهميتها بالنسبة لهم ويحدد مدى نجاحهم وفشلهم . وهم كبشر قابلين أيضاً للتماسك والنمو دون حتميات مسبقة تثبط الهمم دون مبرر أو تشخذه دون أساس، أي علينا أن نستعيد الإنسان كفاعل، قابل للانتصار والانكسار - من الداخل والخارج . ونحن إن فعلنا ذلك، زاد إبداعنا، وبدأنا ندرك الآخر في أبعاده المركبة المختلفة .

ونحن في كل هذا وبإدراكنا لخصوصيتنا وخصوصية الآخر لن نهون من قدر الآخر (سواء كان من الصهاينة أم من الحضارة الغربية) ولا من قدر أنفسنا . كما أننا لن نهول من قدره أو قدر أنفسنا . بل نرصده ونرصده أنفسنا بكل ما نضم داخلنا من قوى إيجابية وسلبية، مادية وروحية، حقيقية وكامنة . ونحن لو فعلنا ذلك نكون قد نزعنا عن الآخر أية هالات عجائبية يكون قد خلعها على نفسه (والعظمة "في نهاية الأمر" لله وحده) دون أن ننكر قوته الذاتية الحقيقية . ونكون أيضاً قد استعدنا للإنسان العربي إمكانيات الحركة الكامنة داخله وأدركنا أن ما قد علانا من غبار الهزيمة يمكن أن ننفضه وأن ننطلق لنعلي كلمة الحق والفضيلة في زمن الكذابين والصحفيين المأجورين والإعلام المصقول وأدوات القمع الكفء . وكما قلت في بداية المقدمة هذا الكتاب يدور حول قضية الإدراك وعلاقته بالسلوك وأثر كل هذا على التحليل السياسي . ورغم أن كل الحالات التي نتناولها مستمدة من عالم الجماعات اليهودية والصهيونية إلا أن موضوع الكتاب هو أولاً وأخيراً قضية الإدراك .

ويتناول الفصل الأول خريطة الإدراك الصهيوني للعرب ومحاولة تجريدهم وتغييبهم . أما الفصل الثاني فيتناول نفس القضية وإن كان المجال يتغير، فهذا الفصل يتناول الإدراك الإسرائيلي للعرب ومدى علاقة هذا الإدراك بسلوكهم، كما يركز هذا الفصل على إدراك الإسرائيليين للدولة الفلسطينية والانتفاضة . وفي جميع الحالات تحاول الدراسات أن تركز على المنحنى الخاص للإدراك وترصد تطوره عبر الزمان . ويتناول الفصل الثالث الإدراك الغربي لليهود وكيف يتحول

اليهود إلى مجرد عنصر نافع بل وإلى «مسلمين» في الوجدان الغربي، ويتناول هذا الفصل تصور العالم الغربي للدولة الصهيونية باعتبارها عنصراً نافعاً كما يتناول رؤية العالم الغربي والصهاينة لحروب الفرنجة (الصليبيين) رؤية النازيين لمفهوم الحكم الذاتي واحتمال تأثر الصهاينة بهذه الرؤية . ويحاول الفصل الرابع (والأخير) أن يقوم بتفكيك الإدراك الصهيوني وتوضيح كيف يعمل هذا الإدراك وكيف يعيد صياغة الواقع بما يتفق مع رؤية الصهاينة ومصالحهم . كما يبين هذا القسم أن التعامل مع الحقائق الصلبة خارج سياقها التاريخي ودون دراسة البُعد الإدراكي والمعنى الداخلي فإنها تصبح إما لا معنى لها أو يفرض عليها أي معنى . ويوضح هذا القسم أهمية عملية التفكيك والخطوات اللازم اتباعها لإنجازه والله أعلم.

د . عبد الوهاب محمد المسيري

دمنهور والقاهرة يناير ١٩٩٦

الفصل الأول :

في الإدراك الصهيوني للعرب

- ١- من العربي المتخلف إلى العربي الغائب
- ٢- الاستجابة الصهيونية للعربي المحققي

١- من العربي المتخلف إلى العربي الغائب

من الحقائق الأساسية التي لا بد من إدراكها أن الفكرة الصهيونية استمدت ملامحها الأساسية، ثم مقومات وجودها، من الحضارة الغربية (الرأسمالية/الإمبريالية) في القرن التاسع عشر، خاصة في الجزء الأخير منه. كانت هذه الحضارة في تلك المرحلة الزمنية قد وصلت منعطفاً خطيراً وهاماً للغاية من تاريخها، ومن تاريخ البشرية جمعاء، بعد الانفجار الذي حدث في إنتاج السلع نتيجة للثورة الصناعية، إذ تحولت إلى حضارة نهمة مفترسة جعلت من الإنتاج غاية لا وسيلة، وجعلت الغرض من إنتاج السلع هو الربح لا سد حاجة إنسانية ما.

وقد أدت هذه الانفجارية الإنتاجية (المنفصلة عن أي سياق إنساني أو أي إطار أخلاقي) إلى نمو الظاهرة المعروفة بالإمبريالية التي وصلت إلى ذروتها في العقدين الأخيرين في القرن الماضي (وهي المرحلة التي ولدت فيها الصهيونية واقتسم الغرب فيها العالم).

وكان لا بد من ظهور اعتذاريات تبرر هيمنة الإنسان الغربي على مصائر كل البشر، واغتصابه لكل الثروات على وجه الأرض، واقتسامه لآسيا وأفريقيا وأمريكا، ولإبادته لسكان عدة قارات بأكملها (الإمريكتين وأستراليا) ولاستعباده ونقله لأعداد هائلة من سكان قارة أخرى (أفريقيا) ولاستغلاله لشعوب قارة ثالثة واحتلاله لبلدانها (آسيا، خاصة الهند). وقد شهدت هذه المراحل بالفعل تطور وتبلور الفكر العنصري الغربي وظهور كل كلاسيكياته المعروفة ابتداءً من فكر هيجل الذي يحتوي داخله على النظرية العنصرية الغربية بشكل جنيني، ومروراً بفخته وتريتشكه ونيتشه وتشامبرلين، وأخيراً هتلر ومنظري النازية.

ومن الصعب «تلخيص» هذا التراث الضخم والمركب من الكتابات العنصرية الغربية، وهو أمر على أية حال يقع خارج نطاق هذا البحث، ولكن قد يكون من المفيد أن نحاول أن نصل إلى بعض ملامحه الأساسية لأننا بذلك ندرك أيضاً الملامح الأساسية للفكر الصهيوني. ويمكن القول أن جوهر الرؤية العنصرية في

الغرب هي تحويل الذات القومية، أو «اثنية» الإنسان، إلى المصدر الوحيد للقيمة والمطلق الوحيد الذي يؤمن به الإنسان، بحيث يصبح ماهو خارج هذه الذات مجرد وسائل يمكن استخدامها (على أحسن تقدير) وعوائق يجب إزالتها (على أسوأ تقدير).

وقد أفرزت هذه الرؤية نظرية «للحقوق» الأزلية التي لا تخضع للنقاش والتي لا يتمتع بها سوى صاحب الاثنية. ولكن كان الحل الإمبريالي لمشاكل أوروبا هو تصديرها إلى الشرق، ولذا عُرِّفت هذه الهوية على أنها متفوقة أيضا بحيث اتسع نطاق نظرية الحقوق ليستلح حقوق الآخرين «المتخلفين» في آسيا وأفريقيا والأمريكتين حيث توجد تشكيلات حضارية بدائية لا قيمة إنسانية لها، كما كان يدعي الإمبرياليون، ومواد خام يمكن استخدامها لتزويد الآلة الصناعية الرهيبة، وسوق ضخمة تبتلح كل السلع التي أنتجت بهدف الربح.

ويمكننا القول -بكثير من الاطمئنان- أن بنية الرؤية الصهيونية لكل من اليهود والعرب اكتسبت نفس هذه الملامح. فالحركة الصهيونية قد بدأت بين اليهود بإعلان التمرد على الدين اليهودي والشريعة اليهودية وقام الصهاينة بإحلال اليهودي ذاته والاثنية اليهودية محل العقيدة اليهودية كمصدر أساسي للقيمة، وأصبحت هذه الذات هي المطلق الذي يبحث عن التحقق في التاريخ (وكانها كلمة الله). . . ولذلك نجد أن منطق الرؤية الصهيونية للذات الصهيونية وتحقيقها يعني اختفاء العربي وغيابه (لا سبه أو نعتة بالتخلف وحسب على الطريقة الغربية) بحيث يصبح هذا الغياب هو محورها الرئيسي وغرضها النهائي، وقصدها الخفي في معظم الأحيان، والمعلن في أحيان قليلة.

وإذا افترضنا أن تحقق هذا المتصل الإدراكي أو ذروته هو الغياب الكامل للعربي فإن كل الأجزاء والمراحل الأخرى تنزع نحو ذلك. وفي نظامنا التصنيفي سنبدأ بأقصى اليمين وهي لحظات إدراكية نادرة يدرك فيها العقل الصهيوني وجود الإنسان العربي الحقيقي وتاريخه ونضاله بل وحقوقه، وفي أقصى اليسار توجد الرغبة الصهيونية العارمة في أن يغيب العربي حتى تخلص له الأرض دون سكانها. ومن

الطرف الأول إلى الطرف الآخر ثمة اتجاه تدريجي نحو التخلص إدراكيا (وفعليا) من هذا العربي ابتداء من نعته بأنه إنسان شرقي ملون متخلف، ثم رؤيته على أنه ممثل للأغيار بكل وحشيتهم وقسوتهم ولذلك فهو يستحق ما يحل به، ثم محاولة تهميشه، وانتهاء بإنكار وجود العربي أساسا.

ويلاحظ أن الحركة هنا هي حركة نحو مزيد من التجريد فبدلا من رؤية الإنسان الفلسطيني كإنسان حقيقي مزارع يعيش في أرضه وأرض أجداده يزرعها وينتج أشكالا حضارية تستحق الاحترام، يتحول إلى إنسان شرقي متخلف لا يستغل الأرض على أكمل وجه. ثم تزداد درجة التجريد ليصبح ممثلاً للأغيار، عليه أن يدفع ثمن الكوارث التي حاقت باليهود عبر التاريخ، ثم يظهر هذا الإنسان على أنه شخصية هامشية تفتقد أية هوية قومية أو حضارية أو أية دوافع سياسية. ثم يصل التجريد ذروته (والرؤية لحظة تحققها) حينما تنكر الأدبيات الصهيونية وجود هذا الإنسان أساساً وتغفل الإشارة إليه. وفي بقية هذا الفصل سنتناول بشيء من التفصيل مقولات الإدراك الصهيوني الأربعة:

(أ) العربي المتخلف.

(ب) العربي ممثلاً للأغيار.

(ج) العربي الهامشي.

(د) العربي الغائب.

العربي المتخلف

نظرت الصهيونية لنفسها على أنها جزء من التشكيل الحضاري الاستعماري الغربي حتى تستفيد من نظرية الحقوق والواجبات السائدة في الغرب في القرن التاسع عشر، والتي عرّفت واجب الإنسان الأبيض بأنه إدخال الحضارة في المناطق الأقل تحضراً في آسيا وأفريقيا وذلك عن طريق الاحتلال الفعلي للقارتين^(١)، حتى لو أدى ذلك إلى إبادة السكان الأصليين^(٢).

وقد عرّف مفكرو الحركة الصهيونية اليهود بأنهم جزء من الجنس الأبيض المتقدم، وكان هرتزل يرى مشروعه الصهيوني في إطار فكرة عبء الرجل الأبيض (٣) وتبعه في ذلك رانجويل (٤) وآخرون.

ولذلك نجد في الكتابات الصهيونية حديثاً طويلاً وعملاً عن النظافة الغربية والنظام الغربي والحضارة الغربية التي سيأتي بها الصهاينة كممثلين للحضارة الغربية في «الشرق الموبوء» (٥)، وهذا موضوع أساسي كامن متواتر في الأدبيات الصهيونية يمكن لمن يشاء أن يعود لأعمال معظم المفكرين الصهاينة ليجد أطناناً من الأقوال تدعم رأينا هذا.

هذه الرؤية للذات الصهيونية الغربية المتقدمة تفترض صورة العربي الشرقي المتخلف، وهي صورة محورية في الأدبيات الصهيونية. وقد لاحظ المفكر الصهيوني أحاد هعام عام ١٨٩١ أن المستوطنين الصهاينة يعاملون العرب باحتقار وقسوة، وينظرون إليهم باعتبارهم «متوحشون صحراويون»، «شعب يشبه الحمير، لا يرون ولا يفهمون ما يدور حولهم». (٦) كما لاحظ أحد الرواد الصهاينة في أوائل القرن أن الصهاينة يعاملون العرب كما يعامل الأوربيون السود (٧). أما هارون أرونسون، أحد زعماء المستوطنين في أواخر القرن ١٩ وأوائل القرن العشرين، فقد حذر الرواد الصهاينة من أن يقطنوا بجوار «الفلاح (العربي) القذر، الجاهل والذي تتحكم فيه الخرافات»، كما أنه كان يؤمن «بأن كل العرب مرتشين» (٨).

والعربي، حسب تصور وايزمان، يتصف بنفس الصفات تقريباً التي ذكرناها من قبل، فهو «عنصر منحط» (٩) يحاول «الجرى قبل أن يستطيع السير» (١٠)، وهو شعب غير مستعد للديموقراطية ومن السهل أن يقع «تحت تأثير البلاشفة والكاثوليك» (١١). وقد أرسل هذا الزعيم الصهيوني خطاباً لسترومان رسم فيه صورة مشرقة للذات الصهيونية المتقدمة في مقابل الصورة الكثيفة للمجتمع العربي الأمي الفقير في فلسطين (١٢). وأعتقد أنه لا يفيد كثيراً أن نأتي بمزيد من «الأدلة» والقرائن والبراهين من أعمال بن جوريون أو جابوتنسكي أو غيره من الكتاب

الصهاينة إذ أن مثل هذا سيكون مجرد تمدد أفقى لا يغير من الصورة كثيرا. وبما أننا لسنا في مجال محاكمة الفكر الصهيوني وإنما نهدف إلى فهمه وتصنيفه فلتتوقف قليلا لندرس هذا البعد من الإدراك الصهيوني للعرب.

صورة العربي المتخلف تعود بجذورها إلى الاعتذاريات والكتابات العنصرية التي تتحدث عن عبء الرجل الأبيض ولذلك فهي لا تتسم بأية خصوصية صهيونية. فالعربي المتخلف لا يختلف كثيرا عن الأفريقي المتخلف أو الآسيوي المتخلف أو حتى الأمريكي الأسود المتخلف، فكلهم سواء من وجهة نظر الإنسان الغربي المتقدم. ولذلك نجد أن الوصف هنا يتسم بالعمومية والتجريد والانتقاء، وهذا أمر حتمي في أي تفكير عنصري لأنه إن لم يتسم بذلك وجد العنصري نفسه أمام وجود متعين محسوس له قيمة تاريخية متعينة محددة وأصبح من العسير استغلال صاحب هذا الوجود واقتلعه وإبادته.

ولكن إذا كان العربي متخلفاً إلى هذا الحد، والصهيوني متقدماً إلى هذا الحد، أليس من المنطقي أن نتوقع أن يأخذ الثاني بيد الأول. وهنا يجب أن نهيب بمنطق التاريخ قليلا طارحين جانبا منطق الأسطورة. وسنكشف أن وايزمان العقلاني، الذي كان يقترح في العرب لتخلفهم، لم يحاول قط أن يأتى بالنور والحداثة والتقدم، بل ساعد على تكريس التخلف، ولذا بذل قصارى جهده ليستفيد من الخلافات العربية المختلفة ومن الاحتكاك بين الفلاحين والبدو، ومن التوترات والصراعات بين المسلمين والمسيحيين وبين العناصر الحضرية والريفية^(١٣). بل وحاول الصهاينة في صيف عام ١٩٢١ تأسيس «منظمة قومية إسلامية» تتخذ موقفا ممالئا للبريطانيين وتعارض المنظمات الإسلامية / المسيحية والمعارضة للاستعمار، وقد نجحوا بالفعل في تأسيس مثل هذه المنظمات في حيفا والناصره وطبرية^(١٤) ولكن يبدو أنها لم تعمر طويلا. وقد فضل الصهاينة دائما التعامل مع القيادات التقليدية و سحق القيادات الحديثة.

والصهاينة محقون في ذلك تماماً، فلقد أدركوا منذ البداية أن تحديث العرب وتقديمهم يعني تحقق الإمكانية العربية الكامنة، وتحقيقها سيؤدي لا محالة إلى الغياب الصهيوني، وهو أمر لا يمكن لحركة سياسية ذات مصالح حضارية/ طبقية محددة أن تسمح به. لكل هذا يمكننا القول أن الإدراك الصهيوني للعربي من خلال هذه المقولة لا يجعل منه إنساناً شرقياً متخلفاً وحسب، وإنما يود أن يبقى عليه في هذا الوضع.

العربي ممثلاً للأغيار

تتسم الرؤية الصهيونية للذات بالتنوع بل والتناقض أحياناً، والصهاينة الذين يرون أنفسهم كشكل من أشكال التعبير عن الحضارة الغربية يرون أنفسهم أيضاً كتعبير عن الجوهر اليهودي الخالص، وبذا يصبح المشروع الصهيوني ليس ممثلاً للحضارة الغربية المتقدمة وإنما ممثلاً للشعب اليهودي الذي عانى الولايات عبر تاريخه على يد الأغيار. ولكن رؤية الذات -كما أسلفنا- مرتبطة برؤية الآخر، ولذا نجد أن العربي، في هذا السياق الجديد، يتحول من العربي المتخلف إلى العربي ممثلاً للأغيار. والموقف الصهيوني من الأغيار يتسم بالاستقطاب المتطرف، فالعالم ينقسم إلى الضحايا اليهود والأغيار الذئاب -شعب مختار وشعوب مترتبة به- دائماً وأبداً. وإذا كانت الاستراتيجية الإدراكية الأساسية عند العنصريين -كما أسلفنا- هي تجريد الضحية من إنسانيته التاريخية المتعينة وبالتالي من حقوقه، فإن عملية التجريد هنا تكتسب خصوصية تزيد التجريد حدة وضراوة. فمقولة الأغيار أكثر تجريداً من مقولة الزنجي في الأدبيات العنصرية البيضاء، ومن مقولة اليهودي في الأدبيات النازية، ومن مقولة العربي كشرقي متخلف في الأدبيات الصهيونية. وينبع تجردها من أنها لا ترتبط بزمان أو مكان محددين وإنما تضم كل الآخرين في كل زمان ومكان. فالعربي شرقي متخلف مرتبط علي الأقل بمكان ما هو الشرق، وزمان ما هو الماضي، أما حينما يصبح ممثلاً لكل الأغيار فهو يصبح لا تاريخ ولا أرض له، ويفقد كل ملامحه وقسماته وبذا تحقق الاستراتيجية الإدراكية خطوة كبيرة إلى الأمام (نحو الغياب الكامل).

ومرة أخرى يجب أن ندرك أن الصهاينة كانوا يتبعون في ذلك التشكيل الحضاري الغربي. فالصهيونية ذات الديباجة المسيحية والتي يسبق تاريخها تاريخ الصهيونية ذات الديباجة اليهودية قبلت مثل هذا التقسيم للعالم كيهود وأغيار. ولذلك يتحدث وعد بالفور عن «الجماعات غير اليهودية» - أي جماعة الأغيار التي تشغل الأرض. وقد أشار هرتزل أثناء تفاوضه بشأن كيريت كي تصبح موقعا للاستيطان الصهيوني - أشار إلى سكانها بطريقة تنم عن عدم الاكتراث والتجريد، فقد وصفهم بأنهم مجرد أغيار، «عرب، يونانيون، هذا الحشد المختلط من الشرق» (١٥).

هذا الإدراك للعربي ممثلا للأغيار ساعد الصهاينة على «تفسير» الثورات العربية الفلسطينية المتتالية تفسيراً يتلاءم مع مصالحهم وتحيزهم ورؤيتهم، إذ تصبح المقاومة العربية جزءاً من مؤامرة الأغيار الأزرلية. فقد وصف إسحق بن ترفى، رئيس اسرائيلي سابق، المقاومة العربية بأنها مجرد مذبحه أخرى يرتكبها المعادون لليهود قام قنصل روسيا في فلسطين بالتحريض عليها (١٦). وحينما اختفى القنصل الروسي بعد الثورة البلشفية كانت القيادة الصهيونية ترى عملاء المجلترا ثم عملاء فرنسا في العشرينات، وعملاء ألمانيا النازية وإيطاليا الفاشية في الثلاثينات كمحرضين على هذه الثورة (١٧). أما في الأربعينات فقد أصبحت سلطات الانتداب. والإدارة العسكرية في فلسطين - حسب هذه الرؤية - هي المحرك الرئيسي لثورة الفلاحين الفلسطينيين (١٨). وقد لخص أحد المستوطنين الصهاينة هذا الموقف بقوله أن ثورة الفلاحين الفلسطينيين ليست محاولة لرد العدوان والظلم الواقع عليهم وإنما هي تعبير عن العداء الأبدي الذي يديه الأغيار نحو اليهود، بوصفهم «شعباً طرد من بلاده» (١٩).

وهكذا من خلال هذا الإدراك يستوعب الصهاينة التمرد العربي ويضعونه داخل قالب مجرد يفرغه من مضمونه الإنساني بحيث لا يشكل أي تهديد نفسي للمغتصب، بل أنه يحول المغتصب، - مهما بلغ جرمه من بشاعة - إلى ضحية أبدية!.

وقبل أن نتقل للمقولة الثالثة قد يكون من المفيد أن نذكر أن الإدراك الصهيوني للعرب يركز دائماً على الماضي وعلى الحاضر ويسقط المستقبل تماماً في معظم الأحيان، وإذا تم التعرض له فإن المستقبل يُنظر إليه باعتباره امتداداً كمياً للماضي وليس مجالاً للتحول الكيفي. ومثل هذا الموقف هو نتيجة طبيعية لإسقاط التاريخ والزمان وتحويل العربي إلى كم متخلف غير قادر على الحركة أو ممثل لا زمني للأغيار يتخطى الحاضر والمستقبل.

العربي الهامشي

بيناً في بداية الفصل أن الترجمة الكاملة للرؤية الصهيونية هي الغياب الكامل للعرب. وقد لاحظنا أن عملية التجريد التي تحدثنا عنها هي أيضاً عملية إسقاط لإنسانية هذا العربي وبالتالي تجريده من أية حقوق إنسانية. وتصل هذه العملية إلى قمته في مقولة العربي الغائب. ولكننا لا نصل إلى هذه الذروة مباشرة إذ يمكن ملاحظة استراتيجيات إداركية مختلفة تسبق ظهور العربي الغائب سنسميها «تهميش العربي».

ويمكن القول أن عملية تهميش العربي تأخذ أساساً شكل إنكار أي وجود سياسي قومي للعرب عامة وللפלستينيين على وجه الخصوص. فالصهاينة في إدراكهم للثورات العربية ضدهم ينكرون طبيعتها القومية والسياسية ويؤكدون لأنفسهم ولرفاقهم أن الدافع لهذه الثورات ليس حب الأرض أو الوطن أو تمسك الإنسان بترائه، وإنما هي ثورة تعبر عن «التعصب الديني»^(٢٠). وكان الصهاينة أحياناً يلومون المسيحيين العرب باعتبارهم الأعداء الحقيقيين لمشروعهم الإستيطاني، ويصورون المسلمين باعتبارهم طيين يمكن التفاهم معهم؛ وأحياناً أخرى كانوا يفترضون العكس فيؤكدون أن العدو الحقيقي هم المسلمون أما المسيحيون فهم على استعداد أكبر للتعاون^(٢١). وكانت الجماهير الفلسطينية بالنسبة لهم مجرد غوغاء لا تحركها الدوافع القومية يتلاعب بها الإقطاعيون والأفندية^(٢٢). وتمرد هذه الجماهير ليس تعبيراً صادقاً عن حركة قومية خلاقة وإنما تمليه الاعتبارات الإقطاعية والقبلية الضيقة^(٢٣).

إلى جانب هذا كان الصهاينة يرون الفلسطينيين أو العربي حيواناً أو مخلوقاً اقتصادياً محضاً تحركه الدوافع الاقتصادية المباشرة، ولذا يمكن حل المشكلة العربية- حسب هذا التصور- في إطار اقتصادي ليس بالضرورة سياسياً (٢٤). ولعل من أول الأمثلة على هذه الاستراتيجية الإدراكية رشيد بك، هذا العربي المخلّق حسب المواصفات الصهيونية في رواية هرتزل الأرض الجديدة القديمة، الذي يؤكد أن الوجود الصهيوني قد عاد علينا بالنفع الكبير. لقد زادت صادرات البرتقال عشر مرات، وكانت الهجرة اليهودية خيراً وبركة خاصة بالنسبة لملاك الأراضي لأنهم باعوا أرضهم بأرباح كبيرة (٢٥). وظل ليف من الصهاينة يؤمن إيماناً راسخاً بأنه يمكن التغلب على معارضة الفلسطينيين عن طريق توضيح المزايا الاقتصادية الجمة التي سيجلبها الاستيطان الصهيوني، وعن طريق حثهم على الرحيل إلى البلاد العربية [بعد إعطائهم التعويض الاقتصادي المناسب عن وطنهم] (٢٦). وكانت إحدى قنوات وائتمان الإدراكية أن تطور فلسطين الاقتصادي سيؤدي إلى أن يفقد العرب الاهتمام بالمعارضة السياسية (٢٧).

وتعبيراً عن هذا الإدراك للعربي يتواتر في الكتابات الصهيونية موضوع أساسي كامن يمكن تسميته «شراء فلسطين». فكثير من الصهاينة كان ينظر إلى الاستيطان الصهيوني باعتباره عملية شراء أراضي بسعر أعلى من سعر السوق، وأنهم بذلك يكونون قد أعطوا العرب «حقهم»- والحق هنا قد عُرِف تعريفاً اقتصادياً وحسب، وفلسطين هنا ليست وطناً وإنما سوقاً عقارية. وتؤكد لنا يوميات هرتزل أنه كان يؤمن إيماناً راسخاً بإمكانية شراء فلسطين بالتقسيط المريح وبأسعار مخفضة. وحينما قامت ثورة البراق عرض بعض الصهاينة شراء حائط المبكى.

ولعل موضوع شراء فلسطين متطرق بعض الشيء، ومع هذا يمكن القول أن إدراك العربي كمخلوق اقتصادي ليس له حقوق سياسية أو وعي قومي كان بعداً أساسياً في الوجدان الصهيوني. ويؤكد والتر لاكير وغيره أن السياسة الرسمية للصهيونية في العشرينات (ويمكن أن نضيف وبعدها) هو عدم الدخول في مناقشات سياسية مع العرب وأن ينصب أي تفاوض على التعاون الاقتصادي وعدم التعرض لطبيعة النظام السياسي.

ويلاحظ ان الاستراتيجية الإدراكية هنا تهدف لإسقاط الطبيعة القومية لردة الفعل العربية لأنه لو تم تصنيفها على أنها قومية، لنجم عن ذلك الاعتراف بأن هذا التشكيل القومى له أرض قومية وتراث قومى ومجال قومى ومجموعة من الحقوق القومية تنسف ادعاءات الصهيونية «القومية».

ومع هذا كانت القومية العربية تفرض نفسها فرضاً على الإدراك الصهيونى كدافع محرك للجماهير العربية، وهنا كان يتبنى الصهاينة استراتيجيتين أخريين، هما فى جوهرهما تعتبران أكثر حذاقة وصقلاً عن محاولة «تهميش» العربى ونزع الصبغة السياسية عنه. أما الأولى فهى الاعتراف بالطبيعة القومية للثورات الفلسطينية مع تفسيرها تفسيراً يجردها من مضمونها الإنسانى أو السياسى ويفصلها عن الحركات القومية المماثلة، وبالتالي تصبح قومية ناقصة لاتستحق أن تحصل على كل الحقوق القومية. فالقومية العربية- حسب هذا الإدراك- هى أساساً قومية مخلقة عميلة للانجليز وللقوى الخارجية (٢٨). (وقد أشرنا من قبل أثناء حديثنا عن العربى ممثلاً للأغيار عن الإدراك الصهيونى للتمرد العربى كنتيجة تدخل القنصل الروسى أو الإنجليزى أو الفرنسى أو الألمانى أو الإيطالى). كما أنهم أحيانا كانوا يرون القومية العربية على أنها مجرد «ردة فعل» للاستيطان الصهيونى ليس لها وجودها الحقيقى، وأنها محاولة سلب للصهيونية، ليس لها دينامية ذاتية مستقلة (٢٩).

كما كان الصهاينة العمالئون ممثلو العالم الغربى الاشتراكى وفكرة التقدم الاشتراكية يسمون القومية العربية بأنها قومية «رجعية» (٣٠)، أو كما قال ارلوزوروف أنها قومية تهيمن عليها قوى الرجعية الاجتماعية والطغيان السياسى وأنها لم تنتج قيادات سياسية مثل صن يات صن أو غاندى (٣١).

أما الاستراتيجية الإدراكية الثانية فى مجابهة القومية العربية كأمر واقع يفرض نفسه فرضاً، فهو الاعتراف بها كقومية كاملة مع تقليص مجال فعاليتها بحيث لاتضم الفلسطينيين. ويقول أحد مؤرخى الحركة الصهيونية أن إسهام وايزمان

الأساسى للرؤية الصهيونية للعرب تتلخص فى تمييزه بين العرب والفلسطينيين، إذ كان يرى إمكانية التوصل إلى اتفاق مع القومية العربية بل ومساومتها فى مقابل أن يتخلى العرب عن مطالبهم فى فلسطين (٣٢). وكان هو أيضاً صاحب نظرية أن فلسطين جزء غير هام من الوطن العربى الكبير (٣٣). وكان ارلوزوروف موافقاً على التعاون مع العرب، ولكنه كان متشائماً بخصوص التعاون مع الفلسطينيين (٣٤). ويمكن أن نرى مفاوضات وايزمان/ حسين ومعظم اتصالات الصهاينة مع العرب فى هذا الإطار بل إن الصهاينة قدموا عام ١٩٣٠ مشروعاً، طرحه موشيه بيكنسون، نائب رئيس تحرير دافار، ونال تأييد بن جوريون الحذر، هو فى جوهره تعبير عن هذه الاستراتيجية- وكان المشروع يدعو إلى إقامة دولة يهودية فى فلسطين تكون جزءاً من اتحاد فدرالى يضم الشرق العربى بأسره، وفى هذه الدولة يكون الفلسطينيون أقلية ولكن الدولة ذاتها تشكل أقلية داخل الاتحاد العربى (٣٥).

ولعل هذه الاستراتيجيات الإدراكية من أذكى الاستراتيجيات على الإطلاق وأكثرها فائدة ودهاءً وتعبيراً عن خصوصية الصهيونية كحركة استيطانية إحلالية لا تهدف إلى غزو العالم واستعباده (على طريقة النازية) ولا حتى السيطرة على العالم العربى، وإنما الاستيلاء على الأرض الفلسطينية وحدها دون ساكنيها. فعملية التهميش هنا تصبح قاصرة على الضحية المباشرة وحسب، أى الفلسطينى، دون حاجة لاستجلاب عداء الآخرين سواء فى الشرق أم الغرب.

العربى الغائب

بمعنى من المعانى يمكن القول أن كل الاستراتيجيات الإدراكية السابقة هى من قبيل محاولة تغييب العربى. فالعربى المتخلف، والعربى ممثلاً للأغيار، والعربى الهامشى والذى ليس له حقوق قومية هو عربى مُغيّب مفتقد للحقوق الواضحة. إن كل هذه المحاولات هى تعبير عن النزوع الصهيونى نحو إخفاء العربى. وكما أسلفنا يصل الإدراك الصهيونى للعربى إلى ذروته ولحظة تحققه النماذجية فى الإنكار الكامل لوجود العربى، فلا يُذكر بخير أو شر، ويتم إظهار عدم الاكتراث الكامل به بل والتزام الصمت حياله. وهذه الرؤية للآخر مرتبطة برؤية الذات وهى

رؤية اليهودى الخالص- وهو اليهودى المطلق ذو الحقوق المطلقة الخالدة التى لاتتأثر بوجود أو غياب الآخرين. بل إن وجود الحقوق اليهودية الخالصة يجعل حقوق الآخرين مجرد حقوق «خارجية وعرضية ومؤقتة»^(٣٦)، وجودها مثل غيابها لا يؤثر فى علاقة اليهودى بالأرض وحقوقه فيها. ومن هنا كان الشعار الصهيونى بأن «فلسطين أرض بلا شعب لشعب بلا أرض»، فمن عليها من بشر غائب لاجود له، وإن كان له وجود فهو وجود عرضى وغير هام. (أما اليهود فشعب بلا أرض لأن حقوقهم اليهودية الخالصة تربطهم برباط لاتنفصم عراه بهذه الأرض وهذه الأرض وحدها، مما يؤدى الى تفكك أواصر الارتباط بأية أرض أخرى). وكما قال بن جوريون إن فلسطين «بلد بلا سكان»^(٣٧)، فامتلاك فلسطين ليس من حق السكان الأصليين، ولا يمكن للبشر يهوداً كانوا أم عرباً «أن يتساءلوا عن معنى هذا القرار، لأن محور مشكلة فلسطين» وفقاً لما قاله بن جوريون «يتلخص فى حق اليهود المشتتين فى العودة»^(٣٨)، وهو حق مطلق قائم منذ بداية التاريخ وحتى آخره. ولذا يمكن أن يؤكد فى خطاب له فى اكتوبر ١٩٣٦ أنه لا يوجد أى صراع بين القومية اليهودية والقومية الفلسطينية لأن الأمة اليهودية ليست فى فلسطين (بعد) ولأن الفلسطينيين ليسوا أمة^(٣٩).

وقد فسر بعض المفكرين الصهاينة هذا الإصرار على العربى الغائب أنه ضرورة نفسية واضحة؛ لأن تحقق الصهيونية كان يعنى بالضرورة نقل (أو تغييب) العرب^(٤٠). وسواء أكان ذلك ضرورة نفسية أم لا، فإن غياب العربى -كما أسلفنا- هو المحور الأساسى ونقطة التحقق الكاملة للاستعمار الصهيونى الاستيطانى الإحلالى- الذى تتبع صهيونيته (نقل الشعب اليهودى إلى أرض الميعاد) من إحلاله (تفريغ الأرض من سكانها الأصليين). وذكر العرب، ولو فى مجال التشهير بهم، هو اعتراف ضمنى بهم، كما أن إخفاءهم وراء مقولة الأغيار ينطوى أيضاً على قسط من الاعتراف. ونفس القول ينطبق على التهميش، إذ أنه يمكن رؤية دماء الضحية السائلة. أما الإغفال الكامل فهو عملية نظيفة للغاية إذ يتم الذبح كما يتم مواراة الجثة!

ورصد مقولة العربى الغائب وتوثيقها أمر صعب للغاية؛ لأنه لا يمكن رصد وتوثيق ما هو غائب بالطريقة التقليدية من حشد الاقتباسات والنصوص وتحليلها. ومع هذا يوجد عدد كبير من التصريحات والمفاهيم الصهيونية لا يمكن فهمها إلا فى إطار مقولة العربى الغائب. ويمكن أن يندرج تحت ذلك كل هذا الحديث المستفيض عن «الأرض المقدسة» و«إرتس إسرائيل» و«صهيون» و«أرض الميعاد» فهو حديث يستند فى نهاية الأمر إلى افتراض غياب فلسطين العربية. فعبرة مثل «إرتس إسرائيل» تغيب كلمة «فلسطين» تماماً، وبالتالي تغيب الفلسطينيين، وتؤكد الرابطة العضوية والأزلية بين اليهود وهذه الأرض. ولهذا نجد أن الصهاينة يكتبون دراسات «علمية» رصينة عن الجماعة اليهودية فى طبرية أو دور اليهود فى الدفاع عن القدس إبان الحروب الصليبية. ويكتشف المرء فى طى مثل هذه الدراسات أن عدد ساكنى طبرية من اليهود لا يتجاوز المائة، وأنهم كانوا من المتصوفين اليهود، وأن المدافعين اليهود عن القدس، إن كان هناك مدافعون، لا يتجاوز بضعة أشخاص، ولعلمهم وجدوا أثناء المعركة بالصدفة. ولكن هذه التواريخ «العلمية» تنظر لهؤلاء باعتبارهم الأساس والجوهر وما عداهم من جماعات بشرية فلا أهمية تذكر لها. والحديث عن استيطان المهاجرين من روسيا القيصرية باعتبارها «عالياً» أى «صعود» وعنهم باعتبارهم «معييليم» هو أيضاً حديث يفترض غياب العرب. بل ويمكن القول أن المصطلح الصهيونى ككل (نفى، وعودة، تجميع المنفيين.. الخ) يفترض هذا اليهودى الخالص الذى يفترض بدوره العربى الغائب. وحينما يتحدث الصهاينة عن «التاريخ اليهودى» يتحدثون فى واقع الأمر عن تشكيل يهودى حضارى عالمى مركزه إرتس إسرائيل (أى فلسطين)، وأن تاريخ هذه المنطقة الجغرافية هو «تاريخ يهودى» وحسب، أما التواريخ الأخرى - سواء تاريخ الكنعانيين مئات السنين قبل التسلسل العبرانى أم التاريخ العربى لمئات السنين بعد الفتح الإسلامى وتواريخ كل الأقوام الأخرى التى كانت تعيش فى أرض كنعان/ فلسطين. فهذه كلها أمور ثانوية. والحديث عن «النفى والعودة» و«تجميع المنفيين» هو تعبير عن نفس الرؤية والإدراك. فنفى اليهود يعنى أن الوجود العربى عرضاً مؤقتاً، و«العودة» تعنى ضرورة «الخروج» أو «النفى العربى»، و«تجميع المنفيين» تعنى تشريد الفلسطينيين

إن أحزان صابرا وشاتيلا كامنة في الخطاب الصهيوني. وقد صدر بالفور من نفس المنطق والرؤية حينما تحدث عن الغالبية الساحقة لسكان فلسطين في بداية هذا القرن باعتبار أنهم «الجماعات غير اليهودية». فالمنطق الصهيوني والاستعماري اتفقا على الإدراك وعلى المخطط وهو تغييب العرب عن طريق تهجيرهم وتحويلهم إلى كم مهمل (مهما كان حجمه) قابل للنقل وربما للإبادة إن سنحت الفرصة. ومن هنا الحديث في كتابات الصهاينة حتى الآن عما يسمى «بالترانسفير» أو نقل العرب أي تهجيرهم بالقوة، أي تغييبهم. إن قراءة أي نص صهيوني وفهم أي برنامج صهيوني أمر صعب للغاية، إن لم يكن مستحيلاً، دون افتراض مقولة العربى الغائب.

الصمت إذن بليغ في حالة العربى الغائب، ولكن ثمة نصوص وبرامج سياسية صهيونية تفصح رغم أنفها عن مقولة العربى الغائب الكامنة، ويحدث هذا حينما يفرض العربى الامبريقي نفسه فرضاً، كوجود موجود، ككيان بيولوجى من الصعب تجاهله- كجثة ترفض أن تذوب في السحب أو تختفى تحت التراب. هنا يلجأ الصهاينة إلى تغييبه. ومن الأمور التى لها دلالة عميقة أن كثيراً من المفكرين الصهاينة (من المسيحيين واليهود) الذين لم يكونوا قد احتكوا بعد بالعرب بل ولم يعرفوا بوجودهم الفعلى اقترحوا نقلهم أو إبادتهم. وعلى سبيل المثال لا الحصر يمكن أن نذكر الحاخام كاليشر الذى لم يكن قد ذهب قط إلى فلسطين ومع هذا كتب عام ١٨٦٢ يتحدث عن «خطر العصابات العربية»^(٤١)، وبدأ يفكر فى طريقة إزاحتهم عن الطريق الصهيونى. ويمكن أن نذكر سير لورانس أوليفانت ولورد وشافتشبرى وغيرهم من الصهاينة المسيحيين الذين اقترحوا ضرورة نقل العرب ووضعوا المخطط لذلك. ومن بعد ذلك يمكننا أن نشير إلى هرتزل هذا الليبرالى الرقيق الذى تحدث عن طرد السكان الأصليين سواء كان يتحدث عن مشروع استيطان صهيونى فى قبرص أم فلسطين، ومن بعده نورداو، وزانجويل الذى اقترح تهجير العرب على نمط هجرة البوير إلى الترنسفال وعلى نمط هجرة اليونانيين أو الأتراك كل إلى بلده^(٤٢). ولم يكل الصهاينة التصحيحيون بطبيعة الحال والرؤية

عن تأكيد ضرورة «تنظيف» الأرض ومن سكانها. وهى نفس العبارة التى استخدمها وايزمان «العقلانى» وغيره من الصهاينة لوصف طرد الفلسطينيين العرب عام ١٩٤٨^(٤٣). وعلى كل كان وايزمان منذ البداية يرى فى نقل و تغييب العرب حلاً للمشكلة الصهيونية^(٤٤).

أما بوروخوف المفكر الصهيونى، والذى يقدم اعتذاريات اشتراكية ماركسية، فقد اقترح أن يكون مصير العرب هو الانصهار فى المستوطنين الصهاينة، وهى طريقة تغييب ثورية اشتراكية مبتكرة^(٤٥). وقد تبعه الممارسون العماليون مثل بن جوريون وموتزكين وغيره. وقد قمت فى كتابات أخرى، كما قام غيرى، بتوثيق هذا الجانب فى الإدراك والمشروع الصهيونى، ولا يوجد أى مبرر لتكراره.

ولكن يجب أن نؤكد مرة أخرى أن الصهاينة لم يكونوا منفردين فى ذلك، فالمنطق السائد فى التشكيلى الحضارى الغربى كان يستبعد الآخرين ويهدر كل حقوقهم نظرياً. وإذا كان إهدار الحقوق فى حالة الصهيونية يأخذ شكل تغييب العرب، فإن هذا يعود إلى بنية الصهيونية ذاتها والتى تستمد خصوصيتها من طبيعة المشروع الصهيونى الخاصة. ولذا يجب ألا نفسر هذا الجانب من الإدراك الصهيونى تفسيراً أخلاقياً فتنعت الصهاينة بأنهم أكثر شراً وانحلالاً خلقياً من الاستعماريين التقليديين أو الاستعماريين الاستيطانيين الغربيين، لأننا لو فعلنا لتصورنا أن المسألة تستند إلى الإرادة، وكأنه يمكن للصهاينة أن يتوبوا يوماً ما عن فعلتهم ويرعووا ويبدوا الندم ويعودوا عما ارتكبوه من ذنوب، وبذلك يغيب عن إدراكنا مدى حدة الصراع وأبعاده البنيوية الموضوعية.

اليهودى كعربى والعربى كيهودى

وقبل أن نلخص نتائج هذا القسم نود أن نذكر موضوعين أساسيين يستدعيان بعض التوقف إن لم يكن لأى شئ فعلى الأقل لطرافتهما، وإن كنا لا يمكن أن ننكر أيضاً إمكانياتهما التفسيرية والتحليلية، هذان الموضوعان الأساسيان هما اليهودى كعربى، ونقيضه العربى كيهودى.

والموضوعان رغم أنهما نقيضان إلا أنهما ينبعان من إحدى الأفكار الأساسية المتواترة في الفكر الصهيوني، وهي فكرة تصفية الدياسبورا (أى أعضاء الأقليات اليهودية في العالم) وتجميع اليهود في الوطن القومي. فالصهيونية تنطلق من الإيمان بأن الدياسبورا غير جديرة بالبقاء. فيهود المنفى شخصيات عليلة مريضة طفيلية. ومما يجدر ذكره أن أدبيات معاداة اليهود تحتوى على نقد متكامل متماسك لما يسمى بالشخصية اليهودية، وقد أصبح هذا الانتقاد جزءاً من ترسانة الصهيونية الإدراكية التى طرحت نفسها على أنها الحركة التى ستطبع اليهود- أي تجعلهم قوماً طبيعيين وتخلصهم من الصفات السلبية المفترضة للصيقة بشخصيتهم.

وقد تواتر الموضوع الأساسى الأول، أى اليهودى كعربى، فى الكتابات الصهيونية التى صدرت قبل أن تتحدد معالم المشروع الاستيطانى الصهيونى تماماً، وقبل أن تتبلور خريطته الإدراكية، وقبل أن يتحول العربى إلى الآخر (ولعل هذا قد حدث بعد وعد بالفور). وفى هذه المرحلة كان من الممكن النظر إلى العربى على أنه الشرقى وممثل الأغيار الأصحاء الذى يمكن التشبه بهم والتوحد معهم للشفاء من أمراض المنفى. وحسب هذا الإدراك يتحول العربى إلى رومانسى تحيطه غلالات أسطورية كثيفة^(٤٦) ويبدو أن بعض المستوطنين الصهاينة الأول، إنطلاقاً من الرؤى الرومانسية التى كانت سائدة فى أوروبا آنذاك، كانوا ينظرون إلى استيطانهم فلسطين على أنه نوع من «العودة إلى الشرق» الطاهر (فى مقابل الغرب المدنس الملئ بالشُرور). وأن «العربى» هو الحكيم الذى سيعلمهم كل الأسرار ويأخذ بيدهم ويهديهم سواء السبيل. وقد تسبى هذه الرؤية أحد زعماء موجة الهجرة الثانية، ماثير ويلكانسكى، وتبعه فى ذلك جوزيف لوبدور (صديق الزعيم الصهيونى حاييم برنر والذى خر صريعاً مع صديقه فى إحدى المعارك مع العرب). ويلاحظ أن أول جماعة عسكرية صهيونية والتى كانت تدعى الهاشومير كانت ترتدى زياً عربياً وأن بعض أعضائها كانوا يعيشون مع البدو ليتعلموا طرقهم.

وكان الأدب الصهيونى فى هذه المرحلة الأولى مفعم بهذه الرؤية الرومانسية فكتب موشيه سميلانسكى الكاتب الصهيونى سلسلة من الكتب تحت اسم مستعار هو «الخواجه موسى» يصور فيها -وبإعجاب شديد- حياة الفلسطينيين الذين تحولوا فى هذه الكتب إلى بدو ورعاة جائلين يذكرون القارئ بشخصيات العهد القديم. وفى قصة قصيرة كتبها زئيف يافيتس عام ١٨٩٢ يرد وصف لطفل يهودى فى مستوطنة بتاح تكفا يتعلم من العرب كيف يدرج جسده على «الحرارة والصقيع وعلى الفيضانات والقحط».

ومن أكثر الأمثلة تطرفاً وطرافة مسرحية آرييه أورلوف/ أربلى التى نشرت عام ١٩١٢ فى مجلة هاشيلواح (لسان حال الحركة الصهيونية فى روسيا والتى كان يحررها ويصدرها آحاد هعام فى أوديسا). تصور المسرحية جماعة من المستعمرين الرواد من موجة الهجرة الثانية كانوا يعيشون فى مزرعة جماعية. وبطلة المسرحية هى المستوطنة الصهيونية ناعومى التى ترفض حب اثنين من زملائها وتؤثر عليهما بائعاً جوالاً عربياً يدعى عليا ! وحينما يقتل أحد الرواد شاباً عربياً ينتقم على لصديقه العربى المذبوح بأن يقتل الصهيونى! ولكن حتى هذا الفعل لا يغير من حب ناعومى له وتنتهى المسرحية بمونولوج عاصف تقول فيه ناعومى مخاطبة إخوانها الصهاينة: «إن روحى تحتقركم أيتها الديدان المتحضرة. لقد تعلمت من العربى الضارى شيئاً، لقد تعلمت منه هذه الكلمات: الله كريم. (وهذا هو عنوان المسرحية).

ويبدو أن هذا التيار كان شائعاً لدرجة كبيرة حتى أن مجلة هاشيلواح نشرت مقالا لجوزيف كلاوزنر، الناقد الصهيونى، وجه فيه اللوم للكتاب الصهاينة المستوطنين فى فلسطين«الذين يصورون كل اليهود فى فلسطين كمتحدثين العربية يشبهون العرب فى كل شئ». وقد استمر هذا التيار وأخذ شكلاً مغايراً وهو الدعوة إلى الوحدة السامية والإيمان بأصول العرب واليهود السامية المشتركة والتى عبر عنها فكر الحركة الكنعانية التى انتشرت بعض الوقت بين المثقفين الصهاينة(٤٧).

ويجب ملاحظة أن هذا الموقف من العربى كبدوى وكبطل رومانسى يتسم هو الآخر بقدر كبير من التجريدية، فالعربى هنا ليس إنساناً حقيقياً تاريخياً وإنما مقولة رومانسية مجردة ليس لها حقوق متعينة. كما أن العربى هنا بدوى أى إنسان متنقل غير مرتبط بالأرض، الأمر الذى يخدم المصالح الصهيونية ولاشك. فتمجيد العربى هو فى واقع الأمر فصل له عن أرضه وعزله عن إنسانيته المتعينة ليصبح شيئاً يشبه الآثار الساكنة (التي نسميها الأنثىكة فى مصر). والصهيونية فى هذا مرة أخرى لا تختلف كثيراً عن العنصرية الغربية، التي كانت لا تمنع بتاتاً فى الإعجاب «بالماضى التليد» و«الأمجاد الغابرة»، طالما أنها تظل شيئاً متحفياً مثل الآثار الفرعونية لا علاقة لها بالواقع، وطالما أنها لا تُستخدم كمؤشر على ما يمكن لصاحب هذا التراث أن ينجزه فى المستقبل.

أما مقولة العربى كيهودى فهي أكثر وضوحاً فنحن إذا ما نظرنا لكثير من المقولات الإدراكية السابقة: العربى كمتخلف وتهميش العربى والعربى كحيوان اقتصادى، والعربى كشخص يحركه التعصب الدينى، والقومية العربية كقومية عميلة للإنجليز، للاحظنا أن هذه هي ذاتها صفات اليهودى فى أدبيات معاداة اليهود فى الغرب، والتي كانت تهدف لإسقاط حقوق اليهودى وطرده باعتباره شخصية طفيلية هامشية غير منتمة وإلى إبادته فى نهاية الأمر. وكما قلنا كانت هذه المقولات جزءاً من ترسانة الصهيونية الإدراكية تشبعت بها وتبنتها وطبقته على الآخر أى يهود المنفى، ثم أسقطتها على الآخر الآخر، إن صح التعبير، الآخر مضاعف الأخرىة، أى العربى، كمحاولة لتغيبه وتهميشه وتجريده وطرده وإبادته واجتثاث علاقته بالأرض، تماماً كما فعل المعادون لليهود باليهود داخل التشكيل الحضارى الغربى.

تلخيص ونتائج

١- تأخذ الخريطة الإدراكية أو الطيف أو المتصل الإدراكي الصهيوني للعرب الشكل التالي:

العربي الحقيقي- العربي المتخلف- العربي ممثلاً للأغيار- العربي الهامشي- العربي الغائب، ويلاحظ الابتعاد التدريجي عن العربي الحقيقي والوصول إلى الذروة ونقطة التحقق وهي العربي الغائب عبر درجات متزايدة التجريد.

٢- يلاحظ أن ثمة تلازم لرؤية الذات ورؤية الآخر، ففي مقابل اليهودي ممثل الحضارة العربية وحامل مشعلها يوجد العربي الشرقي المتخلف، وفي مقابل اليهودي الخالص صاحب الحقوق المطلقة نجد العربي الغائب الذي لا حقوق له على الإطلاق لأنه غائب تماماً من منظور الأرض المقدسة.

٣- أطلقنا على هذا الإدراك أحيانا إستراتيجية إدراكية لا لأنه طريقة متعمدة في الإدراك (فمن وجهة نظر هذا البحث لا يهم سواء أكان الإدراك واعياً أم غير واع) وإنما لأنه إدراك تصوغه وتحده مصالح المدرك وتحيزاته ومشروعه الاستيطاني. وقد كان هذا الطيف الإدراكي أساسياً بالنسبة للصهاينة فقد زودهم بإطار تفسيري وفسر لهم الواقع بطريقة تتناسب مع هذه المصالح وسوغ لهم عمليات الاغتصاب والاقتلاع والقمع وأحيانا الإبادة، بل وحولهم إلى الضحية من وجهة نظرهم، وبالتالي أمكنهم الاستمرار في إنجاز مشروع استيطاني يتسم بالشراسة الفريدة إذ لانعرف مشروعاً استيطانياً إحلالياً آخر في القرن العشرين.

٤ - حاولنا في هذا الفصل أن نبعد عن عملية التشهير بالصهاينة وهي عملية أثيرة لدى الكثير من الكتاب العرب في حقل الصهيونية، فالتشهير له طبيعة عملية إعلامية وله أهمية تعبوية بالنسبة للجماهير أو في مجال تحسين الصورة في الخارج. ولكنها لا تفيد كثيراً في عملية فهم الآخر والتنبؤ بسلوكه، وهو أمر

أساسى فى عملية إدارة الصراع . ونعتقد أن صانع القرار العربى لابد وأن يأخذ الإدراك الصهيونى العربى فى الاعتبار؛ لأن هذا الإدراك أحد المكونات بل والمحددات الأساسية للكيان الصهيونى . وأعتقد أن فشل مخابرات العدو عام ١٩٧٣ فى التنبؤ بالهجوم العربى المجيد إنما كان نتيجة جمودهم الإدراكى، إذ أن الانسان فى نهاية الأمر يقع صريع تحيزه، والعربى الحقيقى القادر على أن ينهض وأن يمتلك ناصية الأسلحة الحديثة ويوقع الهزيمة بالمغتصب ليس جزءاً من ترسانة الصهاينة الإدراكية، ولذا لم يتوقع العدو ولم «ير» رغم أنه كان «يشاهد ويراقب ويسجل» .

ومع هذا، هل يظل الإنسان الصهيونى قابلاً داخل تحيزه، أم أنه ثمة لحظات إدراك للإنسان العربى الحقيقى؟ وما نتائج هذا الإدراك؟ وما هو أثر الإدراك الصهيونى الذى تشكل قبل عام ١٩٤٨ على الاسرائيليين؟ هذان هما السؤالان اللذان سأحاول الإجابة عليهما فى الفصل الثانى من هذا الكتاب .

- 1 - Richard Crossman, **A Nation Reborn: The Israel of Weizman, Bevin, and Ben Gurion**, (London: Hamish Hamilton, 1969), P.58.

٢ - نفس المراجع.

- 3 - Rapael Patai, ed., **The Complete Diaries of Theodore Herzl**, (5 vol), (New York: Herzl Press and Thomas Yoseloff, 1960), Trans. Harry Zohn, vol. 3, p.1361.

سيشار إليه من الآن فصاعداً بعبارته «يوميات هرتزل»

- 4 - George Jabbour, **Settler Colonialism in Southern Africa and the Middle East** (Beirut: Palestine Liberation Organization Research Center, 1970), p.28.

٥ - يوميات هرتزل، الجزء الأول، ص ٣٤٣، ٣٣٨.

- ٦ - صبرى جريس، تاريخ الصهيونية، الجزء الأول - (بيروت : منظمة التحرير الفلسطينية، مركز الأبحاث، ١٩٧٧)، ص ١٣٩.

- 7 - Walter Lacquer, **A History of Zionism** (New York, Holt, Rinehart and Winston, 1972), p.217.

سيشار إليه من الآن فصاعداً بكلمه «لاكير».

- 8 - Simha Flapan, **Zionism and the Palestinians** (London: Croom, Helm, 1979), p.55-56

سيشار إليه من الآن فصاعد بكلمه «فلابان»

٩ - نفس المرجع، ص ٣٩.

١٠ - نفس المرجع، ص ٢٦.

١١ - نفس المرجع، ص ٧١.

- 12 - Harry Truman, **Memoirs 2 Vols**, (Garden City, New York: Doubleday, 1955), Vol I, p.159.

- ١٣ - فلابان، ص ٦٤ .
- ١٤ - نفس المرجع .
- 15 - Amos Elon, **The Israelis: Founders and Sons** (New York: Holt, Rinehart, and Winston, 1971), p.172.
- 16 - Ehud Ben Ezer, ed., (New York : Quadrangle The New York Times Book, 1974), 183

سيشار اليه من الآن فصاعداً بكلمه «بن عيزر» .

- ١٧ - لاكير، ص ٤٧
- ١٨ - فلابان، ص ٥٦ .
- ١٩ - بن عيزر، ص ٣٢٤-٣٢٥ .
- ٢٠ - لاكير، ص ٢٤٧ .
- ٢١ - نفس المرجع .
- ٢٢ - نفس المرجع، ص ٢٥٠ .
- ٢٣ - فلابان، ص ١٩ .
- ٢٤ - نفس المرجع، ص ٦٩ .
- ٢٥ - لاكير، ص ٢١١ .
- ٢٦ - فلابان، ص ٦٥ .
- ٢٧ - نفس المرجع، ص ٢٦ .
- ٢٨ - نفس المرجع، ص ٦٥ .
- ٢٩ - نفس المرجع .
- ٣٠ - لاكير، ص ٢٦٣ .
- ٣١ - نفس المرجع، ص ٢٥٨ .
- ٣٢ - فلابان، ص ١٩، ٣٩ .
- ٣٣ - نفس المرجع، ص ١٩ .
- ٣٤ - لاكير، ص ٢٥٨ .

٣٥- صبرى جريس « السنوات الخمس السمان فى تاريخ الوطن القومى
اليهودى فى فلسطين (١٩٣١-١٩٣٦)، ٤- محاولات التفاهم مع
العرب»، شئون فلسطينية (تموز- أغسطس ١٩٨٥) ص ٤٩.

36-Meir Ben-Horin, Max Nordau:Philosopher of Human Solidarity (New
York: Conference of Jewish Social Studies,1956),p.199

٣٧ - ايلون، ص ١١٥.

38 - David Ben Gurion, **Rebirth and Destiny Of Israel**, (New
York,Philosophical Library, 1954)p.38.

٣٩- فلابان، ص ١٣١.

٤٠- بن عيزر، ص ٢٠٣.

٤١- لاكير، ص ٢١٠.

٤٢- نفس المرجع، ص ٢٣١.

43 - Abdelwahab M. Elmessiri, **The Land of Promise: A Critique
of Political Zionism** (New Brunswick, New Jersey: North
American,1977),p.143.

٤٤- فلابان، ص ٨٢.

45 - Shlomo Avineri, **The Making of Modern Zionism: The Intel-
lectual Origins of the Jewish State** (London: Weidenfeld and
Nicolson, 1981),pp.139-150.

46 - Amnon Rubinstein, **The Zionist Dream Revisited: From He-
rzi to Gush Emunim and Back** (New York: Schocken
Books,1983),pp.56-60.

سنشير إلى هذا الكتاب من الآن فصاعدا بكلمه «روبينشتاين».

٤٧- لاكير، ص ٢٢٨.

٢- الاستجابة الصهيونية للعربى الحقيقى

من أوائل المفكرين الصهاينة الذين أدركوا العربى كإنسان حقيقى تاريخى، المفكر الصهيونى الروسى آحاد هعام، الذى أشرنا فى الفصل الأول من هذا الكتاب الى احتجاجه منذ البداية على طريقة معاملة الصهاينة للعرب. وقد نبههم إلى أن العرب - على عكس ما تدعى الأسطورة الصهيونية- ليسوا غائبين، وهاجم مقاطعة الصهاينة للعمال العرب(فى خطاب له بتاريخ ١٨ نوفمبر ١٩١٣)(١)، باعتبارها محاولة صارخة لتهميشهم وتغييبهم. وقد وصل إدراك آحاد هعام الذروة حينما أدرك الحاخام الروسى أن حلم العودة الى صهيون، كما فسره الصهاينة، وكما أخذ فى التحقق «يؤدى إلى تدنيس ترابها بدم الأبرياء»- أى أنه رأى الجثة التى يحاول الصهاينة إخفاءها. ولذا فعلى الرغم من أن فكر آحاد هعام فكر عنصرى نيتشوى إلى أقصى درجه (فهو صاحب فكرة اليهود «كسوبر أمة» ، وهو صاحب فكرة تحول فلسطين إلى مركز ثقافى لليهود واليهودية) إلا أن العربى الحقيقى فرض نفسه فرضاً على وعيه ولذا لم يملك الحاخام إلا أن يقول: إن الله قد أنزل بي العذاب إذا مد فى حياتي حتى أرى بعيني رأسي، أنني قد حدث عن جادة الصواب إذا كان هذا هو الماشياح(المسيح المخلص اليهودى)، فإننى لا أود رؤية عودته؟(٢)، أى أنه لا يود رؤية تحقيق الحلم(أو الكابوس) الصهيونى- فتحقيق الحلم يعنى تغييب العربى، وتغييب العربى، كما رأى هو بنفسه، يعنى القتل والقتال والدماء النارفة.

حزب الفلاحين

ومن أهم المفكرين والمستوطنين الصهاينة الذين تخطوا التحيز الإدراكى الصهيونى ورأوا العربى فى كل تركيبته التاريخية والإنسانية إسحق إشتاين، أحد كبار المسئولين عن الاستيطان الصهيونى فى فلسطين، والذى حذر الصهاينة من سطحيتهم وعجزهم عن الغوص لباطن الأمور،(٣)والذى حاول أن يبين لهم أن الحق قد يكون فى جانبهم من الناحية القانونية (السطحية) ولكن الموقف يصبح أكثر تركيبياً إن تمت رؤيته فى إطار سياسى أخلاقى(٤).

وقد حذر ابشتاين فى محاضرة له ألقاها على بعض مندوبى المؤتمر الصهيونى السابع (١٩٠٥) (ونشرت فيما بعد فى هاشيلواخ عام ١٩٠٧) - حذر من الموقف الصهيونى الشائع (التبريرى فى واقع الأمر) القائل بأن فلسطين غير مفلوحة بسبب «نقص فى الأيدى العاملة أو كسل السكان» وبينّ أنه «ليس هناك حقول مقفرة، بل على العكس، يحاول كل فلاح أن يضيف الى أرضه من أرض البور المجاورة لها. . . وعندما نشتري قطعة أرض كهذه، نبعد عنها مزارعيها السابقين تماما. . . فنحرم بهذا أشخاصا بائسين من ممتلكاتهم الضئيلة. ونسلب لقمة عيشهم. . . ولا يزال حتى اليوم يرن فى أذنىّ نحيب النساء العربيات عندما تركت عائلتهن قرية الجاعونة، وهى مستوطنة روش بينا، وانتقلن للسكن فى حوران شرقى نهر الأردن. فقد ركب الرجال على الحمير ومشّت النساء وراءهم باكيات، يملأن السهل نحيهن. وللحظات وقفوا وقبلوا الحجارة والتراب. . . إن شراء [أراضيهم] على هذا الشكل يترك فى قلوبهم جرحاً لا يندمل. وسيذكرون دائماً ذلك اليوم الملعون الذى انتقلت فيه أملاككم إلى أيدى الغرباء. . . لأنه إذا كان هناك فلاحون يروون حقولهم بعرقهم وحليبهم، فهم العرب. . . وفى النهاية سيعملون على استرجاع ما سلبته منهم قوة الذهب. . .». وبعد أن يرسم ابشتاين صورة الفلاح العربى الحقيقى الذى يحب أرضه، ويكد ويتعب من أجلها، يضعه فى إطار سياسى عربى تاريخى واسع: «وهذا الشعب، والذى لم تستنفذ المدينة حتى الآن قواه وتضعفه، ليس إلا جزءاً صغيراً من الشعب الكبير الذى يسيطر على كل المناطق المجاورة. . . سوريا والعراق والجزيرة العربية ومصر. . . ولهذا من المستحسن أن نعرف من هو الفريق الآخر. . . وأن نأخذ بالحسبان قوتنا والقوى التى تواجهنا. ويمكننا القول أنه، حتى الآن على الأقل، لا توجد حركة عربية بالمفهوم القومى والسياسى لهذا التعبير. ولكن لا حاجة لهذا الشعب لمثل هذه الحركة، إنه كبير وكثير ولا حاجة لبعثه، لأنه لم يمت أبداً، ولم ينقطع وجوده يوماً. ويفوق فى تطوره الجسدى كل شعوب أوروبا. . . ينبغى ألا نستخف بحقوقه، وألا نستغل ضده خبث بعض أخوته الذين يظلمونه. لا تتحرشوا بأسد نائم! ولا تأمنوا جانب الرماد الذى يغطى الجمر، فقد

تنطلق شرارة تسبب حريقاً لا يطفأ». ولم يكتف أبشتاين بالشكوى والنحيب على طريقة آحاد هعام بل قدم توصيات محددة فاقترح على المستوطنين ممارسة نشاطهم الاستيطاني في فلسطين من خلال اتفاق مع «حزب الفلاحين» وبعد الحصول على موافقتهم، لأنهم أكثرية سكان البلد^(٥). كما اقترح محاولة «إقامة تحالف عربي صهيوني بدلا من التحالف التركي الصهيوني» المقترح آنذاك^(٦).

ويلاحظ أن إدراك أبشتاين للعربي يختلف جذريا عن الإدراك الصهيوني العام، وكان إدراكا ولاشك شجاعا لم يحاول تهميش العربي أو تغييبه ولم يخبئ وراء أية مقولات ضبابية كاذبة، إذ اعترف بحقيقة القومية العربية والطابع السياسي القومي للنضال الفلسطيني، وبين غياب مقولة «شراء فلسطين».

ولم يكن إدراك العربي الحقيقي أمراً قاصراً على الشخصيات الصهيونية المبهمة أو الهامشية مثل آحاد هعام أو أبشتاين، بل إننا نجد أن كثيرا من زعماء الصهيونية ومفكرها قد عاشوا لحظة الإدراك هذه. فهرتزل على الرغم من عمق سطحيته (إن صح التعبير) وعلى الرغم من عدم فهمه لكثير من الأفكار السياسية في عصره كان قادراً على إدراك تاريخية الواقع العربي وتركيبته. فحينما كان في القاهرة يتفاوض بخصوص واحد من مشروعاته الاستيطانية الكثيرة استمع إلى محاضرة عن الري، ويبدو أنه رأى بعض العرب المصريين واستمع لأسئلتهم، فكتب يقول: «إن المصريين هم سادة المستقبل هنا. ومن العجيب أن الإنجليز لا يرون ذلك، فهم يعتقدون أنهم سيتعاملون مع الفلاحين إلى الأبد». ثم أخذ هرتزل بعد ذلك يصف كيف أن الاستعمار ذاته يخلق الجراثومة التي تقضى عليه. وذلك لأنه «يعلم الفلاحين الثورة»^(٧). ثم أبدى هرتزل دهشته لفشل البريطانيين في إدراك هذه الحقيقة البسيطة. ونلاحظ هنا أن هرتزل لا يجزئ العرب أمامه إلى مسلمين ومسيحيين أو أثرياء أو فقراء، وإنما يدرك وجود تيار تاريخي له ماض وحاضر ومستقبل، وأنه تيار سياسي قومي يهدد أعتى الإمبراطوريات.

حرب وليس إرهاب

وحتى بن جوريون ذاته لم يفلت من لحظة الإدراك هذه. ففي عام ١٩٣٨ كتب التقييم المستفيض التالي لثورة الفلسطينيين آنذاك، والذي سنقتبسه برمته نظراً لأهميته: «ابتداء أحب أن أبدد كل الأوهام التي سادت بين الرفاق إن الإرهاب [العربي] هو مسألة مجموعة من العصابات ممولة من الخارج. . نحن هنا لانجابه إرهاباً وإنما نجابه حرباً، وهي حرب قومية أعلنها العرب علينا. وما الإرهاب سوى إحدى وسائل الحرب. هذه مقاومة فعالة من جانب الفلسطينيين لما يعتبرونه اغتصاباً لوطنهم من قبل اليهود- ولهذا يحاربون. ووراء الإرهابيين توجد حركة قد تكون بدائية ولكنها ليست خالية من المثالية والتضحية بالذات. ومنذ زمن الشيخ عز الدين القسام أصبح واضحاً لي أننا نجابه ظاهرة جديدة بين العرب. هذا ليس النشاشيبي أو المفتي، فهذه ليست مسألة مصالح سياسية أو مالية شخصية. إن الشيخ القسام كان زيلوتياً [غيوراً دينياً]، على استعداد للتضحية بحياته من أجل مثل أعلى. ونحن اليوم لانواجه واحداً وحسب مثله وإنما نواجه المئات بل الآلاف [أمثاله] ووراءهم كل الشعب العربي. نحن نقلل من أهمية المعارضة العربية في أحاديثنا السياسية في الخارج، ولكن ينبغي علينا ألا نتجاهل الحقيقة فيما بيننا. إن احترامى للحقائق السياسية هو الذى يجعلنى أصر على ذكر الحقيقة. والاعتراف بهذه الحقيقة يؤدى بنا إلى نتائج حتمية وخطيرة بخصوص عملنا فى فلسطين. . يجب ألا نبني الآمال على أن العصابات الإرهابية سينال منها التعب، إذ أنه إذا مانال من أحدهم التعب، سيحل آخرون محله. فالشعب الذى يحارب ضد اغتصاب أرضه لن ينال منه التعب سريعاً. . فمن الأيسر لهم أن يستمروا فى الحرب وألا يكلوا ولا يتعبوا مما هو بالنسبة لنا. . والعرب الفلسطينيون ليسوا بمفردهم، فالسوريون سيمدون لهم يد المساعدة. فمن وجهة نظرنا هم غرباء، ومن وجهة نظر القانون هم أجنب، ولكن بالنسبة للعرب هم ليسوا أجنب على الإطلاق. . إن مركز الحرب هو فلسطين، ولكن أبعادها أوسع من ذلك بكثير. وحينما نقول إن العرب هم البادئون بالعدوان وندافع عن أنفسنا- فإننا نذكر نصف الحقيقة وحسب، فبالنسبة لأمننا وحياتنا، نقوم بالدفاع عن أنفسنا، ووضعنا المعنوى والجسدى ليس شيئاً. . ويمكننا مواجهة العصابات. . وإذا ما سمح لنا بتعبئة كل

قوانا فإنه لا يوجد أدنى شك بالنسبة للنتيجة... ولكن القتال ما هو إلا جانب واحد للصراع الذى هو صراع فى جوهره سياسى. ومن الناحية السياسية نحن البادئون بالعدوان وهم المدافعون عن أنفسهم. إن الأرض أرضهم لأنهم قاطنون فيها بينما نحن نريد أن نأتى ونستوطن، ونأخذها منهم، حسب تصورهم... يجب ألا نظن أن الإرهاب هو نتيجة لدعاية هتلر أو موسولبنى - قد يكون هذا عاملاً مساعداً، ولكن مصدر المعارضة يوجد بين العرب أنفسهم»^(٨).

وقد اقتبسنا كلمات بن جوريون بشئ من التفصيل نظراً لجديتها وجدتها، فتحليل بن جوريون للوضع فى فلسطين لا يختلف إلى حد كبير عن أى تحليل ثورى عربى أو إسلامى لطبيعة الصراع. وهو يضع القضية فى إطارها السياسى القومى الصحيح، ويرأها فى بعدها التاريخى - فى الماضى والحاضر والمستقبل. والأكثر من هذا تدل كلماته على احترام لعدوه وعلى تمييز بين الأفندية والشيوخ من جهة (أى القيادات التقليدية) والقيادات الفدائية الجديدة من جهة أخرى.

وقد عبر موشيه شاريت هو الآخر فى أحاديثه ويوميته وخطبه عن إدراكه للعربى الحقيقى. ففى خطاب له فى ٩ يوليه ١٩٣٦ أمام اللجنة السياسية لحزب الماباي عرّف الثورة العربية بأنها ليست ثورة الأفندية الذين يدافعون عن مصالحهم الشخصية إنما هى ثورة الجماهير التى تمليها المصالح القومية الحق، وأضاف أن الفلسطينيين يشعرون أنهم جزء من الأمة العربية التى تضم العراق والحجاز واليمن، وفلسطين بالنسبة لهم هى وحدة مستقلة لها وجه عربى، وهذا الوجه آخذ فى التغير، فحيفا من وجهة نظرهم كانت بلدة عربية، وهامى ذا قد أضحت يهودية. ورد الفعل لا يمكن أن يكون سوى المقاومة. وفى ٢٨ سبتمبر من نفس العام، كان شاريت قاطعاً فى تشخيصه للحركة العربية على أنها ثورة ومقاومة قومية وأن القيادة الجديدة تختلف عن القيادات القديمة^(٩)، كما لاحظ وجود عناصر جديدة فى حركة المقاومة: إشتراك المسيحيين العرب بل والنساء المسيحيات فى حركة المقاومة^(١٠)، كما لاحظ تعاطف المثقفين العرب مع هذه الحركة، وبين أن من أهم دوافع الثورة هو الرغبة فى إنقاذ الطابع العربى الفلسطينى وليس مجرد معارضة اليهود^(١١).

بين الإدراك والسلوك

من كل ماتقدم يمكن القول أن إدراك الصهاينة للعربي كان يتخطى في بعض الأحيان التحيز والمصلحة المباشرة وسُحِبَ الاعتذاريات ليصل إلى الحقيقة التاريخية الحية. ومن هنا يطرح السؤال نفسه، لِمَ لَمْ تعد هذه اللحظات الإدراكية، رغم ندرتها، تشكيل الرؤية الصهيونية؟ وإن لم تعد تشكيلها، فلمَ لَمْ تدخل عليها قدراً من التركيبية على أقل تقدير؟

لعل الإجابة على هذا السؤال عسيرة بعض الشيء لأننا هنا لا نتعامل مع عالم الأفكار ولاحتى مع كيفية نشوئها وتحديداتها واكتسابها ملامح محددة، وإنما نتعامل مع مدى تأثير الأفكار في الواقع، وهذه الرقعة التي تلتقى فيها الأفكار بالواقع رقعة مبهمّة غامضة ضبابية ليس لها قوانين محددة، وإن كانت تحكمها قوانين ما، فهي لم يتم اكتشافها بعد.

ومع هذا لن يصيبنا القنوط وسنحاول أن نجيب على الأسئلة التي طرحناها، ولكن ينبغي مع هذا أن ننبه القارئ للطبيعة الذهنية لمحاولتنا التفسيرية. ويجب أن نؤكد ابتداءً أن الإدراك مهما كان عميقاً وجذرياً لا يترجم نفسه بالضرورة إلى فعل فاضل أو سلوك بعينه. وإذا أردنا أن نكون أكثر حيادية ووضوحاً لقلنا إن الإدراك الجذري، باعتبار أنه يصل إلى الواقع وجذوره، جذري وحسب، وقد يؤدي إلى راديكالية ثورية تطمح إلى تغيير الواقع أو إلى راديكالية فاشية تحاول الحفاظ عليه بكل شراسة. ويمكن لإدراك ما أن يتحدى الرؤية القائمة ولكنه يمكنه أيضاً أن يعمقها، ويتوقف ذلك كله على مركب هائل من العوامل التاريخية والسياسية والاجتماعية والنفسية والعصبية. ولذا رغم أن إدراك العربي الحقيقي يمثل لحظة كشف لنفس الحقيقة بالنسبة لكل الصهاينة، إلا أنها تترجم نفسها إلى استجابات صهيونية وأشكال سلوكية متباينة سنحاول دراستها بتقسيمها إلى ثلاث أنماط أو نماذج:

(١) هناك نمط من الصهاينة أدرك طبيعة الجرم الكامن فى عملية تغييب العرب هذه فتنكر لرؤية الصهيونية تماما وتخلى عنها، وعاد الى أوروبا. وهناك كثيرون من حزب بوعالى صهيون (عمال صهيون) عادوا إلى الاتحاد السوفيتى بعد الثورة البلشفية حتى يشاركوا فى الثورة الاجتماعية وحتى لا يشاركوا فى الإرهاب الصهيونى . ولكن هؤلاء قلة نادرة على ما يبدو، وعلى كل فإنهم يختفون تماما من التواريخ الصهيونية ومن الإدراك الصهيونى (اليهودى الغائب؟). ولذلك فهم لا يؤثرون من قريب أو بعيد فى البرنامج السياسى الصهيونى أو سلوك الصهاينة نحو العرب. ولكن لعلنا لو أعدنا كتابة تاريخ الصهيونية وفتشنا عن هؤلاء الغائبين لوجدنا أن هذا النمط أكثر شيوعاً مما نتصور، ولعله قد يكون من المفيد والطريف فى ذات الوقت أن يقوم أحد الباحثين العرب بكتابة دراسة فى هذا الموضوع.

(٢) وهناك نمط ثان من الصهاينة أدرك العربى الحقيقى ولكنه لم يطرح رؤيته الصهيونية جانبا، وبذل محاولات يائسة أن يعيد صياغة المشروع الصهيونى بطريقة تستوعب وجود العربى الحقيقى وتأخذه فى الحسبان. ولكن من الملاحظ أن مثل هذه الشخصيات تحولت بالتدريج إلى شخصيات مبهمه وهامشية، من وجهة نظر صهيونية، تنتمى إلى منظمات هامشية وتدافع عن رؤى هامشية لا تؤثر على المركز أو الممارسات الأساسية. ولعل سيرة ابشتاين وآرثر روبين (وهو مسئول صهيونى آخر عن الاستيطان) وغيرهم خير دليل على ذلك. فهؤلاء الصهاينة، نظراً لاحتكاكهم الدائم بالواقع العربى، أدركوا مدى تركيب الموقف فطرحوا صيغاً مركبة نوعاً مثل الدولة ثنائية القومية وطالبوا بالتعاون مع الحركة القومية العربية وأسسوا جمعية بریت شالوم ثم جمعیه ابحود لإجراء حوار مع العرب يعترف بهم ككيان قومى ولا يتعامل معهم كمجرد مخلوقات اقتصادية. ولكن المحاولات كلها ظلت فى نهاية الأمر تعبيرا عن ضمير معذب أكثر منها ممارسات حقيقية. ولعل يهودا ما جنيس من أكثر الشخصيات المأساوية فى تاريخ الصراع العربى الصهيونى، فقد أدرك

الخلل العميق فى وعد بالفور منذ البداية بإنكاره وتغييبه للعرب، وأدرك مدى عمق الصراع المحتمل بين المستوطنين الصهاينة والعرب؛ ولذا قضى حياته كلها يحاول أن يصل إلى صيغة صهيونية تنيرها لحظة الإدراك النادرة دون جدوى. وانتهى به الأمر أن تنكر له مجلس الجامعة العبرية التى كان يرأسها (الصهيونى الهامشى؟).

ويمكن أن نذكر فى هذا السياق آحاد هعام نفسه الذى تعلم أن يعيش مع التناقض الحاد، بعد أن رأى الدماء العربية النازفة وبعد أن ولول وكأنه أحد أنبياء العهد القديم، يستمطر اللعنات على شعبه لم اقترف من آثام، ومع هذا نجده بعد ذلك فى لندن مستشاراً لحاييم وايزمان، فى الفترة التى سبقت إصدار وعد بالفور، يدلى له بالنصيحة بخصوص كيفية الاستيلاء على فلسطين، ولا يذكره من قريب أو بعيد- بالعربى الحقيقى أو بالدماء النازفة. وينتهى به المطاف أن يستقر هو ذاته على الأرض الفلسطينية، بكل ما يحمل ذلك من معان اغتصاب وقهر. ولكنه حتى وهو فى فلسطين، بعد وعد بالفور، ظلت تخامره الشكوك بخصوص المشروع الصهيونى وظل موقفه مبهما حتى النهاية.

وهكذا نجد أن محاولة إعادة صياغة الرؤية الصهيونية وتأكيد وجود العربى الحقيقى أدى إلى تهميش مثل هؤلاء الصهاينة ودفع بهم بعيدا عن المركز وعن مجال صنع القرار، ولذا لم تظهر سياسة صهيونية فعالة تجسد الإدراك الصهيونى للعربى الحقيقى!

(٣) وهناك أخيراً النمط الثالث، وهو أكثر الأنماط شيوعاً وهو النمط الذى يؤدى إدراكه للعربى الحقيقى إلى مزيد من الشراسة الصهيونية.

وهنا يجب أن نطرح هذا السؤال: لم هذه الاستجابة الشرسة من جانب هؤلاء؟ والأهم من ذلك: بم نفسر شيوع هذا النموذج؟ ومرة أخرى سنحاول أن نطرح التفسيرات الأخلاقية جانباً، فهى تفسيرات نهائية مطلقة ولن يفيدنا كثيراً أن نقول ان استجابة هذا النمط الثالث نابعة من عمق الشر الكامن فى أنفسهم (فنسبة الشر واحدة تقريباً فى كل البشر). ولذا فلنحاول أن نصل إلى تفسير يعمق إدراكنا بتفاصيل الواقع وآلياته.

وقد ذكرنا من قبل أن ثمة أسباب مختلفة هي التي تحدد كيفية تحول إدراك ما إلى سلوك، وقلنا أنها أسباب سياسية واجتماعية ونفسية وعصبية. ولكننا لا يمكن أن نغوص، في هذا البحث، في الجوانب العصبية أو النفسية (مع إدراكنا لأهميتها)؛ لأن مثل هذا يتطلب معرفة حقائق ومعطيات ليست متوفرة للباحث الآن. كما أن الجوانب العصبية والنفسية قد تفسر الاختلافات الفردية بين الزعماء والمفكرين الصهاينة، ولكنها لا يمكنها أن تفسر بأية حال الاختلافات العامة ذات الطابع السياسى والاجتماعى.

ولذا قد يكون من المفيد أن نحاول التفكير في الأسباب السياسية والاجتماعية وحدها. وقد بينا من قبل أن التحيز الايديولوجى هو أحد المحددات الأساسية للإدراك، ويمكننا أن نضيف هنا عنصراً آخر وهو ميزان القوى: فقبل عام ١٩٤٨ كانت الإمبريالية الغربية مهيمنة على معظم العالم بما فى ذلك العالم العربى، ولم تكن القومية العربية قد تحددت معالمها بعد كقوة يحسب حسابها. ولم يكن الوضع فى فلسطين أحسن حالا، إذ أن القوى الاجتماعية هناك لم تكن هي الأخرى قد تبلورت، وبالتالي لم يكن قد تبلور بعد تفكير ثورى نضالى قادر على تعبئة الجماهير من كل الطبقات والأديان ضد عدو يتهددها كلها بالطرد والفناء. لكل هذا كان العربى الحقيقى، حينما يظهر على شاشة الوعى الصهيونى، يبهت ويشحب ثم يصبح هامشياً ويختفى أمام موازين القوة التى لم تكن فى صالحه. فلو أن هذا العربى الحقيقى كانت تسانده القوى اللازمة لثبت الإدراك فى وعى الصهاينة ولظل العربى الحقيقى حقيقياً ثابتاً يُقام له حساب ووزن، ولتحول هذا الإدراك إلى برنامج سياسى وإلى سلوك محدد يأخذ العرب فى الحسبان. ولربما أمكن حينئذ لشخصيات الصهيونية مثل إيشتاين أن تصبح هي الشخصيات القيادية صاحبة القرار. ولكن العربى كان ضعيفاً ولذا أصبح من الممكن تغييبه أو تهيمشه.

إن ما أقترحه، من الناحية المنهجية، أن نرى بنية الإدراك وشكله (الطيف الإدراكى) لا فى ضوء التحيزات الايدلوجية وحسب وإنما فى ضوء بنية القوه الموضوعية (أو موازين القوى) إذ لا يمكن أن نرى الواحد دون الآخر، ولا يمكن تفسير الواحد دون الآخر، فالعربى ككيان امبريقى كان هناك موجوداً أمام الجميع،

والإحصائيات لا بد وأنها كانت متوفرة، والصراعات كانت دائمة، واستعدادات الصهاينة «للدفاع عن أنفسهم» ضد العرب كانت قائمة على قدم وساق منذ أول يوم. ومع هذا ظهر العربى متخلفا وهامشيا فى وجدان الصهاينة، وحينما ظهر حقيقياً فقد تقرر تهميشه وتغييبه - حسبما يتطلب التحيز الايديولوجى الذى تسانده القوة. هذا هو الذى يفسر موقف النمط الثالث (وهو الأكثر شيوعاً) من الصهاينة الذين يسمون «بالمطرفين» والذين نسميهم «بالواقعيين». فهؤلاء أدركوا العربى الحقيقى فأصبحوا أكثر ضراوة وشراسة بسبب هذا الإدراك لارغما عنه. «فالآخر» إذا أصبح حقيقاً فإنه يشكل تهديداً حقيقياً للذات، أما إذا كان هامشياً فإنه لا يمثل خطراً كبيراً. إن الصهاينة المتطرفين هم أكثر الناس إدراكاً لخطورة العربى الحقيقى ولطبيعة المشروع الصهيونى ولموازين القوى فى ذات الوقت.

الحائط الحديدى

ولنضرب مثلاً على ذلك بفلاديمير جابوتنسكى - زعيم الحركة الصهيونية التصحيحية - الذى أدرك منذ البداية أن الصراع بين الصهيونية كحركة استيطانية مغتصبة للأرض والعرب أمر حتمى، فلم يختبئ وراء السحابة الكثيفة من الاعتذاريات الصهيونية أو الحديث عن اليهودي كعربى أو الحقوق اليهودية الأزلية، فقد كان هو ملحداً علمانياً، يؤمن بالقومية كقيمة مطلقة، كما لم يختبئ وراء الحجج الليبرالية عن شراء فلسطين، أو وراء الحجج الاشتراكية عن رجعية القومية العربية وخلافه من الاستراتيجيات الإدراكية، وإنما أكد دون مواربة أن الصهيونية جزء من التشكيل الاستعماري الغربى الذى لم يكن بمقدوره أن يحقق انتشاره إلا بحد السلاح، ولذلك طالب منذ البداية بتسليح المستوطنين الصهاينة (تماماً مثلما يتسلح المستوطنون الاوروبيون فى كينيا وفى كل مكان)^(١٢)، أي طالب بتعديل موازين القوى بطريقة تخدم التحيز الصهيونى. فالعرب - حسبما صرح - لن يقبلوا بالصهيونية (وتحيزاتها ورؤيتها) الا إذا وجدوا أنفسهم فى مواجهة حائط حديدى^(١٣).

ونفس النتيجة توصل لها بن جوريون أذ أن إدراكه للعربى الحقيقى والتزامه فى ذات الوقت بالرؤية الصهيونية وحقوق اليهودى الخالص جعله يدرك أن لامناص من فرض هذه الرؤية عن طريق القوة وحد السيف. ولذا لم يبحث الزعيم الصهيونى عن سلام مع العرب، فمثل هذا السلام- على حد قوله- مستحيل، كما أنه لم يحاول أن يعقد اتفاقية معهم، فهذا ولاشك سراب. إن السلام مع العرب، بالنسبة لبن جوريون، «إن هو إلا وسيلة وحسب، أما الغاية فهى الإقامة الكاملة للصهيونية، لهذا فقط نود أن نصل الى اتفاق [مع العرب]. إن الشعب اليهودى لن يوافق، بل لن يجسر على أن يوافق، على أية اتفاقية لاتخدم هذا الغرض... . ولذا فالاتفاق الشامل أمر غير مطروح الآن، [فالعرب] لن يستسلموا فى إرتس إسرائيل إلا بعد أن يستولى عليهم اليأس الكامل، يأس لا ينجم عن فشلهم فى الاضطرابات التى يثيرونها أو التمرد الذى يقومون به وحسب وإنما ينجم عن نمونا [نحن أصحاب الحقوق اليهودية المطلقة] فى هذا البلد. ثم استمر يقول: لا يوجد مثل واحد فى التاريخ أن أمة فتحت بوابات وطنها [للآخرين]... . إن تشخيصى للموضوع أنه سيتم التوصل الى اتفاق [مع العرب] لأننى أوّمن بالقوة، قوتنا التى ستنمو، وهى إن حققت هذا النمو، فإن الاتفاق سيتم إبرامه»^(١٤). وهكذا تم عقد اتفاقيات «السلام مع العرب».

وماذا عن شاريت الذى عرف العربى الحقيقى عن قرب وكتب عنه مدافعا. هنا أيضا سنجد أن المثل الأعلى الصهيونى الذى تسانده القوة يفرض نفسه عليه ويحدد له الواقع، كما يحدد له طريقة سلوكه. ولذا صرح قائلاً: «إن معاناة العرب لاتهمنا لأننا سنحقق قوميتنا [قومية اليهودى الخالص]، ويمكنهم هم أن يحصلوا على بلاد أخرى. نحن نهذف إلى إنشاء دولة ولكن يجب ألا نستخدم هذه الكلمة»^(١٥). وهو أيضا يتبنى سياسة الحائط الحديدى، شأنه فى هذا شأن بن جوريون وجابوتنسكى: «لا أعتقد أننا سنصل إلى اتفاق مع العرب حتى تنمو قوتنا. ولكنى أعتقد أنه ستحين اللحظة حين نصبح أكثر قوة وسنبرم اتفاقاً ثابتاً مع بريطانيا العظمى، كقوة مع قوة أخرى، وسنصل إلى اتفاق مع العرب كقوة مع قوة أخرى. لكن الشرط الأساسى هو ألا ينظر لنا العرب باعتبارنا قوة محتملة وإنما

باعتبارنا قوة فعلية» (١٦). وهكذا يمكن القفز من العربى الحقيقى الى العربى الهامشى ومنه الى العربى الغائب، كما يمكن القفز من يهودى المنفى الى اليهودى الخالص - أى يمكن القفز من الواقع الى المثل الأعلى الصهيونى المتحيز عن طريق العنف والقوة، وكلما زاد العربى حقيقة فى الوعى الصهيونى لابد وأن تكون القوة أكثر ضراوة لسد الهوة بين الحقيقة والمثل الأعلى - هذه هى بنية الايديولوجية: هذه هى طبيعة الإدراك: هذه هى موازين القوى: وهاكم هى الوسائل.

وقد طرح أحد الصهاينه الذين أدركوا وجود العربى الحقيقى السؤال التالى فى أحد المؤتمرات الصهيونية: «هل تريد الحركة الصهيونية الحرب مع العرب أم لا؟» (١٧). ولعل طرح السؤال على هذا النحو يلقى كثيراً من الضوء على القضية موضع البحث: فهل المسألة مسألة «إرادة» و«رغبة»، أم أنها مسألة بنية فكرية تحوى داخلها الحد الأقصى من العنف؟ وحينما تأخذ هذه البنية شكلاً مؤسسياً تسانده القوة، فهل يمكن لإرادة الأفراد آنذاك أن تتحكم فيها، أم أنها تتخطى تلك الإرادة وتصبح لها ديناميكية مستقلة تدوس كل من يقف فى طريقها؟

ويمكن لوايزمان أن يساعدنا فى الإجابة على هذا السؤال، فهو كان يدرك تماماً أن الصراع موضوعى، له بنية مستقلة عن إرادة الأفراد، وأنه لو تم تعديل الرؤية الصهيونية التى تحاول تغييب العربى، بحيث يمكن لهذا العربى تحقيق وجوده، ولنقل داخل إطار حكومة ديموقراطية، فإن لمثل هذا الوضع عواقبه الوخيمة، اذ أنه سيؤدى إلى «سيطرة العرب على الأمور».

فهذه الحكومة ستتحكم فى الهجرة والأرض والتشريع - وبذا سيحقق الصهاينة السلام - ولكنه «سلام المقابر» (١٨) والصهاينة شأنهم شأن كل من فى موقفهم، كانوا لا يبحثون عن سلام المقابر لأنفسهم وإنما للآخرين. ولذا لابد من إسقاط العربى الحقيقى، وإذا فرض نفسه على وعى الصهاينه فإنه لابد من تهميشه وتهشيمه وتغييبه. وإن طفا هذا العربى مرة أخرى على سطح الوعى فان ردة الفعل لابد وأن تكون مزيداً من التطرف فى مواجهة الخطر الحقيقى من العربى الحقيقى، ولذا فالاتفاق الذى يتحدث عنه جابوتنسكى ثم بنن جوريون وشاريت ووايزمان ليس اتفاقاً مع العربى الحقيقى إنما هو اتفاق مع طرف آخر تم تغييبه أو

ترويضه عن طريق القوة والحائط الحديدي، ولذا فهو يقنع بالبقاء حسب الشروط التي يفرضها تحيز الآخر وإدراكه. وهذه رؤية ولاشك واقعية: إذ كيف يمكن أن نتوقع من العرب أن يرضخوا طواعية لرؤية تلغى وجودهم؟

الاستجابة العربية

وهذا ما أدركه العرب «المتخلفون» المغيبون منذ البداية. فرغم كل محاولات الصهاينة المعلنة عن الحوار والتفاوض والأخوة العربية اليهودية والأخذ بيد العرب، كان العرب يعرفون أن الصهاينة قد أتوا تحت راية الاستعمار الانجليزي وبمساعدة جيوشه وبوارجه، وأن وعد بالفور قد وعدهم بفلسطين، وأنه أشار بشكل عابر إلى حقوق «الجماعات غير اليهودية»، أي أن الصياغة اللفظية ذاتها قد قامت بتهميشهم وتغيبهم على مستوى المخطط، ولم يبق سوى التنفيذ والممارسة. ولم يكن العرب غافلين عن المفاهيم الصهيونية مثل العمل العبري أو عن المؤسسات الصهيونية مثل الكيبوتس والهستدروت والهاجاناه التي تستبعدهم وتستبعدهم وتُغيبهم. وفي علاقاتهم اليومية مع مؤسسات إدارة الانتداب كانوا يعرفون أن بوابات وطنهم قد فُتحت على مصراعيها ليهود الغرب ليستوطنوا فيه، كما كانوا يدركون أنه بغض النظر عن نوايا بعض الصهاينة الطيبة تجاه العربي الحقيقي (مهما خلصت النية) وبغض النظر عن مدى جديتهم في دعاواهم (مهما بلغت درجة الجدية) فإن الواقع الذي كان آخذاً في التشكل كان واقعاً صراعياً، فالصهاينة كانوا يهدفون دائماً إلى زيادة عدد اليهود في فلسطين وإلى إقامة كيان اقتصادي اجتماعي (عسكري) منفصل، وفي نهاية الأمر مهيمن.

وقد وصف نجيب عازوري، هذا المؤلف الفلسطيني العربي المسيحي، والذي كان أول من أدرك حقيقة ما يحدث «بأن الصراع سيستمر إلى أن يسود طرف على الآخر» (١٩). وهذا الرأي ليس رأياً متشائماً ينكر مثاليات البشر، وإنما هو رأي يحكم على هذه المثاليات في ضوء الطموحات والممارسة، وفي ضوء ما تشكل في الواقع بالفعل، ونحن إن لم نفعل ذلك أصبح المثل الأعلى ضباباً يغطي الأبصار وليس منارة تضيئ للإنسان طريقه وتساعد على تغيير واقعه إلى واقع أفضل. وهذا ما قاله أحد القادة الفلسطينيين لأحد أعضاء جماعة بريث شالوم من دعاة السلام

مع العرب: «أحب أن أخبرك بكل صراحة أنني أفضل أن أتعامل مع شخص مثل جابوتنسكى على التعامل معك. أعرف تماماً أن جابوتنسكى هو عدونا اللدود وأنا ينبغي أن نحارب ضده، بينما يبدو أنك صديقنا. ولكن بكل صراحة لا أرى أى فارق بين هدفك وهدف جابوتنسكى. أنت أيضاً تترك بوعد بالفور والوطن القومى والهجرة بلا قيد ولا شرط وشراء اليهود للأرض- أى بكل ما هو بالنسبة لى مسألة حياة أو موت» (٢٠).

إن ما يقوله العربى هنا ليس تعبيراً عن يأسه بخصوص الطبيعة البشرية، وليس تبنياً لرؤية داروينية اجتماعية تشبه رؤية الصهاينة التى ترى أن الواقع هو حلبة صراع الجميع ضد الجميع، وإنما هى تعبير عن محاولة لفهم الآخر فى ضوء فكره وسلوكه- فإذا كان القول مشرقاً عادلاً والفعل مظلماً ظالماً فلا مناص من أن نضع النقط على الحروف، بل يكون من الأفضل فى هذه الحالة أن نتعامل مع عدو تطابق أقواله المظلمة أفعاله الظالمة، فهذا الموقف، على الأقل، يتسم بفضيلة الوضوح.

وقد تنبه أحد زعماء حزب الاستقلال فى فلسطين الى أن الرؤية الصهيونية للسلام مع العرب، مهما بلغت من اعتدال، رؤية فى نهاية الأمر وهمية (أيديولوجية بالمعنى السلبي للكلمة) وأن أى تحقق لها يعنى سلب حقوق العرب. ولذا حينما كتب له يهودا ماجنيس يقترح إمكانية التخلي عن فكرة الدولة اليهودية على أن يسمح لجماعة يهودية أن تتمتع بحكم ذاتى محدود فى فلسطين، رد عليه قائلاً: «لا أرى أى شئ فى اقتراحاتك سوى استفزاز صريح ضد العرب، الذين لن يسمحوا لأحد أن يقاسمهم حقوقهم الطبيعية... أما بالنسبة لليهود فليس لديهم أية حقوق سوى ذكريات روحية مفعمة بالكوارث والقصص المحزنة... ولذا من المستحيل عقد لقاء بين زعماء الشعبين- العربى واليهودى» (٢١).

وكان العرب يدركون تماماً أن الحديث العذب عن التقدم وخلافه إنما هو حديث عن التغييب وعن سلب الوطن. إن التقدم فى إطار غير متزن من القوة لصالح المغتصب يعنى أن العربى سيفقد كل شئ، خاصة إذا كان الآخر لا يعترف بالعربى

ككيان تاريخي وإنما كمخلوق اقتصادي. ولذا تغير كثير من الشعوب المقهورة استراتيجيتها التحررية وبدلاً من البحث عن التقدم تفضل الدفاع عن البقاء أو «التشرنق» إذا ما استخدمنا عبارة المفكر العربي المصري الدكتور شكرى عياد.

ولعل هذا هو الذى يفسر رفض موسى العلمى لكلمات بن جوريون (الحلوة العذبة) حين تقابلا عام ١٩٣٦ فى منزل موسى شاريت. فطبقا لما جاء على لسان بن جوريون بدأ الحديث بترديد النغمة (القديمة) التى أعدها عن المستنقعات التى يجرى تجفيفها، والصحارى التى تزدهر بالخضرة، والرخاء الذى سيعم على الجميع. ولكن العربى قاطعه قائلاً: «اسمع ياخواجه بن جوريون، إننى أفضل أن تظل الأرض هنا جرداء مقفرة لمائة عام أخرى، أو ألف عام أخرى إلى أن نستطيع نحن استصلاحها ونأتى لها بالخلاص». وهنا مارس بن جوريون إحدى لحظات الإدراك النادرة ولم يسعه إلا الاعتراف بأن العربى [الحقيقى] كان يقول الحقيقة، وأن كلماته هو [اليهودى الخالص] بدت مضحكة وجوفاء أكثر من أى وقت مضى (٢٢).

وهكذا أيقن العرب أنه لا يمكن التصالح أو التفاهم أو الاستفادة من مستوطن سهيونى يدرك الواقع بطريقة تنكر وجودهم ابتداء أو تهتميشهم على أحسن تقدير، وهو إدراك تسانده موازين القوى العالمية والمحلية التى لم تكن فى صالح أهل البلد. وقد أثبت مسار التاريخ صدق حدسهم ودقة تقييمهم للموقف.

١ - تم إقتباسه في

Hans Kohn, "Ahaad Haam" in Gary Smith, ed., **Zionism:**

The Dream and the Reality: A Jewish Critique (New York, Barnes and Noble, 1974), P.23.

2- Published in **Haartz** in Sept 8, 1922, Moshe Menuhin and Cited by **Jewish Critics of Zionim** (New York, Arab Information Center.) P.2.

٣- صبري جريس، تاريخ الصهيونية،

٤- لاكير، ص ٢١٥-٢١٦.

٥- صبري جريس، تاريخ الصهيونية، ص ١٤٠.

٦- لاكير، ص ٢١٥-٢١٦.

٧- يوميات هرتزل، الجزء الرابع، ص ١٤٤٩

٨- فلابان، ص ١٤٠-١٤٢.

٩- نفس المرجع، ص ١٤٩-١٥٠.

١٠- لاكير، ص ٢٦٤.

١١- فلابان، ص ١٤٩-١٥٠.

١٢- «شهادة مقدمة إلى اللجنة الملكية لفلسطين» (١٩٣٧) في الفكرة

الصهيونية: النصوص الأساسية، إشراف الدكتور أنيس صانع (بيروت،

مركز الأبحاث الفلسطينية، ١٩٧٠)، ص ٤٣٧.

١٣- لاكير، ص ٢٥٧.

١٤- فلابان، ص ١٤٣-١٤٤.

١٥- نفس المرجع، ص ١٥٣.

١٦- نفس المرجع، ص ١٥٦.

١٧- لاكير، ص ٢٤٢.

١٨- فلابان، ص ٧٦.

١٩- لاكير، ص ٢١٥.

٢٠- روبشتاين، ص ٥٦٢.

٢١- نفس المرجع، نفس الصفحة.

٢٢- بن عيزر، ص ٨٣.

الفصل الثاني:

في الإدراك الإسرائيلي

- ١- الإدراك الإسرائيلي للعرب
- ٢- الإدراك الإسرائيلي للدولة الفلسطينية
- ٣- الإدراك الإسرائيلي للإنتفاضة

١- الإدراك الاسرائيلي للعرب

يمكننا فى هذا الفصل أن نترك الإدراك الصهيونى للعرب وننتقل إلى الإدراك الاسرائيلى. ولنبدأ بطرح السؤال التالى:

هل نجح الاسرائيليون فى تجاوز التحيز الإدراكى الصهيونى؟ وإن كانوا قد نجحوا، فهل تحول الإدراك إلى برنامج سياسى ما، أو هل أثير إدراكهم فى سلوكهم؟ بمعنى- هل ثمة إدراك اسرائيلى للعربى منفصل عن الإدراك الصهيونى، وهل أدى تحول المستوطن الصهيونى إلى الدولة الصهيونية إلى تحول مماثل فى الإدراك؟

أعتقد أن الوجدان الاسرائيلى لا يزال حبيس الإدراك الصهيونى الغربى بكل تحيزاته. وهذا ليس بأمر مستغرب، فالإنسان الاسرائيلى إنسان مستفيد من المشروع الاستيطانى الصهيونى، ولا يوجد له أى كيان خارجى، وظهور العربى الحقيقى يهدد هذا الكيان وينسف الادعاءات الصهيونية من جذورها. (وقد بينا فى مكان آخر كيف تساهم عملية تمويل الكيان الصهيونى من الخارج [عن طريق الولايات المتحدة ويهود الغرب] فى فصل الاسرائيلى عن واقعه وبالتالي تساعد على تدعيم الإدراك الصهيونى المتحيز للواقع وللإنسان العربى وتضمن له الاستمرار، إذ أنها تمد هذا الإدراك ببنية القوة التحتية)^(١).

العربى المتخلف

ولنبدأ بمقولة العربى المتخلف (والصهيونى كممثل للحضارة الغربية). هناك الكثيرون بطبيعة الحال فى إسرائيل الذين ينظرون لأنفسهم على أنهم حملة شعلة الحضارة الغربية فى جبهة الشرق الأوسط، وأن العرب هم ممثلو الشرق المتخلف. فعلى سبيل المثال يرى أبا ايان أن إسرائيل فى الشرق الأوسط ولكنها ليست منه، ويتبعه فى ذلك بن جوريون وبيجين ومعظم القيادات الصهيونية.

بل إن سياسة إسرائيل بكاملها، ابتداء من نمط تصويتها في هيئة الأمم إلى تحالفها الاستراتيجي مع الولايات المتحدة، هو ترجمة لهذه الرؤية للذات. ويمكن أن نضيف أن الأسلحة الإسرائيلية التي تدك مخيمات اللاجئين هي، في معظم الأحوال، أسلحة غربية متقدمة أو ثمرة من ثمرات التكنولوجيا الغربية. كما أن القنابل العنقودية بدرجة فتكها العالية هي ولا شك نتاج حضارة متقدمة منظمة على أكمل وجه، والمعونات التي تلتمها إسرائيل أولاً بأول هي معونات غربية بشكل عام، وأمريكية على وجه الخصوص. وقارئ الصحافة الإسرائيلية يعرف أن الدولة الصهيونية لا تكف عن الحديث عن نفسها باعتبارها امتداداً للغرب وواحة الديمقراطية الغربية، كما يعرف أن أسلوب الحياة هناك استهلاكي غربي (على الأقل بالنسبة للأشكناز).

وتنعكس هذه الرؤية الصهيونية للذات وللآخر على موقف الدولة الصهيونية الاشكنازية من يهود البلاد العربية، فهي تنظر لهم بالمنظار الغربي، وترى أنهم عنصر من عناصر التخلف الحضاري العام في الجيب الصهيوني. بل إن إنكار الإنجاز الحضاري العربي قد انسحب على إسهام اليهود الغرب للحضارة العربية، وعلى إسهام اليهود السفارد لحضارة حوض البحر الأبيض المتوسط. ولذا لا يأتي ذكر لهذه الإنجازات، إلا نادراً، في الكتب المدرسية الإسرائيلية. ومن السخرية بمكان أنه حتى بدايات القرن الثامن عشر، كانت إسهامات اليهود الاشكناز لحضارات بلادهم في حكم المنعدمة، ولا تخرج عن نطاق الفتاوى التلمودية والإشراقات القبالية، فلم ينتج يهود الغرب شخصية مثل موسى بن ميمون أو شاعر مثل يهوذا هاليفي (إلا مع بدايات القرن الثامن عشر).

ولكن الهدف المقصود هو صاحب الأرض الفلسطينية، أي الغربي وليس اليهودي الشرقي، ولذا نجد أن صورة العربي المتخلف هي صورة متواترة في الصحافة الإسرائيلية لا تكف أجهزة الإعلام عن تأكيدها، ولا تكف المقررات الدراسية عن تدعيمها، فيجاء إلى أن الاسرائيليين (وحتى صندري) كتيبات لغربية عديدة لتوثيق هذا الجانب من الإدراك الاسرائيلي للإنسان العربي.

وقد ذكرنا من قبل امتداداً طريفاً لصورة العربى كشرقى وهو صورة اليهودى كعربى . وعلى الرغم من أننا ذكرنا أن هذه الصورة قد ظهرت قبل تبلور الإدراك الصهيونى للعربى ، إلا أنها مع ذلك لا يزال لها أصداءها فى الوجدان الاسرائيلى ، وتأخذ شكل الفكرة الكنعانية التى تنطلق من الإيمان بأن اليهود العائدين لإسرائيل إنما هم عبرانيون - أى جزء من التشكيل الحضارى السامى ، ليس لهم علاقة بيهود الشتات . ولعل الدعوة للقومية الاسرائيلية (ككيان منفصل بل ومناقض للهوية اليهودية) وتمجيد الصابرا فى مقابل يهود المنفى هو تعبير جزئى عن نفس هذا الإدراك .

العربى ممثلاً للأغيار

أما العربى ممثلاً للأغيار فهو أيضاً إدراك لا يزال سائداً فى إسرائيل ، فقد فسر المفكر والعالم يشياهو ليفتر ما سماه الصراع العربى اليهودى على أنه تعبير عن الجوهر الأزلى لمأساة الشعب اليهودى التاريخية^(٢) أى مشكلة اليهود مع الأغيار . أما الشاعر بنحاس صادق فىرى أن العرب هم التعبير عن حاجة العالم المسيحى لتصفية ظاهرة اليهود^(٣) . ويفسر الكاتب الاسرائيلى يهوشاوا المقاومة العربية على أساس أنها شئ غير مفهوم ، ودوافعها غير عقلانية إلى حد كبير . فثمة شئ ما فى اليهود يؤدى الى إثارة جنون الشعوب الأخرى^(٤) .

وهم فى إسرائيل لا يتحدثون عن اليهود والعرب ، وإنما يتحدثون فى كثير من الأحيان «عن اليهود وغير اليهود»^(٥) أى الأغيار على طريقة وعد بالفور . وفى هذا الصدد قد يكون من المفيد أن نذكر أن الحاخام ابراهام افيدانيل^(٦) الذى كان من الاسرائيليين - فى إحدى نشرات الحاخامية العسكرية لسلحيشن الاسرائيليين - يقتل المدنيين الأغيار^(٧) ، وغير اليهود ، ولكنه كان يعنى بطبيعة الحال العرب ، إذ أنه لا يوجد سواهم وجنس . ولا شك أن جنود جيش الدفاع الاسرائيلى كانوا يعرفون تماماً ما كان يتم من قبل الحاخام اليهودى فى الجيوب^(٨) . وهذا الإدراك ، هو - ممثلاً الأغيار .

وقد ذكر الصحفي الاسرائيلي (وعضو الكنيست) يورى افيرى فى إحدى مقالاته (أثناء حرب الاستنزاف على الحدود المصرية) أن الطيارين الاسرائيليين يطرون بطائراتهم ويدكون المنازل والمدارس المصرية ثم يعودون إلى منازلهم ولا يرون فى أحلامهم ضحاياهم، وإنما يرون جيتو شرق أوروبا أثناء إحدى المذابح التى كانت تدبر ضد اليهود- أى أن الاسرائيلي يدرك نفسه على أنه الضحية الدائمة وأن العربى يمثل الأغيار والجزار، حتى بعد أن قام هو شخصيا بذبحه.

العربى الهامشى

أما العربى الهامشى فيظهر فى الرؤية الاسرائيلية على أنه شخص له حقوق مدنيه يمكن ممارستها من داخل مجالس البلديات ومجالس القرى، ولكنه ليس له حقوق سياسية أو قومية ينبغى التعبير عنها من خلال مؤسسات سياسية، ومن هنا عدم السماح بقيام أحزاب عربية قومية. والمفهوم الاسرائيلي للحكم الذاتى لا يخرج عن هذا الإطار. ومفهوم الإدارة الذاتية هو فى جوهره تعبير عن ذلك، فهو مفهوم يفصل الإنسان العربى عن أرضه ويحقق الرؤية الصهيونية فى مرحلة أصبحت الإبادة فيها شبه مستحيلة وأصبح تفريغ الأرض من سكانها أمراً صعباً. ويظهر التهميش كذلك فى إصرار الاسرائيليين على التعامل لا مع العرب وإنما مع المسلمين والمسيحيين والدروز وسكان القطاع وسكان الضفة ومع القيادات التقليدية. بل إن الاستراتيجية الصهيونية الحالية تجاه المنظومة العربية بأسرها لاتزال تدور فى إطار الإدراك القديم وهو إنكار القومية العربية والتعامل مع الجماعات الإثنية والقومية المختلفة، وهذا هو فى نهاية الأمر إطار كامب ديفيد.

العربى الغائب

أما التغييب فيأخذ الآن فكرة تهجير الفلسطينيين ودفع تعويضات لهم وتشجيعهم على الهجرة إلى الغرب حتى يمكن تفريغ الأرض من سكانها. وقد دأبت أجهزة الدعاية الصهيونية على وصف تغييب عرب فلسطين عام ١٩٤٨ وإرغامهم على الخروج من فلسطين عن طريق الإرهاب بأنه كان عملية «تبادل سكان» تم من خلالها توطين الفلسطينيين خارج فلسطين وتوطين العرب اليهود داخلها.

ولكن التبادل يعنى القبول من الطرفين، وهو أمر كما نعلم لم يحدث، فالفلاحون الفلسطينيون لم يقبلوا أن يتركوا أراضيهم ليحلوا محل رجال الأعمال والمحامين من أعضاء الأقلية اليهودية في مصر أو العراق، وبالتالي فلم يكن هناك ثمة تبادل. كما أنه لم يتم تبادل أرض بأرض فنحن لا نعرف أن الحركة الصهيونية قد دبرت للفلسطينيين المغيبين قطعة أرض في مكان ما. ولكنه مع هذا «تبادل» من وجهة نظر الإدراك الصهيونية باعتبار أن فلسطين هي المكان الطبيعي لليهودي الخالص، ولا يوجد فيها مكان للعربي الغائب أو الذي يجب أن يُغيب. ولذا حينما يخرج العربي (حتى ولو بقوة السلاح) ويحل محله اليهودي فإن في هذا تحقيق لرؤية إدراكية مسبقة، وبالتالي يبدو أمراً طبيعياً ومنسجماً.

ومن أشكال التعبير عن تغيب العرب الاصطلاح القانوني الاسرائيلي «الغائبون الحاضرون» وهو يشير إلى الفلسطينيين الموجودين بالفعل داخل حدود ٤٨، والذين مُنعوا من الوصول لأرضهم بأمر الحاكم العسكري. ولو تُرجم هذا المصطلح إلى «الحاضرين المغيبين» لظهر معناه الحقيقي.

أما إغفال العرب فيظهر في إنكار وجود حركة المقاومة الفلسطينية ورفض التعامل معها والإصرار على الإشارة للفدائيين على أنهم «متسللين وإرهابيين وقتلة»، وفي رفض التصريح بعدد ضحايا الهجمات الفدائية، وفي وصف جولدا مائير لنفسها بأنها «فلسطينية».

العربي كيهودي

ثم نأتى أخيراً لعملية الإسقاط الصهيونية التي تحول العربي إلى يهودي المنفى. ويبدو أن هذه الظاهرة أيضاً لها إمتداداتها. وقد لاحظ أحد المؤلفين العرب (دكتور رشاد الشامي في جامعة عين شمس بالقاهرة) في دراسة له في قصة «خربة خزعه» لساميخ يزهار، أن الفكر الصهيوني الاسرائيلي بدأ ينسب إلى العربي السمات السابقة نفسها التي كان ينسبها ليهود المنفى، وهي السمات التي استوردتها الصهيونية بدورها من أدبيات معاداة اليهود.

وقد بدأ الدكتور علي جاد أستاذ أدب انجليزي بجامعة الملك سعود الرياض، في نشر مجموعة من الدراسات عن هذا النمط الإسقاطي كما يرد في الرواية الصهيونية في الولايات المتحدة.

ومن الأمثلة الأخرى التي نسوقها على هذا الإسقاط الصورة التي رسمها المفكر الصهيوني الأمريكي هوارس كالن لفلسطيني في المستقبل كما يحب أن يراها، فقال: «لوحصل اللاجئون على جوازات سفر وغيرها من الوثائق التي تمكنهم من التحرك بحرية، ولو حصلوا على مبلغ كاف من المال ليشقوا به طريقهم إلى مكان من المتوقع أن يجدوا فيه سبل العيش المعقولة، وقيل لهم أن هذا هو كل ما سيحصلون عليه ولا شيء آخر أبداً- لوحدث هذا لبدأوا عندئذ في الاعتماد على النفس»^(٦). ولنلاحظ أن الصورة الكامنة هنا هي صورة «اليهودي التائه» الذي يرحل من مكان لآخر دون توقف، والذي لا يهيمه سوى المبلغ الذي يحمله، أي أنها صورة اليهود في كتابات المعادين لليهود.

ومن الأمثلة الدرامية الأخرى على عملية الإسقاط هذا الحوار التالي الذي نشر في جريدة حاداشوت (٢٠ نوفمبر ١٩٨٤) والذي دار بين مراسلي الجريدة وزوجة موشيه ليفنجر زعيم جوش ايمونيم. أخبرت السيدة المراسل أن الأطباء العرب أقل نظافة ومهارة من الأطباء الاسرائيليين وأنها تفضل أن تعالج أسنانها عند أطباء يهود «لأنني أثق في المعايير اليهودية وحسب. فاليهود موهوبون في هذه الأمور، أما العرب فهم غير قادرين على تطوير صناعات متقدمة، وتستورد السعودية آلاف الفنين. إن كل أمة لها اتجاهاتها الخاصة، والعرب لا يصلحون إلا أن يكونوا نجاراً». إن العربي هنا هو يهودي البروتوكولات- التاجر المرابي الطفيلي. وهو أيضاً، شأنه شأن يهودي البروتوكولات، مصدر كل الشرور ويهدد أمن الدولة: فقد نشرت، على سبيل المثال، عال هامشمار (٢٣ نوفمبر ١٩٨٤) خبراً مفاده أن الطلبة العرب أرسلوا خطايا لأعضاء الكنيست يهددونهم فيه بالذبح. وأنهم سيدمرون كل اليهود!

العربي الحقيقي

وأخيراً نأتي للإدراك الإسرائيلي للعربي الحقيقي وسنكتشف أنه على الرغم من وجود مؤسسات حكومية اسرائيلية لدراسة العرب، وعلى الرغم من وجود احتكاك يومي بين الاسرائيليين والعرب إلا أنه يمكن القول أن الأمر لم يتغير كثيراً. فإدراك الاسرائيليين للعربي الحقيقي لا يترجم نفسه بالضرورة إلى فعل فاضل وإنما تنتج عنه الاستجابات الثلاث التي سبق وأشرت إليها:

- ١- أن يتخلى الاسرائيلي عن صهيونيته.
 - ٢- أن يعدل الاسرائيلي من صهيونيته في ضوء إدراكه فيتحول هو إلى شخصية هامشية أو مبهمه.
 - ٣- أن يتمسك بصهيونيته، فيزيد إدراكه من ضراوته وشراسته نظراً لتزايد إحساسه بالخطر المحدق.
- وهذه الأنماط الثلاثة هي ذاتها الأنماط التي كانت سائدة بين الصهاينة قبل ١٩٤٨، وقد لاحظنا شيوع النمط الثالث، ويبدو أن الأمر لا يزال على ما هو عليه.

وإذا أردنا أن نضرب أمثلة على النمط الأول ممن أدركوا العرب كحقيقة تاريخية وتقبلوا هذا الإدراك وحددوا سلوكهم في إطاره لذكرنا موشيه ماخوفر المواطن الإسرائيلي الذي تحول إدراكه إلى رفض للصهيونية، فغادر الكيان الصهيوني واستقر في لندن.

وهناك كذلك المناضل الاسرائيلي اليهودي أديب الذي انضم لصفوف المقاومة الفلسطينية ودخل السجن دفاعاً عما تطوره الحقيقة التاريخية والعدل الإنساني. أما بالنسبة للنمط الثاني فيمكن أن نذكر شخصيات مثل ميثياهو بيليد ويوري اقبيري وأرييه الثيف فهم يدركون العرب كحقيقة تاريخية لا بد من التعامل معها،

ولكنهم مثل إشتاين والآخرين ينطلقون من تقبل الكيان الصهيوني كحقيقة قائمة، ولذلك يطلبون من الإنسان العربي التاريخي أن يتعامل مع الإنسان الإسرائيلي ككيان تاريخي قائم. وقد تسبب موقفهم هذا في تهميشهم تماماً، خاصة في حالة إليف، الذي كان شخصية أساسية قيادية في المؤسسة العمالية ثم بدأ يدعو لفكرة التصالح مع العرب والاعتراف بهم فأخذ يتحرك من المركز إلى الهامش حتى فشل في الحصول على مقعد في الكنيست.

أما النمط الثالث، وهو النمط الأكثر شيوعاً، فيضم أولئك الذين أدركوا أبعاد الرفض العربي لهم، وأنه رفض تاريخي حقيقي مستمر، تحركه الدوافع القومية، فزادهم ذلك إصراراً وتمسكاً بموقفهم. وسنجد أن هؤلاء قد تبنا مفهوم إين بريرا- أي «لا خيار» - أي أنه لا يوجد أمام الاسرائيلي سوى الحرب المستمرة. ومن أهم ممثلي هذه الرؤية موشيه ديان وهو من جيل الصابرا الذي نشأ على الأرض العربية وعرف العربي عن قرب. ومن أهم المفكرين الاستراتيجيين الذين تتسم رؤيتهم بالإدراك الواضح وبالعنف والشراسة شلومو أرونسون الذي تنبأ بما يسميه حرب المائة عام بين إسرائيل والعرب. وهؤلاء الاسرائيليون يشبهون في كثير من الوجوه شاريت وبن جوريون وجابوتنسكي حيث يترجم الإدراك نفسه لا إلى تعديل للرؤية وإنما إلى تعميق الإحساس بعدم الأمن الذي يترجم نفسه بدوره إلى مزيد من الضراوة.

القصور الإدراكي

بعد هذا العرض السريع للطيف الإدراكي (الصهيوني/الاسرائيلي) تجاه العرب وبعد أن عرضنا لإشكالية العربي الحقيقي وأثره على السلوك الصهيوني، قد يكون من المفيد أن نحاول أن نشخص موطن الخلل أو القصور الأساسي في هذا الإدراك. وثمة خلل وقصور ولا شك، وإلا لم نفسر حالة الصراع الدائمة التي استمرت إلى مايزيد عن مائة عام، والآخذة في التصاعد والتي لا توجد أية مؤشرات على إمكانية انفراجها إلا عن طريق استسلام أحد الطرفين للآخر. وفي

محاولة التوصل إلى طبيعة هذا الخلل سنشير إلى مقال نشر عام ١٩٢٢ في مجلة كانت تصدرها جماعة صهيونية «اشتراكية» تسمى «فرقة العمل». وقد حاول كاتب المقال أن يعبر عن رؤيته لمستقبل كيبوتس عين هارود الزاهر الذي كان يجري تشييده آنذاك في وادي جزريل. وقد تخيل كاتب المقال الكيبوتس بعد مائة عام، وتأمل ثرائه وإنجازاته الثقافية ومنازله التي ستشيد على «الطريقة الشرقية». وحلم المؤلف بأنه سيشيد في وسط الكيبوتس تمثالا لرجلين «واحد عربي والآخر يهودي»، جالسين على صخرة ويحملان راية نُقشت عليها ثلاث كلمات: «المساواة والأخوة والحرية»^(٦).

إن الصورة الإنسانية المتوهجة التي رسمها المؤلف الصهيوني لكيبوتس المستقبل تتجاهل عدة حقائق:

١- لا ندري كيف صور المؤلف الصهيوني ذلك العربي الجالس إلى جوار اليهودي، ولكننا مع هذا يمكننا التخمين فنحن نعرف أن الصهاينة كانوا لا يعترفون بالتشكيل القومي العربي، خاصة داخل فلسطين، ولذا فالعربي الجالس هناك علي الصخرة كان شخصية مجردة من حقوقها القومية وتراثها الحضاري، فرد قد يكون له حقوق مدنية وربما بعض الحقوق السياسية على أكثر تقدير، ولكنه كان عليه أن يتنازل عن كثير من حقوقه، ويقتسمها مع اليهودي الذي اقتسم معه الصخرة، وكأن لهما نفس الحقوق ونفس الشرعية. وهذا ولا شك خلل إدراكي. فالعربي عاش آلاف السنين يفلح هذه الأرض ولا يعرف له وطناً غيرها، ولا يمكنه أن يقتسم فلسطين مع الصهيوني الجالس إلى جواره، فهذا الأخير جسم غريب غرس غرساً في هذه الأرض بمساعدة الاستعمار الغربي.

٢- والصهيوني الجالس علي الصخرة إلي جوار العربي، حتى لو كان من كبار المدافعين عن قيم الحق والعدالة، مغتصب، فوجوده في فلسطين عدوان، وكيبوتس عين هارود أُسس على أرض غيب سكانها. ولذا فهذا البثوري اليهودي سيؤسس وطنه في أرض غيره. وهذه حقيقة لا تحتاج لمنظرين يساريين أو ثوريين، فهذا مقال ملك إيطاليا لهرتزل. وإذا كان الصهاينة لم يروا هذه

الحقيقة البديهية فإن ذلك دليل قاطع - وكأننا نحتاج لمثل هذا الدليل - على مدى خلل إدراكهم للواقع .

لا يمكن تحقيق الحلم الصهيوني إلا بتغيب العربي أو تهيمشه على الأقل ، فغياب العربي هو تحقق الصهيونية ، وتحقيق الصهيونية هو غياب العربي : وهذا ما عرفه جابوتنسكي صاحب فكرة الحائط الحديدي ، وتبعه تلميذه بيجن ومعظم الاسرائيليين . وقد أكد بيجن في خطاب له أمام سكان كيبوتس عين هارود ، وبعد تأسيسه و«نجاحه» ، أكد على ضرورة تغيب العربي والتمسك بالزعم بأن فلسطين لا توجد ، وأنها كانت ولا تزال وستظل إرتس إسرائيل : «فلو كانت هذه هي فلسطين [أرض العربي الحقيقي] وليست أرض اسرائيل [أرض اليهودي الخالص] إذن فأنتم فاتحون ولستم مزارعين يفلحون الأرض ، أنتم إذن غزاة . إذا كانت هذه فلسطين [أى إذا اعترفنا بوجود العربي الحقيقي ذي الحقوق القومية والسياسية] فهي تنتمي إذن للشعب الذي عاش هنا قبل أن تأتوا إليها . لن يكون لكم حق العيش فيها إلا إذا كانت هذه هي أرض إسرائيل» .^(٧) وقد تولى بيجن رئاسة الوزارة فيما بعد ، ولم نعد نسمع عن ماجنيس أو إيشتاين وأمثالهما في كتب التاريخ . ولكن البشر لا يوجدون داخل وعي الآخرين وإدراكهم ، ولذا فهم يرفضون الغياب والتواري عن الأنظار والتحول إلى كائنات إقتصادية ، ويحملون السلاح دفاعاً عن وجودهم وشرفهم . ولذا بدلا من النصب التذكاري الذي حلمه المؤلف الصهيوني يوجد الآن في عين هارود نصب تذكاري شيده الإسرائيليون للقتلى الصهاينة الذين سقطوا في الحروب التي لا تنتهي مع العرب^(٨) والتي تنبأ بها بن جوريون في إحدى لحظات الصفاء .

الاعتدال والتطرف الصهيونيان

لعل من أهم النتائج التي خلصنا لها في تقييمنا للإدراك الصهيوني للعرب إنفصال الإدراك عن السلوك ، إذ أن نفس الإدراك لنفس الظاهرة (إدراك الصهاينة للعربي كإنسان حقيقي له حقوق) قد يؤدي إلى أنواع متباينة من السلوك . فإدراك آحاد هعام ويهودا ماجنيس وبن جوريون للعربي الحقيقي قد نجم عنه تذبذب من

جانب الأول، ومحاولات يائسة للتوفيق بين رؤيتين متناقضتين من جانب الثاني أدت إلى تهميشه هو شخصياً، ومزيد من الشراسة من جانب الثالث. وكما بينت من قبل تختلف الاستجابات من فرد لآخر نتيجة لمركب هائل من العوامل النفسية والعصبية والتاريخية والسياسية. وقد بينا أن موازين القوى تلعب دوراً هاماً في ترجيح صورة إدراكية على حساب الأخرى، ولذا في غياب القوة العربية وجدنا أن النمط الثالث هو أكثر الأنماط الصهيونية شيوعاً، فهو النمط الذي كان يدرك منطق الرؤية الصهيونية والذي كان يعرف موازين القوة معرفة جيدة. ويمكننا أن نرسم مخططاً متكاملًا لطيف الإدراك الصهيوني في علاقته بموازين القوى:

١- في حالة اتجاه موازين القوى لصالح العرب وضد صالح الصهاينة فإنها تدعم الإدراك الواقعي ويساهم ذلك في تبديد الأوهام الايديولوجية، ويبدأ الإدراك الواقعي في فرض نفسه. وقد يتحول إلى برنامج سياسي يعكس الواقع- أي أنه يتم ترشيد العقل الصهيوني (وفي هذا الإطار قد تتحول الشخصيات الهامشية «المجنونة» مثل اسرائيل شاهاك وافنيري إلى شخصيات قيادية. ويمكن أن تظهر أيضا قيادات سفارديه على استعداد لتعديل اسطورة الذات الصهيونية).

٢- في حالة اتجاه موازين القوى لصالح الصهاينة وضد صالح العرب فإنها ستدعم الإدراك الصهيوني المتحيز وسيساهم ذلك في أن يتحول الواقع التاريخي إلى شيء هامشي باهت ويتدعم البرنامج السياسي الصهيوني كمرشد للتعامل مع «الواقع».

ويمكن أن نفسر التطرف والاعتدال الصهيونيين في ضوء الاحتمالين السابقين. فإن ظل العربي الحقيقي ساكناً دون أن يتحدى الرؤية أو موازين القوى أصبح من الممكن قبوله كشخصية متخلفة هامشية غائبة، ويصبح من الممكن إظهار التسامح تجاهه، بل و«منحه» بعض الحقوق (وهنا تكمن المفارقة). أما إذا بدأ العربي الحقيقي في التحرك لتأكيد حقوقه ولرفض الهامشية وتحدي الرؤية

الصهيونية وجاؤل تغيير موازين القوة لصالحه يصبح مصدر خطر حقيقي ويصبح من الضروري ضربه لتهديشه وتهيشه ويصبح التسامح مرفوضا.

هذا لا يعني أننا نسقط أهمية الإدراك من حسابنا ونؤكد موازين القوى وحسب، فالواقع لا يفرض نفسه على عقل الإنسان بشكل مباشر وإنما من خلال طيف إدراكي وتساهم القوة في تقويض الإدراك أو تدعيمه، فهي علاقة مركبة إلى أقصى حد . ولذا يجب أن نعرف تماماً أننا نعيش في عالم ليس من صنعنا وهو عالم يؤمن بالحواس الخمسة وبكل مايقاس، ولا يعترف كثيراً بالحق أو الخير أو الجمال. ولذا لابد وأن نضغظ على حواس أعدائنا الخمسة بكل ما أوتينا من قوة حتى يعرف الآخر أن العربي الحقيقي ليس مجرد صورة في وجدانه يمكنه تناسيها، وإنما هو قوة واقعية يمكن أن تسبب له خسارة فادحة إن هو تجاهلها أو حاول تهديشها وتهيشها.

ولعل هذا هو القصور الأساسي في محاولات التوصل للسلام في إطار كامب ديفيد. فقد ظن مهندسو هذه الاتفاقية أنهم عن طريق رفع رايات السلام سيغيرون صورة العربي في وعي العالم، وأن هذه الصورة ستخلق دينامية تفرض على الاسرائيليين أن يصلوا إلى اتفاق عادل أو شبه عادل. ولكن الذي حدث عكس ذلك تماماً. فبعد الأسابيع الأولى وبعد أن طويت عدسات التليفزيون الساخنة ظهرت حسابات القوة الباردة التي فرضت منطقتها الثلجي البارد القاسي على الجميع.

وقد جاء في مجلة نيورويك الأمريكية أنه بعد أن قبل الرئيس السادات بشروط كامب ديفيد كما فرضها بيجين، طلب تخصيص رقعة ما في القدس ترفع عليها الأعلام العربية حتى تكون «غنيمة أخرى» يعود ليتباهى بها، وكان تعليق أحد أعضاء الوفد الاسرائيلي هو أن تُرفع الأعلام علي المقابر العربية («سلام المقابر الذي لم يردده وايزمان لنفسه»). أما ديان فقال "السادات يريد بقشيش" أي أنه نظر إلى الرئيس السادات من خلال الطيف الإدراكي الصهيوني وحوله إلى إنسان متخلف هامشي، شحاذ ليس له حقوق، يمكن أن «تهبه» شيئاً إن أردت من قبيل

الاعتدال الصهيوني . وقد كان ديان أكثر واقعية من الرئيس السادات، فحسابات القوة الباردة في عالمنا لا تعرف الحق والحقيقة. ولو كان هناك وراء السادات دبابة عربية، تقف شامخة جميلة، لما رآه ديان شحاذاً يقف على عتباته.

ومرة أخرى رغم معرفتي بمنطق القوة لا أكن له حياً ولا احتراماً، ولكنني كما قلت في عالم ليس من صنعنا، وهو عالم قبيح صنع أساساً في الغرب في القرن التاسع عشر، وإن أردنا التعامل معه بكفاءة علينا أن نقيمه تقييماً موضوعياً. ومع هذا أعتقد أنه يجب ألا نرفض فكرة الحوار مع الآخر. فالآخر موجود الآن في وسطنا، ومدجج بالسلاح، ولذا أطالب دائماً بالحوار المسلح- حوار يمكنني من فهم الاسرائيلي الحقيقي ويمكنه من فهم العربي الحقيقي. ولكن الحوار بدون سلاح قد يطرح صورة إدراكية صادقة ولكنها معرضة للشحوب ثم الاختفاء لأنها تساندها القوة. ولذا يجب أن تستند بنية الإدراك لبنية القوة، وحينئذ قد يتحول الإدراك إلى فعل فاضل، وتتحول الحقيقة إلى عدل.

(١) تم إقتباسه في :

عبدالوهاب محمد المسيرى،_الأيديولوجية الصهيونية: دراسة حالة
في علم اجتماع المعرفة (الكويت، سلسلة عالم المعرفة اصدار المجلس
الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٩٨٢-١٩٨٣)، انظر خاصة الفصل
الثاني عشر.

(٢)- بن عيزر، ص ١٨٣ .

(٣)- المصدر نفسه، ص ٢٤٥ .

(٤)- المصدر نفسه، ص ٣٠٤-٣٢٥ .

(٥)- ידיעות أحرونوت ٢٠ ديسمبر ١٩٧٤ .

(٦)- روبنشتاين، ص ٦٧ .

(٧)- ידיעות أحرونوت ١٧ أكتوبر ١٩٦٩ .

(٨)- روبنشتاين، ص ٦٧ .

٢- الإدراك الاسرائيلي للدولة الفلسطينية

وصفنا المتصل الإدراكي الصهيوني الاسرائيلي فى الدراسات السابقة، وبيننا أن هذا الإدراك يصل لحظة تحققه النماذجيه فى التغيب الكامل ، وهذا هو الحلم الصهيوني فى لحظة تحققه الوهمية وفى حده الأقصى ورغم أنه حلم، إلا أنه يشكل البنية التحتية لكل أفكار ومواقف الصهاينة الأخرى، ولا يمكننا أن نصف الاختلافات والتفرعات الأخرى إلا بأخذ هذه النقطة فى الاعتبار. ويجب التأكيد على أن الأفكار تلعب دوراً أساسياً فى تحديد سلوك المستوطن فى الجيوب الاستيطانية بشكل يفوق الدور الذى تلعبه فى تحديد سلوك المواطنين فى التشكيلات السياسية العادية. ففكرة القومية الفرنسية تحرك الجماهير الفرنسية وفكرة القومية اليونانية تحرك الجماهير اليونانية، ولكن القومية الفرنسية ليست مجرد فكرة أو مشروع قد يفشل أو ينجح، وإنما هو واقع تاريخى ممتد ترجم نفسه إلى مؤسسات وتراث، ولم يعد من الممكن وضع وجوده ذاته موضع تساؤل. كما أن الفرنسيين ليسوا مهددين بشعب آخر كان يشغل أرضهم ولا بتاريخ آخر كان يشغل الحيز الزمانى فى وطنهم، وبالتالي تكون فكرة القومية بالنسبة لهم مجرد تعبير عن واقع قائم راسخ، متعين مركب. أما بالنسبة للجيوب الاستيطانية فهى عادة تستند إلى فكرة هى فى الواقع كذبة تاريخية كبرى (إن السكان الأصليين غير موجودين)، وهذه الفكرة ليست واقعاً قائماً وإنما إطاراً عقلياً وعاطفياً. ولذا نجد أن هذه الفكرة (الحلم - الوهم) تلعب دوراً حيويًا فى تحديد علاقة المستوطن مع واقعه، بل ونجدها فى كثير من الأحيان تحل محل الحقيقة.

ومع هذا تظل الحقيقة التاريخية قائمة، ويخرج المستضعفون والمغيبون من الغابات والقرى ومن بين شقوق الأرض فيظهرون على شاشات التليفزيون وعلى شاشة الوعى ويقبعون فى أحلام الظالم الذى ظن أنه قد غيبتهم وإلى الأبد - فيتقلص الوهم أو يتبدد. وبدلاً من العربى المغيب يبدأ بعض المستوطنين بالحديث عن إمكانية التعايش مع السكان الأصليين مع إعطائهم حق تقرير المصير المحدود.

وبتزايد الضغط، قد تظهر قطاعات توسع من نطاق هذه الحدود، فيتحدثون عن حق تقرير المصير الكامل، ولكن المشروط بنزع السلاح، وهناك من يقبل بدولتين متساويتين فى السيادة القومية وهكذا. وهناك أخيراً (كما أسلفنا) من يصل إلى تقبل العربى الحقيقى ويدرك تماماً أن تاريخ فلسطين إنما هو تاريخ عربى، وهو فى هذه الحالة يخرج على المشروع الصهيونى ذاته ويصبح معادياً للصهيونية، رافضاً لها.

الحد الأقصى الصهيونى

ولنحاول الآن دراسة نماذج من التفكير السياسى الاسرائيلى بخصوص فكرة الدولة الفلسطينية. هنا سنجد أفكاراً متضاربة عديدة واقتراحات لا حصر لها ولا عدد تقع على درجات مختلفة من المتصل الإدراكى الذى اقترحنه. ولتبسيط الصورة حتى يمكن تناولها بشيء من التحليل سنقسم المواقف إلى ثلاث يقترب أولها من الحد الأقصى الصهيونى أى تغييب العرب ويكاد يلتصق به، ويبتعد ثالثها عنه حتى يبدو وكأنه نقيض، ويقف ثانيها فى نقطة اعتبارية متوسطة بينهما. وقد اخترنا شموئيل كاتس - أحد مؤسسى حركة حيروت والذى شغل منصب مستشار رئيس الوزراء مناحم بيجين عام ١٩٧٨ كممثل للنموذج الأول^(١). وليعبر كاتس عن وجهة نظره يقتبس كلمات بن جوريون الذى يشير فيها إلى «تاريخ اليهود» وإلى «بلاد اسمها يهودا وهى التى نسميها أرض اسرائيل... إن هذه البلاد جعلت منا شعباً، وشعبنا خلق هذه البلاد. ويضيف كاتس: «خلال مئات السنين هذه التى تخللتها عمليات قتل وطرد وتميز ومستوى معيشى سىء لم يتأثر الوجود اليهودى فى فلسطين ولم يتخل اليهود عن عاداتهم وتقاليدهم».

وخلال هذه الفترة «لم يتأثر التراث اليهودى كما لم تتأثر الثقافة اليهودية أى اللغة العبرية التى بدء باستعمالها فى القرن العاشر فى طبريه». ونحن لن نحاول تنفيذ هذه الأفكار الصبائية أو الرد عليها فهى من التفاهة بحيث لا يصح أن ينشغل المرء بها إلا بمقدار كونها مؤشراً على حدود صاحبها الإدراكية. وكاتس لا يرى

سوى حضور يهودى كامل وثابت عبر التاريخ يقابله غياب عربى كامل. ويقتبس كلمات كاتب أمريكى، هو مارك توين، الذى زار فلسطين سائحا، للدلالة على رأيه وكأن مارك توين هو أحد كبار مؤرخي المنطقة العربية: «لقد وجدنا البلاد خالية تماماً (عام ١٨٦٧) لا أثر للحياة فيها. . ولم نجد فى الطريق أية روح حية، وكانت أرضهم إسرائيل أرضاً جرداء وكأنها لاتتنمى إلى هذا العالم».

ويستمر شموئيل كاتسل فى التغييب فينكر حتى وجود العرب ككل، أما البشر الذين وجدوا فى فلسطين فهؤلاء مهاجرون من البلاد المجاورة (عناصر متحركة يمكن تحريكها مرة أخرى). ولذا فهؤلاء الذين يطالبون بأرض إسرائيل ليسوا سوى مدعين عرب وإرهابيين فلسطينيين. وهو يختم مقاله بعبارة تصل إلى البنية التحتية لكل الأفكار الصهيونية: «إذا انتصر العرب فى الحرب فإن الدمار سيلحق شعب إسرائيل كله، أما إذا انتصرت إسرائيل فسيكون على العرب الرضوخ للأمر الواقع وتقبل إسرائيل».

ويلاحظ أن حل الصراع العربى - الصهيونى من المنظور الاسرائيلى لا يتم إلا من خلال الصراع المسلح - الانتصار أو الهزيمة والخضوع للشروط الإسرائيلىه وللسلام على الطريقة الاسرائيلية.

الاعتدال الإسرائيلى

أما النموذج الثالث فيمثله مثير بعيلى وهو من نشيطى مابام، ومن المنادين بالصهيونية ذات الديباجة اليسارية. وأطروحاته العقائدية وإطاره التاريخى لا يختلفان عن أطروحات وإطار كاتس، فهو يعرف الحركة الصهيونية بأنها حركة تحرر وطنى، أى حركة تغييب للفلسطينيين. وقد امتازت الصهيونية «بأنها ضمت يهوداً من مختلف الاتجاهات والميول الذين رأوا بأعينهم هدفاً مشتركاً وهو جمع شتات الشعب اليهودى وبناء أمة يهودية متجددة على أساس العمل العبرى فى أرض إسرائيل». فبعيلى ينطلق إذاً من الإيمان بأن للشعب اليهودى حقوقاً تاريخية كاملة

فى أرض إسرائيل . ثم يفسر بعيل وجود الشعب الفلسطينى فى أرض فلسطين على أساس صهيونى . «فلولا قيام الحركة الصهيونية لما ظهر الفرع الفلسطينى التابع للحركة القومية العربية . ويمكن الاعتقاد بأن مجيء اليهود الى أرض إسرائيل واستيطانهم فيها كان هو الحافز الذى أدى إلى نشوء الكيان الفلسطينى» . بل إنه يؤكد أنه «من الصعب أن نتصور اليوم كيف كانت ستبدو الأوضاع فى أرض إسرائيل لو لم يتحقق فيها الفكر الصهيونى» .

فوجود الفلسطينيين - حسب تصوره- عرضى ، ولكنه - وهنا مصدر الاختلاف بينه وبين كاتس - ليس بالضرورة رائل ، فهو يرى أن بعض الصهاينة قد اعترفوا بحقوق الشعب الفلسطينى «بصفته يمتلك حقوقاً طبيعية فى بلاده» . ولا ندرى ما هو الفارق بين حقوق اليهود التاريخية وحقوق العرب الطبيعية ، ولكن ما يهمنا فى سياق هذا المقال أن ثمة اعترافاً ما بوجود العرب وبحقوقهم . وهذا الاعتراف نابع من خوف عميق أن العنصر الفلسطينى داخل الدولة الصهيونية يهدد هويتها اليهودية ويهدد الطبيعة الإحلالية للكيان الصهيونى ، بل إن بعيل يطرح السيناريو التالى : «هناك مخاوف من أنه إذا استمرت سيطرة إسرائيل على الضفة الغربية وقطاع غزة سوف تشتد حدة المقاومة الفلسطينية للاحتلال الاسرائيلى ، لتصل حمى المقاومة إلى العرب الإسرائيلىين المقيمين فى المثلث الصغير وفى الجليل بحيث يطلب عرب إسرائيل بعد جيل أو جيلين الانضمام إلى المطالبين بحق تقرير المصير للفلسطينيين» .

ولكن كيف يمكن التصدي لهذا التيار ولتلك الحمى ؟ يرى بعيل «أن ذلك يتم من خلال إقامة دولة فلسطينية إلى جانب إسرائيل . وكلما سارعت إسرائيل فى تقديم مبادرة السلام المقترحة للشعب الفلسطينى كلما كان أفضل لها» . ثم يأتى بعد ذلك بخشد هائل من التفاصيل عن الجمارك والكهرباء وعن ارتباط الدولة الجديدة بالأردن ، إذ لابد وأن تولد الدولة مقيدة ، ليس لها من الدولة غير الاسم .

أرض فى مقابل السلام

ويمكننا اختيار شلومو افيرى كمثال على النموذج الثانى . وافيرى من كبار المفكرين الاسرائيليين وشغل منصب مدير عام وزارة الخارجية فى حكومة العمال بين عامى ٧٦ - ١٩٧٧ . وهو يتحدث أيضا عن أرض إسرائيل ذات التراث اليهودى المجيد وأرض الخلاص بالنسبة لليهود . والصهيونية هى الحركة القومية اليهودية التى ستقوم بعملية الخلاص هذه (وهو فى واقع الأمر تخليص الأرض وتغيب أصحابها الأصليين، أى العرب). وهو يرى أن المطالب الصهيونية فى كافة مناطق أرض إسرائيل مطالب عادلة، ولكن الحركة الصهيونية رضخت لقرار التقسيم لأن «أحداً فى العالم لم يكن يؤيد المطالب اليهودية» . ثم يضيف إلى هذا ديباجات أخلاقية عن «أن الصهيونية تجد صعوبة فى المطالبة بحق تقرير المصير لنفسها ، ومعارضة منح هذا الحق لفئة سكانية أخرى» . ويسمى افيرى نفسه بأنه من أتباع الصهيونية السوسولوجية (فى مقابل صهيونية الأراضى) وصهيونيته تهتم بالطابع اليهودى للدولة، أما صهيونية كاتس فهى تركز اهتمامها على ضم الأراضى ، ومن هنا حديث «المعتدلين» عن الأرض فى مقابل السلام . ولكن مهما كانت الأسباب ، (الضغوط الدولية أم عذاب الضمير الصهيونى أم الخوف على الطابع اليهودى للدولة) فإن افيرى يطرح الحل التالى الذى يسميه حلاً وسطاً : «لا دولة إسرائيل الكاملة ولا دولة فلسطينية مستقلة فى الضفة الغربية وقطاع غزة، بل استبعاد بعيد الأثر لقبول الحيل الوسط فى إطار حل أردنى - فلسطينى» . ولعل هذه النماذج الثلاث تغطى كل الاتجاهات السياسية الإسرائيلية تجاه الدولة ويقع اختلاف طفيف فى البدليات الخاصة فى كل من إيملونيم والليكودا ويتبعان للنموذج الأول لينمنا، تتبنى لبن عيضا الأحزاب الصغيرة اللبيرالية وما ينام النموذج الثالث، وينسب المعراج للنموذج الثانى :-

خصوصية الإدراك الإسرائيلي

بعد أن رسمنا خريطة الإدراك الإسرائيلي لفكرة الدولة الفلسطينية وارتباطها برؤية الذات ورؤية الآخر لابد وأن نوضح بعض النقاط الأساسية، كمحاولة لتوضيح المزيد من الأبعاد الخصوصية:

١ - يُلاحظ أن جميع الصيغ الصهيونية، المتطرف منها والمعتدل، اليميني منها واليساري، لا يتوجه البتة لقضية الفلسطينيين الذين طُردوا عام ١٩٤٨ واستوطنوا سوريا ولبنان والأردن ومصر وأنحاء أخرى متفرقة من أنحاء العالم العربي، وهو لا يذكر بتاتا قضية الفلسطينيين الذين يطالبون بحقوقهم في حيفا ويافا وعكا وكل بقعة في أرض فلسطين المحتلة والذين صدر قرار من هيئة الأمم لتأكيد حقهم في العودة إلى ديارهم أو التعويض لمن لا يريد العودة.

٢- لا يتحدث الصهاينة البتة عن الأراضي خلف الخط الأخضر التي خصصها قرار التقسيم للفلسطينيين مثل الجليل وغيرها من المناطق. وهكذا حول الخطاب الصهيوني الخط الأخضر إلى مطلق صهيوني جديد لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وعلينا الرضوخ والقبول. وهذا أيضاً أمر منطقي ومفهوم، فالتفاوض بشأن الأراضي فيما وراء الخط الأخضر وبشأن حق العرب في السكنى في فلسطين المحتلة قبل ١٩٤٨ هو في واقع الأمر تفاوض بشأن فك الكيان الصهيوني. وعلينا أن نعي ذلك تماماً، فعدونا يعيه وإن كان لا يتحدث عنه.

٣ - يلاحظ أن كل الحلول مبنية على فكرة القسر والرضوخ، وأن أحد الأطراف سيضطر الطرف الآخر للتسليم بوجهة نظره. فالصهاينة يرون أن رؤيتهم للتاريخ هي الرؤية الوحيدة السليمة التي لا يمكن التراجع عنها على مستوى العقيدة حتى لو تم التراجع عنها على مستوى الإجراءات البرجماتية. وقد لخص ذلك الموقف أهارون ياريف بقوله: «الصهيونية هي حركة التحرر الوطني للشعب اليهودي..»

اصطدمت بالحركة القومية العربية عامة والحركة القومية الفلسطينية خاصة». ولكنه يضيف: «إن أقوالى هذه لاتنطوى على تنازل أو استعداد للتنازل عما نعتبره حقنا التاريخى فى إرتس إسرائيل وفى علاقتنا التاريخية بها». هذا الموقف المبدئى السائد فى صفوف الجميع يخلق استعداداً كامناً دائماً لدى كل الصهاينة، مهما كان موقعهم على خريطة المتصل الإدراكى السياسى، أن ينزلقوا دائماً نحو تغييب العرب وإنكار حقهم فى إنشاء دولة حقيقية خاصة بهم إن سنحت الظروف، كما أنه يضيف صيغة الشرعية على موقف دعاة إسرائيل الكبرى. فالأصل فى الموقف الصهيونى هو ابتلاع كل الأرض وتغييب كل العرب، والاستثناء هو المرونة والاستعداد للتفاوض بشأن الأرض خارج الخط الأخضر وبشأن الفلسطينيين خارجه. ولعل هذا يفسر كيف أن الاستيطان الصهيونى فى الضفة الغربية قد بدأ إبان حكم العمال المعتدلين وأنهم اعتمدوا ملايين الدولارات لإنشاء مستوطنات هناك فى نفس الأرض التى بدأ بيريز بالإعلان عن استعداده للتنازل عنها فى مقابل السلام.

٤ - لابد وأن نحدد خصوصية علاقة الإدراك الاسرائيلى للفلسطينيين ولفكرة الدولة الفلسطينية بالسلوك الاسرائيلى، فهى علاقة مركبة لأقصى حد، تختلف عن علاقة إدراك العربى للدولة الصهيونية وسلوكه نحوها، اذ أن محددات سلوك العربى نحو الدولة الصهيونية مختلفة عن محددات سلوك الصهيونى نحو الدولة الفلسطينية:

أ - ومن أهم العناصر التى يجب ذكرها ابتداءً أن الحركة الصهيونية منذ نشأتها حركة تفتقد إلى الجماهير، فهى رأس دون جسد، ورؤية دون تجسد، وهذا يعود لأسباب تاريخية عديدة من أهمها أن الجماهير اليهودية فى شرق أوروبا أثرت الهجرة إلى الولايات المتحدة على الهجرة إلى فلسطين.

ولا تزال الحركة الصهيونية حتى الآن تعاني من هذه الظاهرة التى يعبرون عنها بعبارة «نضوب المصادر البشرية». ولكن ما يهمنا فى هذا السياق أنه

بغيا ب الجماهير كان المنظرين الصهاينة يحددون أطروحاتهم النظرية دون أخذ الواقع التاريخي (سواء واقع الجماعات اليهودية في العالم أو واقع فلسطين) في الاعتبار. فنجد هرتزل يسجل عبارة «من النيل الى الفرات» في مذكراته. ولكنه في اليوم التالي يقبل بالتنازل عنها، ويرضو. بصيغة برجماتية: «كلما زاد عدد المهاجرين تزداد رقعة الأرض التي نستولي عليها». ثم لم يكن عنده مانع من الانتقال إلى شرق أفريقيا. بل أن يورى افيرى يرى أن التوسعية الصهيونية لم تعد مرتبطة بأى إدراك صهيونى أو مخطط رهيب أو غير رهيب، وإنما أصبحت مرتبطة بقوة إسرائيل الذاتية وبما يُطلب منها من القوة الاستعمارية التي ترعاها. فما يحدد سلوك الصهاينة ليس إدراكهم أو رؤيتهم وحسب وإنما أيضا وبالدرجة الأولى قدرتهم الذاتية المستمدة من الدعم الإمبريالى، ويمكن أن نضيف ومدى قوة أو ضعف العرب.

ب - اعتمدت الحركة الصهيونية ثم الدولة الصهيونية على دولة عظمى تضمن لها البقاء وتحقق لها الأمن نظير أن تقوم الدولة الصهيونية على رعاية مصالحها في الشرق الأوسط. وقد ارداد اعتماد الدولة الصهيونية على الولايات المتحدة لدرجة غير عادية، حتى أنه يمكن القول أن الولايات المتحدة أصبحت طرفاً في العقد الاجتماعى الذى يستند إليه التجمع الصهيونى. هذا يعنى أن الإدراك الصهيونى للدولة الفلسطينية ليس هو العنصر الوحيد الذى يحدد سلوك الصهيونى، فالولايات المتحدة، التى تقع خارج نطاق هذا الإدراك، تحدد سلوك الصهاينة بشكل قد يكون أكثر فعالية من الإدراك ذاته.

لكل ما تقدم يجب أن نكون فى انتهى الجذر حين نرصد التغيرات التى تدخل على الإدراك الصهيونى لفكرة الدولة الفلسطينية. فيما يقال إنه تشديداً قد لا يكون تشديداً على الإطلاق، وما يسمى بالاعتدال قد لا يكون إلا تعبيراً عن الثقة بالنفس والصلف، بل إننى أعتقد أن تصاعد الضغط العربى على الجيب الصهيونى سيؤدى

إلى التشدد فى بداية الأمر، فهذه هى طبيعة المجتمعات التى تستند الى رؤية فاشية، فهى تزداد صلابة وتمركزاً وتمحوراً مع تزايد ضغط التاريخ على الأسطورة. ولكن هذا التشدد فى حد ذاته قد يكون مؤثراً على تزايد التوترات داخل الكيان، وبالتالي احتمال ترشيده أو ترشيد بعض القطاعات داخله. والعكس صحيح، فحينما يركن العرب للنوم ويخلدون للراحة ويظهرون استعداداً للمرونة والاستسلام للسلام بالشروط الصهيونية فإن العدو على استعداد لأن يمنحنا بعض الحقوق المدنية ويظهر تفهماً لبعض «مطالبنا العادلة» مثل حرية لعب كرة السلة أو كرة الطاولة أو أية كرة نشاء داخل ملاعب حرة مستقلة تابعة لبلديات فلسطين لا مخالف لها ولا أظافر.

فالاعتدال الصهيونى قد يكون مؤشراً على التخاذل العربى، اذ لا يمكن الاعتدال مع العربى الحقيقى، أما هذا الكم الهامشى المهمل الذى يقف على عتبات العدو يطلب منه الغفران والرضا، ويتحدث عن سنخافورة باعتبارها المثل الأعلى، فى حالة هى أقرب الى الغياب منها إلى الحضور، فهذا يمكن ممارسة التسامح والاعتدال معه.

(١) كل النصوص مستقاة من كتاب هلى يوجد حل للقضية الفلسطينية؟ الذى أعدته معهد فبإنليير. فى اسرائيل، ونشرته دار الجليل ترجمته فى عمان (الأردن)، ١٩٨٦

٣- الإدراك الإسرائيلي للانتفاضة

فى الفصول الأولى لهذا الكتاب حاولت تقديم خريطة الإسرائيلين الإدراكية للعرب وتأخذ هذه الخريطة - كما أسلفنا- شكل طيف إدراكى يبدأ بالعربى الحقيقى الذى يزرع ويحصد ويقاتل ويخلق أشكالاً حضارية. ثم تتحرك الخريطة نحو درجات متزايدة من التجريد ابتداء من العربى المتخلف إلى العربى ممثلاً للاغيار مسئولاً عن كل ما حاق باليهود من مأسى ووصولاً إلى محاولة تهيمش (ومن ثم تهشيم) العربى، وفى نهاية الأمر تغييبه تماماً - عملاً بالمقولة الاستيطانية الإحلالية: أرض بلا شعب. وكما يرى القارئ لم أقنع باستيراد مقولات العنصرية الغربية الإدراكية وطبقته على الصهيونية ولم أحاول أن أدلل على أنها «عنصرية» وحسب، وإنما حاولت أن أصوغ مصطلحات عديدة تتماثل مع ما أسميه «المنحنى الخاص للظاهرة»، أى سماتها الخاصة المتعينة كما أدركها وكما أخبرها لا كما يتفق مع إدراك عمومى مجرد. والظاهرة التى أمامنا ليست ظاهرة استعمارية وحسب ولا حتى استيطانية وحسب وإنما هى أيضاً ظاهرة إحلالية تستخدم اعتذاريات أو ديباجات يهودية. ومجموعة المصطلحات التى استخدمتها فى دراستى الآنفة يمكنها التعبير عن استعمارية الصهيونية واستيطانيتها وإحلالتها، وعن مزاعمها اليهودية أيضاً، وعن كيف يعبر كل هذا عن نفسه فى إستراتيجيات إدراكية واضحة.

الحجارة والإدراك

وإذا ما حاولنا أن نرصد استجابة المستوطنين الصهاينة للانتفاضة لقابلنا مرة أخرى النموذج المعرفى الغربى الذى يعبر عن نفسه فى هيكل المصطلحات، ولوجدنا أن هناك مقولتين اثنتين وحسب: الاعتدال والتشدد واللذان يشار لهما بالحمايم والصقور. وهذه طريقة متعسفة للغاية للرصد، ولعلها تعود إلى تبسيطات النموذج المادى الإدراكى الذى يحول الإنسان المركب إلى مادة بسيطة ثم ينظر لها من الخارج كما لو كانت مجرد حركة دون دوافع أو وعى. وتميل التصنيفات المادية

إلى تصنيف الواقع بأسره إلى سالب وموجب . وقد قام أحد كبار المعلقين السياسيين العرب بكتابة مجموعة من المقالات عن أثر الانتفاضة على المستوطنين الصهاينة ، فقام بحصر عدد المصابين فى المستشفيات والجرحى وكمية الأحجار المستخدمة، وكأن هذا هو «الأثر» الذى أحدثته الانتفاضة، مع أنه فى دراسته هذه لم يزد عن تسجيل واقعة إلقاء الحجارة فى شكلها الخارجى - كحجر يخرج من يد عربى ويستقر على رأس إسرائيلي ، دون أن يذكر ماذا حدث للعربى (من إحساس بالانتصار) وكيف استجاب المستوطن الصهيونى لهذه الواقعة . وهى استجابة يمكن أن تأخذ شكل تشدد أو اعتدال أو تشدد علنى يخفى اعتدالاً فعلياً أو خوفاً يدفعه للفرار أو رفضاً لاستيعاب الموقف . فالحجر فعل لا يحدد استجابة المصاب وإنما يحدده مركب من العناصر النفسية والتاريخية . إن عدد المصابين الاسرائيلين حقيقة مباشرة مصمته ليس لها دلالات حقيقية فى حد ذاتها - فالإنسان الذى يصاب بحجر فى رأسه يمكن أن ينهار ويمكن أن يتحول إلى وحش كاسر ويمكن أن ينال شيئاً من الحكمة والرشد حينما يرتطم الحجر برأسه . ومن الصعب أن يفى مصطلحان اثنان (حمائم وصقور) فى محاولة وصف هذه الاستجابات المتداخلة العديدة .

حمائم وصقور وطيور إدراكية أخرى

سأحاول توسيع هذا النموذج الإدراكى بما يتفق مع تركيبة الظاهرة الصهيونية وأضم للحمائم والصقور الدجاج والنعام (وتنويكات أخرى) . والحمائم كما يقال مسالمة دئماً، والصقور يُفترض فيها أنها عدوانية شرسة . وأما الدجاج فهو -حسب رأى الخبراء -متخصص فى الهرب، ويجيد النعام فن دفن رأسه فى الرمال . وأعتقد أن النعام هو أكثر أنواع الطيور الإدراكية انتشاراً فى المستوطن الصهيونى خاصة بعد الانتفاضة، وإن كان لا يعدم الأمر وجود عدد كبير من الدجاج الذى يتحدث كالصقور، وتوجد قلة نادرة من الحمائم ليس لها وزن كبير (على عكس ما تصوره الاستعارة الشائعة)، وإن كان يوجد عدد كبير من الصقور التى تتحدث

كالحمائم . ويقول الدكتور قدرى حفى: إن اليهود الشرقيين مثلاً هم حمائم تود أن تكون صقوراً لتثبت إخلاصها للنخبة الحاكمة الاشكنازية . وقد أسقط المعلقون السياسيون كل التدرجات والتداخلات من إدراكنا لأن نموذجهم المعرفى كان قاصراً ساذجاً يحوى مقولتين اثنتين تم استيرادهما من علم السياسة الغربى أو من الصحافة الغربية التى تتمتع باحترام شديد بينهم ، ولذا لم نر الدجاج أو النعام ولا عشرات الطيور الإسرائيلية الأخرى القابعة التى تنتظر من يكتشفها ويرصدها ، وقد أصبحنا وكأننا ننتمى إلى واحد من تلك القبائل البدائية التى لا ترى سوى لونين اثنين لأن لغتها لا تضم سوى كلمتين اثنتين للتعبير عن كل الألوان .

حمائم بالقوة

وقد وجهت صحيفة حداثوت سؤالاً إلى عدد من الإسرائيلين البارزين الذين يمثلون مختلف التيارات السياسية والثقافية . يقول السؤال : ماذا كنت تفعل لو كنت فلسطينياً؟ فجاء رد معظمهم بأنهم كانوا سيفعلون ما يفعله الفلسطينيون الآن ، أى الانضمام للانتفاضة . بل وأضاف أحدهم أنه «كان سيفعل أكثر من ذلك بعشرة أضعاف ، وقبل هذا الوقت بكثير . وكنت سأفعل ذلك فى ديزنجوف (أحد شوارع تل أبيب الرئيسية) بدلاً من نابلس . فهناك سيكون تأثيره أقوى» . وهذا التصريح لا يؤدى بالضرورة إلى سلوك حمائمى ، فموشيه ديان كان مدركاً تماماً «لعدالة» المطالب العربية ، وأن العرب سيثورون حتماً ويقاثلون ضد الصهاينة . ولكن مثل هذا الإدراك لا يؤدى بالضرورة إلى الانحياز للمظلومين المنتفضين ، إذ ما يحدد السلوك النهائى ليس الإدراك وحسب - كما أسلفنا - وإنما موازين القوى أيضاً ومجموعة هائلة من العناصر الأخرى المادية والمعنوية . فإن كان العربى ضعيفاً خاملاً ، فإن إدراك «عدالة» مطالبه قد يؤدى إلى مزيد من التشدد لأن صاحب المطالب العادلة قد يتحرك فى أية لحظة للحصول عليها ، ولذا لابد من ضربه بيد من حديد قبل أن يصبح قوياً وقبل فوات الأوان . وهذا هو موقف بن جوريون وجابوتنسكى وشلوموارونسون وغيرهم . ولذا يمكن القول إن المثقفين الإسرائيلين الذى عبروا

عن تفهمهم لموقف العرب ليسوا «حمائم بالفعل» وإنما «هم حمائم بالقوة» بالمعنى الحرفي والفلسفي. وهذه الاستجابة الحمائية محصورة في أوساط المثقفين وبعض الشخصيات السياسية التي ليس لها وزن كبير، ولا أعتقد أنها تؤثر في الرأي العام الإسرائيلي أو في صنع القرار الإسرائيلي.

الدجاج

أما الدجاج فهو موجود بكثرة والحمد لله، مثل يائيل اسكيد الذي قرر في صحيفة الجير وساليم بوست (٢٥ يناير ١٩٨٨): أنه «لا يذهب الآن أحد إلى غزة سوى الحمقى المستوطنين. ولا يذهب أحد إلى الضفة إلا بسبب وجيه، سبب وجيه للغاية. فنحن خائفون». وعملية «تدجين» المواطنين على يد جنرالات الحجارة لا تزال قائمة على قدم وساق. وكما قالت الجيرو ساليم بوست (٨ فبراير ١٩٨٨) إن المستوطنين يسافرون أقل الآن، ولا يتركون الأطفال بمفردهم ولا يخرجون إلا لأمر ضرورية. وقد صرح أحد الصحفيين في صحيفة حداثوت: «إن العائلات اليهودية تشاهد جداً حاداً إذا ما أرادت السفر. وإذا ما سافر مستوطن وحده، فهو «مغامر» أما إذا اصطحب زوجته وأطفاله، فهو «مجنون».

وتؤكد مستوطنة صهيونية أن بريق المستوطنات قد خفت وحينما تمر حافلة المستوطنين بجوار مخيم عاناتا (الفلسطيني) فإنها تسرع بطريقة مجنونة لتتحاشى الأحجار. وبدأ المستوطنون يسدلون الستائر ويغلقون المداخل بعد أن كانت المستوطنة تتمتع بجو انفتاحي بهيج. «إن الوضع -كما تقول السيدة- مخيف» خاصة وأنها تعرف أن الجنود الإسرائيليين أوقفوا مظاهرة من ٦٠٠ عربي كانت متجهة نحو المستوطنة. «ماذا كان يمكن أن يحدث لنا لو أن الجنود فشلوا في إيقافهم؟ ماذا كان يمكن أن يحدث لأطفالنا؟»

بلد كلها حدود

والخاصية «الدجاجية» للمستوطنين تظهر أحياناً في محاولتهم الظهور بمظهر الصقور. فسائق الحافلة رقم ٢٥ (من القدس للضفة) يشيد بركابه من المستوطنين الذين لا يهلعون من الحجارة ويجيدون فن الاستجابة فهم كما يقول: «يتوقعون الهجوم في أية لحظة، معتادين عليه». وعندما يبدأ الهجوم فهم يتصرفون «كالجنود المدربين، على ما يجب عمله» إذ ينبطحون في أرض الحافلة. والصورة الكامنة هنا هي صورة إنسان قلق يتوقع الهجوم ويجيد فن الاختباء (الجيرو ساليم بوست ٨ فبراير ١٩٨٨).

ولنأخذ المستوطن ليمودي جنيان، كمثال آخر، فهو رجل عجوز، يهودى أرثوذكسى يعمل خياطاً، وهو صقر لاشك فيه يطالب بضرب العرب وتحطيمهم ثم يقول: «نحن نفعل ذلك عند الحدود. والأمر لا يختلف هنا (في المناطق المحتلة) فتلك حدود، وهذه أيضاً حدود. كل البلد حدود» (الهيرالد تريبون ٦ يناير ١٩٨٨). وإدراك هذا المستوطن العجوز لفلسطين المحتلة كبلد كلها حدود هو إدراك طريف للغاية يبين مدى الهلع والإحساس بعدم الأمن.

ومن أيسر الطرق لتحديد استجابة المستوطنين دراسات علماء النفس الإسرائيليين. وقد لاحظ بعض علماء النفس الأمريكيين انتشار ما سموه بأعراض فيتنام بين جنود الإسرائيليين - وهو الإحساس بالإحباط لدخولهم في حرب غير كريمة لا معنى لها، لا يمكنهم كسبها أو الانسحاب منها - فيهاجمهم اليمين الإسرائيلي لتقاعسهم ولعدم استخدامهم لمزيد من العنف، ويهاجمهم يهود العالم وبعض الحماثم الإسرائيليين لأنهم يحطمون عظام المتفضين دون أن يطرحوا عليهم البديل. وقد ذكرت صحيفة هآرتس أن نسبة المستوطنين الصهاينة الذين يرتادون العيادات النفسية قد ارتفع ثلاث أضعاف بسبب القلق الذى أصابهم من جراء استمرار الانتفاضة (الوطن ٤ أبريل ١٩٨٨). وقد عُقد اجتماع في بلدية القدس لمناقشة هذه الظاهرة فأشار مدير إحدى المدارس الثانوية إلى خوف المعلمين من

الوصول إلى مدارسهم «بسبب خوفهم الشديد من تساقط الحجارة على الحافلات وعلى رؤوس الركاب». «كما عبر مدير مدرسة آخر عن خوفه من تسرب هذا الخوف والمرضى النفسى من المعلمين والطلبة ليشمل كافة الصهاينة فى الأراضى المحتلة» (الوطن ٤ أبريل ١٩٨٨). وعلى كل ليس من السهل رصد استجابات المستوطنين ومخاوفهم بالطريقة التقليدية فقد جاء فى الجيروساليم بوست أن أحد علماء النفس الإسرائيلين صرح أنه بعد ٤٠ عاماً من الاحتلال لم تظهر أية حالات بين المرضى النفسيين تعبر عن قلقها من العرب، وكأن عملية الكبت كاملة نظراً لأن التهديد العربى كامل، ولا يمكن للجهاز العصبى للمستوطن الصهيونى أن يواجه العربى بشكل مباشر ولو على مستوى اللاوعى. وعلى كل من يحب أن يعترف أنه دجاجة؟ ولذا فمن الواضح أن نتائج بحوث الدراسات الإسرائيلية هى نتائج استخلصها الباحثون وجردوها من أقوال المرضى الذين أبى معظمهم أن يعين العرب كمصدر لمخاوفه.

النعام

أن يرفض المرء أن يكون «دجاجة» فهذه مسألة إرادية واعية، ولكن أن يتحول المستوطن إلى نعام فهذا أمر يتم رغم إرادته، ولا يلاحظها هو وإنما يلاحظها الباحث الذى ينظر إليه من الخارج.

والنعام فى المستوطن الصهيونى، كما أشرنا، كثير، مثل جاباي صاحب مطعم صغير فى مستوطنة بيسجاب زئيف الذى أسكت خوفه بقوله: «أهم الأشياء الآن أن نوقف العنف من الطرفين وأن نجلس سوياً ونشرب القهوة ونحل مشاكلنا كبشر»، وهو لم يتحدث قط عن طريق التوصل لهذا السلام وكيف سيتمكن الوصول لتسوية ما (الجيروساليم بوست ٢٠ فبراير ١٩٨٨ العدد الدولى). وقد حدد أحد الضباط الإسرائيلين هذا الموقف النعامى بدقة بالغة حين صرح لصحيفة حداثوت أن اختفاء ظاهرة الانتفاضة الشعبية الفلسطينية بعضى سحرية (أى على طريقة النعام) هو مجرد تعبير عن آمال وأوهام يجب أن يستيقظ منها الإسرائيليون (بدلاً من دفن رؤوسهم فى الرمل أو فى أرض فلسطين).

ولعل هذه العصا السحرية توجد فى أحد مبانى حزب الليكود، إذ أن شارون يقول: «إن الانتفاضة سوف تنتهى فور وصول الليكود إلى السلطة فى نهاية لعام» (الشرق الأوسط «لعبة الحبل بين عسكر إسرائيل وسياسيها» ١٢ يوليو ١٩٨٨). ولكن شارون يعنى بطبيعة الحال حمّات الدم غير السحرية. ولكن حتى لا نصنّفه نعمة كان عليه أن يقدم لنا الإجراءات، لأن حمّات الدم تؤدى أحياناً إلى تصعيد الانتفاضات والثورات، كما يعرف الأمريكيون عن فيتنام والفرنسيون عن الجزائر..

وقد وصف دانيال جفرون إدراك النعماء هذا فى مقال فى الجيرو سالييم بوست (٦ فبراير ١٩٨٨) بعنوان «لماذا الانسحاب من جانب واحد هو المخرج الوحيد» فقال: «إن المسئولين [النعماء فى مصطلحنا] يظنون أنهم سيحصلون على كل شئ دون مقابل: حدود آمنة، وعمق استراتيجى، وعمالة رخيصة، وسوق مقصورة عليه، وأرض لتدريب الجيش الإسرائيلى، وتجاهل العداوة العربية المستمرة. [لكن] ازدياد التمرد بين العرب وتدهور المجتمع الإسرائيلى الأخلاقى وتآكل وضعه الدولى» يدل على استحالة هذا. وبعد الانتفاضة ترجم إدراك النعماء نفسه إلى تركيز على الجانب الفنى لقمع الانتفاضة كما لو كانت المسألة مجرد إجراءات يتم تنفيذها أو خطوات يتم اتخاذها بحيث تتحول القضية برمتها إلى مسألة إجرائية. (هل الرصاص المطاطى ومدافع المياه كفى بالقضاء على الانتفاضة أم لا؟) دون التوجه للأسئلة النهائية. وقد اشتكى شمعون بيريز من أن الوزارة الإسرائيلىة تتحلّى بنفس الموقف الذى نسميه بالنعماء فهى تناقش النقط الدقيقة الفنية الخاصة بإجراءات الأمن وطريقة التصدى للانتفاضة وتتجاهل تماماً الحلول السياسية اللازمة. وأضاف: «فى المستقبل حينما يقرأ أحد محاضر جلسات الوزارة فإنه لن يصدق عينيه» (النويورك تايمز ٣١ يناير ١٩٨٨).

وقد كتب ب. مايكيل فى هارتس (ملحق الجمعة ١٨ ديسمبر ١٩٨٧) مقالاً بعنوان «عيد ميلاد سعيد» وصف فيه بشكل كوميدى إدراك النعماء هذا، فقال: «الحمد لله أصدرت الحكومة بياناً أكدت فيه أنه لا يوجد عصيان مدنى فى

إسرائيل». وقد اقترح الكاتب إصدار قانون باسم «قانون غياب العصيان» يقضى بمعاقبة كل من تسول له نفسه أن يدعى أو يكتب أو حتى أن يلمح بأن هناك عصياناً مدنياً». ولكن مع هذا تبقى مشكلة صغيرة وهى-ماذا يحدث هناك إذن فى المناطق المحررة من أرض إسرائيل؟». ثم يحاول الكاتب أن يصف الانتفاضة بطريقة كوميدية تقرر ما يحدث وتنكره فى ذات الوقت، أى يقول الشئ وعكسه: «ثمة مجموعات من الأطفال المدربين بعناية الذين يفتقدون إلى المبادرة، يتصرفون بتلقائية ويتم توجيههم من الخارج من قبل المنظمات الإرهابية التى لم تنجح فى اختراق المناطق؛ بسبب المعركة المستمرة التى خاضتها قوات الأمن ضدهم. ولذا يمكن أن نقرر أن هذه المنظمات وحدها وراء هذه الانتفاضة التلقائية، التى تظهر وراءها بوضوح اليد الموجهة والتى يدل وجودها على فشل منظمة التحرير الفلسطينية أن تكسب دعم الجماهير المحلية القانعة بالاحتلال الإسرائيلى لو تركت وشأنها، فالاضطرابات ليست سوى حدث عابر مستمر-ولكنها ليست عصياناً مدنياً».

إن إدراك النعام هو العنصرية الصهيونية مقلوبة حرفياً على رأسها، فالعنصرية الصهيونية تعبير عن الرغبة الصهيونية فى إحلال العنصر اليهودى محل العرب. ولذا فهى تهدف إلى تغييب العرب، ولكن إن عاد العربى بهذا العنف، وإن ظهر على شاشة الوعى ورفض الغياب، فما العمل إذن، وما الحل؟ الحل النعامى -بطبيعة الحال- أن يدفن المستوطن رأسه فى الرمل فيغييب العربى مرة أخرى. ولكن الأمور ليست بهذه البساطة هذه المرة: إذ أن العربى ممسك فى يده بحجر -والحجر يؤلم ويجرح وقد يقتل.

الصقور

وإذا انتقلنا إلى الصقور فحدث ولا حرج، فهم كثيرون، فرئيس الوزراء الإسرائيلى صرح (تايم ٣ يناير ١٩٨٨) بأنه لا توجد قوة فى العالم «لا المتظاهرون ولا الإرهابيون ولا الضغط يمكنها أن تمنع إسرائيل من الاستيطان فى كل أجزاء

أرض فلسطين، وغنى عن القول أن عملية الاستيطان لا يمكن أن تتم عن طريق الحب والإخاء والإقناع الهادئ" فالعرب ولا شك غير موافقين أن تؤخذ أراضيهم. وقد أضاف شامير (فى النيويورك تايمز ٣ أبريل ١٩٨١): أما أولئك الذين يقولون: إننا نحن الإسرائيليين غزاة، وإن قال مثيرو القلاقل والقتلة والإرهابيون: أنهم أصحاب الحقوق الحقيقية، فإننا نقول لهم من أعالي هذا الجبل ومنظور آلاف السنين من التاريخ: أنهم مجرد جراد بالقياس لنا، وكلنا يعرف ماذا يفعل بالجراد». فالاستعارة هنا تحوى داخلها مؤشرات نحو الإبادة. وقد صرح رابين (تايم ٤ يناير ١٩٨٨) بأن إسرائيل لم تستخدم كل أسلحتها بعد وأنها «ستعيد فرض الأمن حتى ولو كان موجعاً». وحسب تجربة الفلسطينيين العرب، نجد أن الأمن الإسرائيلي دائماً موجع. وقد أشار رابين إلى بعض الطرق التى يجب استخدامها لفرض هذا الأمن الموجع. فقد حذر المتفضين أن كل من يتحدى إسرائيل «سيحطم رأسه على صخور هذه القلعة وحيطانها» (النيويورك تايمز ٣ أبريل ١٩٨٨).

وصرح إسحق مردخاى «إن قوات الأمن ستتخذ جميع الإجراءات اللازمة من أجل إعادة الأمن إلى نصابه. ولن تتوانى فى استعمال جميع الوسائل من أجل تحقيق هذا الهدف». وتلجأ القوات الإسرائيلية لكسر العظام وإطلاق النار وترحيل القواد خارج الوطن. بل إن الإبداع الصهيونى فى القمع بدأ يأخذ أشكالا جديدة. فهناك ما يسمى «بحظر التجول النشط» («ليل العصى الطويلة» ليوئيل ماركوس هآرتس ٢٦ يناير ١٩٨٨) ويتلخص فى اقتحام المنازل فى الظلام أثناء حظر التجول حيث يجرى الجنود الصهاينة تفتيشاً عنيفاً داخل البيوت وينهالون بالضرب على رب العائلة والإبن الأكبر.

وقد علل قائد الجيش هذا الأسلوب الجديد فى القمع بأنه محاولة لإعادة بث الرعب من الجيش فى قلوب الفلسطينيين، فالهدف ليس النظام الخارجى وحسب، وإنما إعادة الثقة الذاتية للجنود، بعد أن أصبحوا أضحوكة طوال أسابيع. ويبدو أن اجتياح لبنان الأخير («عملية القانون والنظام» كما يسميها الإسرائيليون) تهدف إلى

نفس الشيء. فقد وصفت الصنداي تايمز هذه الحملة بأنها تشكل محاولة من جانب إسرائيل لاستعادة زمام المبادرة بعرض عضلاتها وإظهار أنها عادت إلى مقعد السائق. وقال مردخاي غور: «سيدكر الاجتياح سكان الأراضي المحتلة بأن الجيش ليس مفككاً» (القبس ١٠ مايو ١٩٨٨)، لقد أدرك العدو أنها معركة هوية.

وقد اقترح شلومو جازيت (رئيس المخابرات الأسبق) أنه يجب عدم الاكتفاء بهدم منزل الإرهابي كعقوبة، بل يجب هدم كل شيء في محيط قطره ٢٠٠-٤٠٠ متر من منزله (حداشوت ١٠ يناير ١٩٨٨). أما وزير الأديان وزعيم الحزب الديني «المفدال» فقد أكد أنه يتعين على قوات الشرطة الاسرائيلية إزالة قرية بيتا في قضاء نابلس من على وجه الأرض تماماً وإقامة مستوطنة تحمل اسم الفتاة اليهودية التي قتلت فوق أنقاضها، ويجب أيضاً طرد وإبعاد مئات المواطنين العرب من سكان القرية» (الوطن ٢٤ أبريل ١٩٨٨).

وقد أدرك رفائيل إيتان، عضو الكنيست الحالي، ورئيس أركان القوات المسلحة الإسرائيلية الأسبق بأن الانتفاضة هي الطلقة الأولى في الحرب القادمة، وعلق على دجاجة الجنود الإسرائيليين وكيف يولون الأدبار أمام الأحجار، وكيف ينظر العالم كله ليرى ذلك المنظر: «وينظر إلى جيش ضعيف وحكومة ممزقة ولا تعمل». وقد قرر إيتان أن يقدم اقتراحاته للقضاء على الانتفاضة، وهي تتسم بكل تبسيطات النماذج المادية العملية: «إذا أشعل العرب إطاراً في شارع رئيسي فيتم جر هذا الإطار إلى أقرب بيت في المنطقة من مكان اشتعاله. وخلال ثوان يخرج سكان البيت ويطفئوا الإطار؛ لأنه سيؤدي إلى حرق بيتهم إذا لم يفعلوا ذلك». واقترح أن تُمنع السيارات العربية من السير في الشارع المغلق بوساطة حاجز من الحجارة لمدة شهرين. وهذا لا يحتاج جيشاً كاملاً بل شرطيين يقفان على حافة الطريق. وأشار إيتان إلى حقيقة هامة وهو أنه بين عام ١٩٦٧ و١٩٧٧ تم إبعاد (أي تغيب) ٨٠٠ عربي محرض، (أثناء حكم المعراخ المعتدل) ويجب إبعاد ٤٠٠ - ٥٠٠ محرض، بل وإبعاد أمهاتهم وأبناء عائلاتهم. ولا يوجد أي إبداع قمعي في

اقتراحات إيتان. وعلى كل من يود أن يحصل على اقتراحات مماثلة أن يدرس تاريخ الإرهاب النازي وسيجد أفكاراً أكثر إبداعاً وأكثر منهجية وأعلى كفاءة، فمفهوم العقاب الجماعي ليس من اختراع الصهاينة وإنما هي ممارسة استعمارية غريبة قديمة وتقليد راسخ.

التشدد اللفظي

ويغوص المستوطنون أيضاً في التشدد، فمنهم من يرى ضرورة ضم القطاع والضفة تماماً. وكما قالت جريدة فرانكفورتر الجماينة: «إن معظم الإسرائيليين مع خط شامير المتشدد»، وإن «هدفهم إنهاء الوجود العربي في فلسطين»، وعندما وقع حادث بيتا (حينما وقعت مستوطنة صهيونية صغيرة صريعة رصاص المستوطنين وأشيع أنها رجمت بالحجارة) «طالب المستوطنون اليهود بتدمير قرية بيتا على رؤوس سكانها وتسوية القرية بالأرض. وشطبها نهائياً من الخريطة حتى تكون عبرة للغير» (القبس ٢٢ أبريل ١٩٨٨). ومن المستوطنين من يرى ضرورة تسوية الحساب مع العرب كما سواه الأمريكيون مع الهنود الحمر، على شرط أن يتم ذلك بعيداً عن عدسات التلفزيون (تايم ٤ أبريل ١٩٨٨).

وتبين إحدى إستطلاعات الرأي التي تُنشر في الصحف والمجلات ويلتزمها المحللون والمعقبون العرب وغير العرب أن ٤٨٪ من الإسرائيليين يرون ضرورة منح العرب حقوق مواطنين من الدرجة الثانية و ٣٢٪ غير متأكدين، ولم يوافق سوى ٢٠٪ على إعطائهم الحقوق الكاملة. وكان موقفهم المتشدد هذا نتيجة إدراكهم أنه لو احتفظت إسرائيل بالأراضي المحتلة فإن العرب سيصبحون أغلبية (وهذا إدراك ٧٧٪ بينما لم ير ١٦٪ ذلك). (نيويورك تايمز ٢٥ يناير ١٩٨٨).

لقد اقتبسنا حتى الآن كلمات الصهاينة المتشددة وحسب، ولكن يجب أن نفرق بين الأقوال والأفعال. فالأقوال لا تعبر عن الموقف المتكامل وإنما تعبر عن تشدد الإنسان اللفظي وعن نيته وقصده وعن حالته العقلية - أي عن جزء من كل.

ولدراسة مدى تشدد الإسرائيلين الفعلى وفى كليته، علينا تجاوز النية والقصد والديباجات لنرصد عناصر أخرى مركبة تتجاوز إرادة القائل ذاته، فالتشدد اللفظى، أى الموقف الصقرى الكلامى، قد يكون أحياناً بمثابة غطاء لتغطية الموقف الدجاجى أو النعامى الفعلى.

خذ مثلاً رغبة إيتان أن يمنع مرور السيارات ويكتفى بجندين يقفان على ناحية الشارع. هل درس إمكانية إلقاء الحجارة عليهما، وأن الجندين سيحتاجان إلى فرقة عسكرية كاملة لحمايتهما؟ أما بخصوص ترحيل مئات القيادات، ألا يحتاج الأمر لآليات معينة وآلة قمعية معينة لأن قاعدة هؤلاء القادة فى حالة استنفار؟ ولكن هذه الأسئلة تفترض أن صاحب الاقتراح عنده الصورة الكلية، والأمر ليس كذلك فالنموذج الإدراكى المادى يجتزئ مجموعة من الحقائق ويستبعد الحقائق الإنسانية والتاريخ، ولذا يتحول الصقر الهائج من منظور الممارسة إلى نعام مضحك. خذ مثلاً رغبة هذا المستوطن الذى يود ذبح العرب وإبادتهم بعيداً عن كاميرات التلفزيون، تماماً كما فعل الأمريكان فى تجربة استيطانية مماثلة، وهذه هى شهوة الصقور. ومع هذا بعد التدقيق نجد أن موقفه هذا نعامى تماماً، فهو يعرف أن التجربة الأمريكية الاستيطانية الإحلالية تمت ابتداء من القرن السابع عشر فى منطقة لم تكن فيها الكثافة السكانية كبيرة، تسكنها عدة «أمم» من الهنود، تتسم حضارتهم بعدم التركيب، رغم جمالها ورقتها، ومن هنا كان من السهل إبادتهم بعيداً عن عين التلفزيون الشيطانية. أما هذا المستوطن الصهيونى فقد تمت تجربته الاستيطانية ابتداء من أواخر القرن التاسع عشر فى منطقة تعج بالسكان الذين تحيط بهم ملايين من إخوانهم وهم ينتمون لتراث حضارى قديم مركب. وعلاوة على كل هذا أصبح فى وسعهم الآن الحوار مع الكاميرا وبكفاءة غير عادية، فالتشدد هنا هو من قبيل ما يمكن تسميته بالعادة السرية السياسية، والحلم بالمستحيل اللذيد.

أما الذى يود إعطاء العرب حقوق مواطنين من الدرجة الثانية رغم إدراكه أنهم أغلبية فهو لم يبين كيف يمكن تحقيق ذلك، ولعله لو طُرح عليه عدة أسئلة أخرى لظهرت التناقضات النعامية الكامنة.

ويجب أيضاً أن نرى التشدد باعتباره تعبيراً عن أزمة حقيقية وعميقة، فالصهاينة- كما أسلفنا- على استعداد لإظهار قدر كبير من التسامح حيال العربى إذا قبل هذا بالتطبيع وبأن يكون قطعة غيار للصهيونى يمكنه استخدامها وتوظيفها لصالحه. حينئذ يمكن أن يمنح العربى كثيراً من الحقوق المدنية وبعض الحقوق السياسية ويمكنه أن يلعب ما شاء من تنس الطاولة، أى أن يمارس هوايته إذا كان بلا هوية.

إن غاب العربى، وإن قنع وخنع أى لم يتحد الشرعية الصهيونية، فبوسع الصهيونى أن يتخذ موقفاً معتدلاً تجاه دجاج عربى مستأنس تم تطيعه، أما إن تحول العربى إلى صقر ذى هوية يهاجم دفاعاً عنها فإن الاعتدال يختفى ويتخلى العدو عن ديمقراطيته الغربية المزعومة، ويضرب بيد من حديد، فالتشدد من هذا المنظور له مدلولات تختلف عما تود وسائل الإعلام الغربية نقله لنا.

الشخصية القومية الإسرائيلية

مع هذا نرى أنه من الضرورى أن نحكم على التشدد الإسرائيلى فى إطار أوسع بحيث نستخدم مؤشرات أخرى مثل نسبة النزوح كمؤشر على التراخى. فالمستوطن الذى يصبح ويطالب بإهلاك العرب ثم يجرى للسفارة الأمريكية فى اليوم التالى ليحصل على تأشيرة هجرة، هو فى واقع الأمر دجاجة فى ريش الصقور. وقد أشارت زوجتى إلى أن عزوف الإسرائيلين عن الإنجاب يصلح أيضاً كمؤشر آخر على مدى التشدد والتراخى، فإذا كانت المعركة «معركة بقاء» كما يقول الصهاينة، وأنا أوافقهم الرأى، فإن من ينبج أكثر هو صاحب العزم والعزيمة. ولينظر من يشاء للنساء الإسرائيليات وللمرأة الفلسطينية «النفوض» التى تنجب الأطفال فتدخل الفرحة على قلبى وتدخل الكآبة على قلب الحسود.

ويمكننا أيضاً أن نستخدم مؤشرات أكثر مباشرة إلى المستوطنين «الذين توقفوا عن إصلاح منازلهم أو توسيعها أو زراعة حدائقها لأن المستقبل لم يعد مؤكداً كما كان من قبل». (الأهرام ٢ فبراير ١٩٨٨ عبدالعظيم حماد ومحمد الحناوى «إنتفاضة الحجارة»).

إن التشدد إذن ينصرف إلى الصياغة اللفظية وحسب ولا يصلح كمؤشر على كل السلوك، فهو دال دون مدلول، أو دال جزئي وحسب. وهنا هل يمكننا القول -على طريقة علماء «الشخصية القومية»- إن تشدد الإسرائيلين اللفظي هذا ينم عن حبهم للألفاظ وأنهم يطربون للغة، وأن لغتهم -لأنها لغة قديمة متحجرة- تفرض عليهم صيغاً لفظية لا تعبر بالضرورة عن حقيقة موقفهم؟ وأنا لست من المتحمسين لقضية دراسة الشخصية القومية هذه (خاصة وأنها استخدمت كعصا لضرب الإنسان العربى فى العقود السابقة)، إذ أننى أرى أن سمات الإنسان القومية، إن وجدت وتم تعريفها، وهذه مسألة ليست مستحيلة ولكنها فى غاية الصعوبة، فإنها عبارة عن سمات محايدة يمكن توظيفها للنهوض أو للنكوص، للخير أو للشر، وهى سمات لا تؤدي إلى هذا الموقف أو ذاك بشكل حتمى. فالسمات فى حد ذاتها لا تصلح كنموذج تفسيري لسلوك الإنسان، وإنما كمؤشر على استعداد كامن قد يتحقق وقد لا يتحقق. وأعتقد أن نفس الشيء ينطبق على الإسرائيلين، فلا يمكن القول أن الإسرائيلى شجاع بطبيعته أو أن اليهودى طماع بطبيعته وهكذا.

الإحساس بالدولة

ومع هذا نجد أن من أهم الاستجابات للانتفاضة تلك التى حاولت أن توجه النقد للشخصية القومية الإسرائيلية، وكأنهم يقولون لقد فشلنا فى تسويتها. وقد تناولت فى مكان آخر فكرة افتقاد السلطة، وهى أن اليهود عبر التاريخ لم يمارسوا قط السلطة السياسية. وقد بعث المعلقون الإسرائيليون مرة أخرى هذه الفكرة وبدأوا فى انتقاد شخصيتهم القومية من هذا المنظور، باعتبارها شخصية تفتقد إلى «الإحساس بالدولة» وعدم المقدرة على استخدام السلطة. ومن أهم الشخصيات التى ذكرت هذا الموضوع عدة مرات هو إسرائيل هاريل، رئيس مجلس المستوطنات فى الضفة الغربية والقطاع ورئيس مجلة نيكودا، لسان حال المستوطنين- فقد قال (فى مجلة نيوزويك ١٥ فبراير ١٩٨٨) إن الإسرائيلين يتصرفون كاليهود الألمان فى

الكريستال نايت أى ليله الكريستال (التي قام النازيون فيها بمهاجمة ممتلكات يهود ألمانيا وتخطيطها) «فالإندارات فى كل مكان بأن الكارثة محدقة، ولكننا أصبنا بالشلل». وقد أشار إلى ما سماه الخلل الأساسى فى الشخصية القومية، فالإسرائيليون -حسب تصوره- يفتقرون إلى الإحساس بأنهم يشكلون دولة. ثم عقد مقارنة بينهم وبين الشعوب الأخرى فقال: «فى أوروبا أو فى أى مكان آخر لا يمكن التنازل عن المطالبة بأرض لأن شعباً آخر يعيش فيها». (الجيرو ساليم بوست، إبراهيم رابينوفتش: «سحب فوق السامرة» ٣٠ يناير ١٩٨٨).

وقد كرر يحزقئيل درور نفس الفكرة تقريباً فى الجيرو ساليم بوست (٢ فبراير ١٩٨٨) إذ أكد أن «الشعب اليهودى» يفتقر إلى تقاليد الدولة، أى ممارسة الحكم، ويرى بعض المؤرخين أن هذه عقبة كأداء فى بناء دولة إسرائيل، مما يدل على أنها إشكالية حقيقية بدأت تطل برأسها.

ومن أهم الشخصيات التى تخصصت فى الشخصية القومية العربية وبين مدى قصورها وعمل مستشاراً للحكومة الإسرائيلية فى الشؤون العربية يهوشافط هركابى، وبتغير موازين القوى نجد أنه حول مبضع الجراح للشخصية القومية الإسرائيلية. فكرر ما قاله هاريل ودرور عن إخفاق الإسرائيليين فى فهم كيف يمكن للدولة أن تتصرف تجاه الدول الأخرى، وفسر هذا الإخفاق على أساس أنه نقطة قصور كامنة فى التقاليد اليهودية (الجيرو ساليم بوست ١٩ فبراير ١٩٨٨).

الإسرائيليون الذاتيون والعرب الموضوعيون

ويذهب دور إلى أنه يمكن تعويض ذلك الافتقار إلى تقاليد الدولة، الذى تعيش فى ظلاله الشخصية الإسرائيلية، عن طريق بذل جهد واع من جانب الإسرائيليين أن يفكروا من خلال التاريخ (الجيرو ساليم بوست، ٢ فبراير ١٩٨٨)، أى أن الافتقار إلى تقاليد الدولة هو ما كنا سميناه فى أوائل السبعينات رفض التاريخ أو الحلم بنهاية التاريخ -أى أن يعيش المرء داخل الأسطورة الذاتية التى لا تعكس

الواقع التاريخي بكل جدله ونتوئه ويجابه الواقع من خلال أحلامه وأوهامه وحسب. ويبدو أن هركابي هو الآخر يربط بين رفض التاريخ وهذه السمة في الشخصية القومية الإسرائيلية وإن كان يستخدم مصطلحاً مختلفاً يسميه «إضفاء طابع ذاتي على عناصر النجاح». وهو يرى أن الحركة التصحيحية الصهيونية مصابة بهذا الداء أكثر من غيرها، إذ أن أتباعها كانوا يودون أن يقفزوا على الواقع للوصول إلى الدولة. ولكنه في مكان آخر من المقال ذاته يعمم هذه المقولة على كل الصهاينة ويشير إلى أن العقل الإسرائيلي ككل مصاب بهذا المرض العضال فيقول: «إن مشكلة إسرائيل ليست سياسية دائماً - وإنما وراء سياسيه (ميتاسياسية)، وتكمن في تشوه تفكيرها الأساسي: تمجيد الوهم، والقصور في إدراك أن الواقع يتحدد بحدود الممكن، وأن ما هو غير واقعي لا يوجد ولن يوجد، وتمجيد الإرادة الطوعية أو الإرادية (Voluntarism) كما لو كانت الإرادة وحدها كافية لتحقيق الأهداف. نحن نرفض معطيات الواقع دون أن ندرك أن للعدو إرادة لابد أن تؤخذ في الحسبان، ونضع سياستنا بشكل مجرد حسب احتياجات الصهيونية كأننا نعيش في فراغ [الأسطورة المعادية للتاريخ] ونتجاهل النظام العالمي والزمن ومتطلباتها من الآخرين. وكل هذا نابع من ضيق أفق يتعارض مع التاريخ «anachronistic». هذا الوصف أي «فقدان الارتباط بالواقع» يبدو أنه «كتالوج» جاهز عند هركابي. فقد ذكر في طي نقده للشخصية العربية أشياء من هذا القبيل. ولكن الطريف هذه المرة أنه لا يكتفى بانتقاد الشخصية الإسرائيلية وإنما يرى أن الشخصية العربية لا يمكنها أن تسقط في هذه الذاتية المعادية للتاريخ، ويقول: «إن العوامل الموضوعية التي يعبر عنها أعداد العرب الهائلة واتساع أرضهم قد أنقذتهم من الاضطرار للجوء للعناصر الذاتية لضمان النجاح؛ بكل ما يتضمن هذا من تشويه للواقع... إن الاتجاه العربي هو دائماً نحو التمثيل الزمني للعناصر الموضوعية التي تضمن نجاحهم». وهذه الأقوال تفصلها مسافة شاسعة عما قاله عنا في أواخر الستينات. لقد تغير إدراك خبير الشخصية القومية العربية مع تغير موازين القوى.

أعراض باركوخبا

هذا الانغماس فى الذاتية يعبر عن نفسه -من منظور هركابى- فى اتجاه انتحارى بين الإسرائيلين. فالقضية التى تواجههم ليست أن دولتهم ستتحول إلى دولة «أبارتهيد»، (تفرقة لونية) وإنما القضية هى «أننا لن نكون وحسب»؛ إذا ما استمروا متخندقين فى الأسطورة الخاصة. ويضرب هركابى مثلاً مشابهاً وهو ما حدث لليهود إثر التمرد اليهودى الثانى ضد الرومان (١٢٥ - ١٣٢ ميلاديه). فأعضاء هذا التمرد دخلوا الحرب تدفعهم حمى ماشيحانية ترى أن نهاية الأيام (أو التاريخ) وشيكة. وقد أعلن بعض الحاخامات أن باركوخبا زعيم التمرد هو الماشياح (المسيح المخلص اليهودى الموعود). وبدون حساب موازين القوى أو معرفة مدى قوة الرومان أعلن باركوخبا وأتباعه التمرد على روما فتم القضاء عليهم وعلى ثورتهم وعلى البقية الباقية من الوجود اليهودى الهزيل فى فلسطين. ويسمى هركابى مرض الذاتية هذا الذى يؤدى إلى الانتحار، «أعراض باركوخبا» («الجيرو سالم بوست ٤ أبريل ١٩٨٨)، وهو ينصح الإسرائيلين بتغيير هذا الجانب من شخصيتهم القومية.

ولنلاحظ أن سمة قومية مثل الاتجاه الانتحارى كانت تستخدم فى الماضى لتهديدنا، والآن يبين واحد من كبار المفكرين الإسرائيلين أنها فى الواقع نقطة قصور، مما يبين أنها سمة محايدة وأعتقد أن ما يسميه هو «الاتجاه الانتحارى» هو ما أسميه أنا «الاتجاه النعامى»، وأعتقد أن الصورة التى استخدمتها أكثر دقة لأنها ليست متطرفة، ولأنها مرتبطة بصور إدراكية أخرى مثل صور الدجاج والنعام والصقور.

وقبل أن نختم هذا الفصل قد يكون من المفيد أن نشير إلى صورة شمشونية إنتحارية أخرى، وهى صورة ماسادا. إذ كان يقال لنا أن ثمة نزعة إنتحارية عند الإسرائيلين: فإن تم محاصرتهم، فهم سيدمرون أنفسهم ويدمروننا معهم تماماً كما فعل شمشون وكما فعل أسلافهم فى قلعه ماسادا، حين رفضت جماعة يهودية

حاصرها الرومان أن تستسلم لهم وفضلت الانتحار وقد استخدمت هذه الصورة الإدراكية للذات الإسرائيلية لتخويفنا وإقناعنا بضرورة التعامل مع العدو بحذر.

وقد أثبتت الأبحاث التاريخية زيف واقعة ماسادا وأثبتت الوقائع التاريخية أن هذه الأسطورة لا تشكل إدراكاً حقيقياً للذات الإسرائيلية فإنهم يبدوون كثيراً من المرونة والتكيف كما حدث أثناء حصار إحدى المواقع في خط بارليف. فقد تحدث الجنود مع قيادتهم في إسرائيل وقالوا ساخرين: «هل نتحرر على طريقة ماسادا؟» فكان الرد عملياً وواضحاً لا إبهام فيه: «لا داعى لهذا، المهم أن تظهروا بمظهر لائق أمام عدسات التلفزيون المصري».

وقد حدث نفس الشيء أثناء الانتفاضة، لم يفكر الإسرائيليون في هدم المعبد على رؤوسهم وعلى رؤوس العرب، وإنما ظهرت الدجاجة الكامنة داخلهم، لكنها أخذت هذه المرة شكل الطائرة المروحية الأمريكية. إذ يبدو أن من المناظر العالقة في أذهان الإسرائيلين صورة آخر طائرة مروحية أمريكية تغادر «سايجون» بعد الهزيمة التي لحقت بالقوات الأمريكية، وقد تعلق بها الأمريكيون. وقد ورد ذكر هذه الطائرة الدجاجية على لسان عدة متحدثين صهاينة من بينهم شارون الذي أشار إلى أنه إن لم يصمد الإسرائيليون فستأتي الطائرات المروحية وسيستقلها الإسرائيليون من سطح السفارة الأمريكية، أى أن شمشون الجبار، هذا الصقر الرهيب، هو في واقع الأمر دجاجة أو ربما ديك رومي يهرول بسرعة غير عادية نحو الدجاجة المروحية، وفي هذا فليفكر المهولون.

وبعد، هذه محاولة لرصد إستجابات المستوطنين الصهاينة للإنفاضة المباركة، وهي محاولة ترمى إلى تجاوز الثنائيات المتعارضة التي تسم النموذج الإدراكي الغربى (المادى البسيط) وتحاول أن تطرح بدلاً من ذلك نموذجاً أكثر تركيباً لأنه يستعيد الانسان الإنسان مرة أخرى ككائن حى: ظاهره غير باطنه، قوله غير فعله، وعيه غير لا وعيه، قصده غير سلوكه. هذا لايعنى الانفصال الكامل للواحد عن

الآخر فالظاهر يعبر عن جزء من الباطن ، والقول يؤثر في الفعل ويتأثر به ، والوعي يتداخل مع اللاوعي ، والقصد والسلوك يتفقان ويختلفان حسب الظروف والعوامل .

وهذا النموذج الإدراكي المركب المقترح هو وحده الذي يصلح كنقطة بدء لرصد سلوك العدو . ولعل مراكز البحوث العربية تنفض عنها التبسيطات المادية الإدراكية التي زرعت في قلوبنا الهزيمة وشوهدت رؤيتنا لأنفسنا وللآخر .

الفصل الثالث

فى الإدراك الغربى لليهود

- ١ - اليهودى كعنصر نافع داخل الحضارة الغربية
- ٢ - اليهودى كمسلم فى أفران الغاز
- ٣ - الإدراك النازى لمفهوم الحكم الذاتى
- ٤ - الإدراك الغربى والصهيونى لحروب الفرنجة
(الصليبيين)

١ - اليهود كمصدر نافع داخل الحضارة الغربية

هل يصح أن نؤسس علاقتنا مع الآخرين من منظور مدى نفعهم لنا أو حتى للمجتمع ككل؟ لاشك أن مفهوم المنفعة، حتى بمعناها المادى الواحدى، مفهوم مهم للغاية، نستخدمه دائماً فى حياتنا اليوم فى علاقتنا مع كثير من البشر، ولكننا عادة لا نطبقه على من ندخل معهم فى علاقة إنسانية مباشرة (أولية) مثل علاقات القرابة والجيرة والأسرة. فنحن نستخدم هذا المفهوم مع من ندخل معهم فى علاقة موضوعية تعاقدية، مثل السكرتير أو مضيضة الطائرة. فمضيضة الطائرة إن لم تحضر لى طعامى فى الوقت المحدد له، وإن لم تحضر لى القهوة حينما أطلبها، وإن لم تخبرنى بمواعيد الأفلام، بل وإن لم تتصنع الرقة حينما نتحدث معى، فهى لا فائدة لها، ومن حقى أن أقدم شكوى لشركة الطيران، خاصة إذا ما كنت من ركاب الدرجة الأولى (وهى مرتبة تقترب إلى حد ما من الفردوس الأرضى). ولكن حينما نحكم بعدم النفع على شخص ما، فإننا ندرك أننا نتحدث عن جانب واحد من وجوده، وهو وظيفته، وهى الرقعة العامة التى التقى معه فيها. ومن ثم فنحن ندرك، أحياناً عن وعى، وأحياناً أخرى بدون وعى، أن حكمنا لا ينصرف إلى إنسانيته الكلية المتعينة (كأب وابن يحب ويتعذب مثلنا). فمهما بلغ المرء من القسوة، فإنه لا يمكن أن يبلغ به التسطح درجة أن يظن أن الوظيفة هى الشخص، وأن أدائه لوظيفته هو وجوده وكيهونه.

الشعب الشاهد

ومع هذا هناك ظاهرة الجماعة الوظيفية، وهى جماعة بشرية يستجلبها المجتمع لتضطلع بوظائف يأنف أعضاء المجتمع القيام بها لأنها مشينه (البغاء) أو لأنهم عاجزون عن القيام بها لأنها تتطلب أدوات وخبرات معينة (الطب وقطع الماس)، ولأسباب أخرى عديدة (الاعتبارات الأمنية)، وعادة ما يُعرف عضو الجماعة الوظيفية فى ضوء الوظيفة التى يضطلع لها، وفى ضوء مدى نجاحه أو إخفاقه فى

أدائها، أى فى ضوء نفعه؛ هذا هو تعريفه وهذا هو إدراك مجتمع الأغلبية له. وقد كانت الجماعات اليهودية تضطلع بدور الجماعة الوظيفية (القتالية والاستيطانية والأمنية) فى العصور القديمة، ثم تحولت إلى جماعات وظيفية تجارية فى العصور الوسطى فى الغرب - مادة بشرية نافعة يتم قبولها أو رفضها فى إطار مدى النفع الذى سيعود على المجتمع من جراء وجودها فيه. ومما دعم من هذا الإدراك الغربى لليهود الرؤية المسيحية (الكاثوليكية) لهم باعتبارهم شعباً شاهداً، يدل وجودهم المتدننى على عظمة الكنيسة، ومن ثم ينبغى الحفاظ عليهم بسبب دورهم الذى يلعبونه فى الدراما الكونية الدينية. وقد سادت هذه الفكرة فى أوروبا الكاثوليكية الإقطاعية، فاستقر اليهود فى إنجلترا وفرنسا، فى العصور الوسطى الغربية، كأقنان بلاط (Servi Camerae regis) ومصدر نفع ودخل للإمبراطور وللطبقات الحاكمة التى كانت تستجلبهم وتوطنهم وتمنحهم المزايا والحماية والمواثيق. وكان يشار إلى اليهود أحياناً على أنهم سلع ومنقولات Chattel. وكانت المواثيق التى تمنح لهم من قبل الحكام الإقطاعيين تتحدث عن ملكية الحكام لهم (judaeos habere) وعن حق الحكام فى الاحتفاظ بهم (judaeos tenere). ويمكن القول أنه قد يكون من الأدق النظر إلى اليهود داخل الحضارة الغربية (خاصة فى العصور الوسطى) باعتبارهم أدوات إنتاج وإدارة ورأسمال لا باعتبارهم بشراً أو حتى قوى إنتاج (إن أردنا استخدام المصطلح الماركسى) وقد استقر اليهود فى ألمانيا ثم فى بولندا على نفس الأساس.

ومن أكثر الأمثلة أهمية (وطرافة) التى قد تساعدنا على فهم الطبيعة النفعية لعلاقة المجتمعات الغربية باليهود ما حدث لليهود فى شبه جزيرة أيبيريا. فقد كانت توجد عناصر يهودية كثيرة فى بلاط فرديناند وإيزابيلا، وقد لعب أحد أثرياء اليهود دوراً مهماً فى عقد القران بينهما وتوحيد عرش قشتالة وأراجون. كما قام بعض أثرياء اليهود بتمويل حرب الملكين ضد المسلمين، مما أدى إلى هزيمتهم وإنهاء الحكم الإسلامى. ومع هذا تم طرد أعضاء الجماعات اليهودية بعد سبعة شهور فقط من

إنجاز هذه العملية العسكرية التي مولها بعضهم، ذلك أن نجاحها قد أدى إلى أن دورهم كجماعة وظيفية نافعة لم يعد لازماً.

العصر الحديث

هذا المفهوم الكامن في الفكر الغربي الوسيط، ازداد انتشاراً وتواتراً ووضوحاً مع علمنة الحضارة الغربية، ويمكننا القول إن الرؤية الغربية لليهود في العصر الحديث هي إعادة إنتاج لهذه الرؤية النفعية. ولكن يلاحظ إن الديباجات الدينية ازدادت خفوتاً (إلى أن تلاشت تماماً، إلا من بعض التصريحات المضحكة عن التراث المسيحي -اليهودي). ولقد كان وضع اليهود مستقراً تماماً داخل المجتمعات الغربية في العصور الوسيطة كجماعة وظيفية وسيطة ذات نفع واضح. ثم بدأ هذا الوضع في التقلقل مع التحولات البنيوية العميقة التي خاضها المجتمع الغربي ابتداء من القرن السادس عشر وظهور الثورة التجارية، ولم يعد من الممكن الاستمرار في الدفاع عن وجود اليهود من منظور فكرة الشعب الشاهد (الدينية). فظهرت فكرة العقيدة الألفية أو الاسترجاعية (البروتستانتية) التي تجعل الخلاص المسيحي مشروطاً بعودة اليهود إلى فلسطين. ولكن هذه الأسطورة ذاتها رغم نفعيتها وماديتها الواضحة لا تزال مرتبطة بالخطاب الديني، وكان لابد من أن يتم الدفاع عن اليهود على أسس لا دينية علمانية، كما كان لابد من طرح أسطورة شرعية جديدة ذات طابع أكثر علمانية ومادية.

ويلاحظ تراجع الديباجات الدينية وبروز مفهوم المنفعة المادية في النصف الثاني من القرن السابع عشر. فتم الدفاع عن عودة اليهود إلى إنجلترا من منظور النفع الذي سيجلبونه على الاقتصاد الإنجليزي، حيث نظر إليهم كما لو أنهم سلعة أو أداة إنتاج. وكان المدافعون عن توطين اليهود يتحدثون عن نقلهم على السفن الإنجليزية بما يتفق مع قانون الملاحة الذي صدر آنذاك، والذي جعل نقل السلع من إنجلترا وإليها حكراً على السفن الإنجليزية. كما أن كرومويل فكر في إمكانية توظيفهم لصالحه كجواسيس. وقد عمل اليهود في تلك المرحلة في وسط أوروبا

كيهود بلاط (أى جماعة من الوسطاء والخبراء التابعين بشكل مباشر للبلاط الملكى الذين يشرفون على مالية الدولة وجيوشها ومواردها وعلاقاتها الدولية) وكيهود أرندا فى بولندا (مستأجرين لضياح النبلاء الإقطاعيين الغائبين فى وارسو). وهذه كلها جماعات وظيفية وسيطة يستند وجودها أيضاً إلى مدى نفعها - ولذا تم طرد اليهود من هذه المجتمعات حينما لم يعد لهم من فائدة.

أوتاد ومسامير

ويبدو أن مفهوم نفع اليهود مفهوم متجذر فى الوجدان الغربى تبناه الجميع، ولذا حينما قام أعداء اليهود بالهجوم عليهم من منظور عدم نفعهم وضررهم، تبنى أعضاء الجماعات اليهودية نفس المنطق، فلم يدافعوا عن أنفسهم من منظور حقوقهم الأساسية والمطلقة كبشر، وإنما بينوا أن حقوقهم تستند إلى نفعهم. فكتب سيمون لوتساتو (١٥٨٣-١٦٦٣) وهو حاخام إيطالى مقالاً تحت عنوان «مقال عن يهود البندقية» عدّد فيه الفوائد الكثيرة التى يمكن أن تعود على البندقية وعلى غيرها من الدول من وراء وجود اليهود فيها، فهم يضطلعون بوظائف لا يمكن لغيرهم الإضطلاع بها مثل التجارة. وهم يطورون فروعاً مختلفة من الاقتصاد. ولكنهم على عكس التجار الأجانب خاضعون لسلطة الدولة تماماً. ولا يبحثون عن المشاركة فيها. وهم يقومون بشراء العقارات، ومن ثم لا ينقلون أرباحهم خارج البلاد. إن اليهود من هذا المنظور يشبهون الرأسمال الأجنبى لا بد من الحفاظ عليه والدفاع عنه. وقد تبنى الممول اليهودى الهولندى منسى بن إسرائيل نفس المنطق فى خطابه لكرومويل، الذى طلب فيه السماح لليهود بالاستيطان فى إنجلترا. كذلك تبنى أصدقاء اليهود المنطق ذاته، فطالب جوسيا تشايلد رئيس شركة الهند الشرقية، عام ١٦٩٣ بإعطاء الجنسية لليهود الموجودين فى إنجلترا بالفعل، وأشار إلى أن هولندا قد فعلت ذلك، وازدهر اقتصادها بالتالى. كما كتب جون تولاند عام ١٧١٤ كتيباً مهماً للغاية عنوانه «الأسباب الداعية لمنح الجنسية لليهود الموجودين فى بريطانيا العظمى وأيرلندا» دافع فيه عن نفع اليهود مستخدماً منطلقات لوتساتو.

ومن أهم المدافعين عن نفع اليهود الفيلسوف الفرنسي مونتسكيو، حيث بين أهمية دورهم في العصور الوسطى في الغرب، وكيف أن طرد اليهود ومصادرة أموالهم وممتلكاتهم اضطرتهم إلى اختراع خطاب التبادل لنقل أموالهم من بلد إلى آخر ومن ثم أصبحت ثروات التجار غير قابلة للمصادرة وتمكنت التجارة من تحاشي العنف ومن أن تصبح نشاطاً مستقلاً، أي أنه تم ترشيدها.

ولعل أدق وأطرف تعبير عن أطروحة نفع اليهود ما قاله إديسون في مجلة إسبكتاتور في ٢٧ سبتمبر ١٧١٢ حين وصف بدقة تحول اليهود إلى أداة كاملة، فاليهود منتشرون في كافة الأماكن التجارية في العالم، حتى أصبحوا الأداة التي تتحدث من خلالها الأمم التي تفصل بينها مسافات شاسعة والتي تترابط من خلالها الإنسانية فهم مثل الأوتاد والمسامير في بناء شامخ، وعلى الرغم من أنهم ليس لهم قيمة في ذاتهم، فإن أهميتهم مطلقة لاحتفاظ الهيكل بتماسكه.

مصلحة الدولة

وقد أصبح مفهوم نفع اليهود مفهوماً مركزياً في الحضارة الغربية مع ازدهار فكر حركة الاستنارة، ومع هيمنته شبه الكاملة على الفكر الفلسفي والأخلاقي الغربي. فمن أهم ركائز هذا الفكر في المجال الأخلاقي الفلسفة النفعية التي تنظر للعالم كله وكافة مجالات الحياة من منظور المنفعة (المادية). وقد ظهر في هذه المرحلة فكر كل من آدم سميث في إنجلترا، والفيزيوقراط في فرنسا، حيث كان كلاهما يطالب الدولة بتنظيم ثروتها وزيادتها، كما كانا يتقبلان فكرة أن الهدف النهائي (والمطلق) لكل الأشياء هو مصلحة الدولة. وكان أعضاء الفريق الأول يرى أن الصناعة هي المصدر الأساسي للثروة في حين كان أعضاء الفريق الثاني، بحكم وجودهم في بلد زراعي أساساً، يرون أن الزراعة هي المصدر الأساسي للثروة. ولكن مع هذا، تظل فكرة المنفعة هي الفكرة الأساسية في فكر الفريقين

، ولا بد وأن نستذكر أن هذه المرحلة شهدت اهتماماً واضحاً لأعضاء المجتمعات

اليهودية، فسمع ظهور جماعات تجارية محلية ومع تزايد سلطة الدولة المركزية لم يعد وضع أعضاء الجماعات اليهودية قلقاً وحسب، بل بدأ يدخل مرحلة الأزمة. وتم طرح الحل في إطار مدى نفع اليهود للدولة. فأعلنت الأكاديمية الملكية في متز (فرنسا) عن مسابقة في عام ١٧٨٥ لكتابة بحث عن إمكانية جعل يهود فرنسا أكثر نفعاً وسعادة. ولو طرحنا حكاية السعادة جانباً باعتبارهم ديباجات مريحة تساهم في عملية ترويج فكرة النفع، فإننا يمكننا القول أن الغرب قد أدرك تماماً في عصر الاستنارة أن حل المسألة اليهودية يكمن في تحويل اليهود إلى مادة بشرية نافعة، وهو مصطلح أصبح شائعاً في الأدبيات الغربية عن اليهود منذ ذلك التاريخ. ومع هذا يجب التنبيه إلى أن هذا الإطار لم ينطبق على اليهود وحسب وإنما على كل البشر وعلى الطبيعة، فالفكر الاستناري حوّل الكون (الإنسان والطبيعة) إلى مادة استعمالية يمكن توظيفها بكفاءة عالية.

وقد نشر الموظف البروسى كريستيان دوم كتابه الشهير عن نفع اليهود في عام ١٨٧١، حيث طالب بإعطاء اليهود حقوقهم المدنية حتى يصبحوا نافعين بالنسبة إلى دولة تريد أن تزيد من عدد سكانها وقوتها الإنتاجية. ويبين دوم أن اليهود مفضلون عن أي مستوطنين جدد لأنهم ذوو جذور في البلاد التي يقطنونها (رأسمال محلي) أكثر من الأجانب الذي يعيش في البلد بعض الوقت (رأسمال أجنبي). ومع هذا طالب دوم بأن يُعتق اليهود لا باعتبارهم أفراداً وإنما باعتبارهم مجموعة عضوية متماسكة تعيش داخل الجيتو. ومعنى هذا أن دوم كان يود تحويل اليهود إلى مادة نافعة متماسكة تعيش في وسط المجتمع الألماني فيمكن لهذا المجتمع الاستفادة منها على ألا تصبح جزءاً منه، ويظل اليهود في المجتمع دون أن يكونوا فيه (وهذه هي الرؤية الغربية لإسرائيل: جيتو تابع للغرب يكون في الشرق دون أن يكون منه). وهذه ترجمة حديثة لرؤية الغرب لليهود كشعب شاهد أو أداة للخلاص وجماعة وظيفية.

وقد نُشرت كتابات عديدة بأقلام الكتاب الفرنسيين الذين ساهموا في الثورة

الفرنسية مثل ميرابوا وغيره، دافعوا فيها عن نفع اليهود أو إمكانية إصلاحهم أو تحويلهم إلى شخصيات نافعة منتجة. وموضوع نفع اليهود يشكل إحدى اللبئات الأساسية في كتابات السياسى الإنجليزى والمفكر الصهيونى المسيحى اللورد شافتسبرى الذى اقترح توطين اليهود فى فلسطين لأنهم جنس معروف بمهارته ومثابرته، ولأنهم سيوفرون رءوس الأموال المطلوبة، كما أنهم سيكونون بمثابة إسفين فى سوريا يعود بالفائدة لا على إنجلترا بمفردها، وإنما على العالم الغربى بأسره. وتحويل اليهود إلى عنصر نافع عن طريق نقلهم إلى الشرق ليصبحوا مادة بشرية استيطانية هو الحل الغربى الاستعمارى للمسألة اليهودية. ولذا نجد أن بلفور يكرر نفس هذه الآراء فى مقدمته لكتاب ناحوم سوكولوف تاريخ الصهيونية.

وقد سيطر الفكر الفيزيوقراطى وفكر آدم سميث على كثير من الحكام المطلقين فى أوربا، حيث كانت حكومات البلاد الثلاثة التى اقتسمت بولندا واليهود فيما بينها، فى أواخر القرن الثامن عشر، يحكمها حكام مطلقون مستنيرون: فريدريك الثانى فى بروسيا، وجوزيف الثانى فى النمسا، وكاترين الثانية فى روسيا. فتبنت هذه الحكومات مقياس المنفعة تجاه أعضاء الجماعات اليهودية، فتم تقسيمهم إلى نافعين وغير نافعين. وكان الهدف هو إصلاح اليهود وزيادة عدد النافعين، وطرد الضارين منهم أو عدم زيادتهم. وبما أن معظم أعضاء الجماعة اليهودية مركزون فى التجارة أخذت عملية تحويل اليهود إلى عناصر نافعة شكل تشجيعهم على العمل فى الصناعة أو الزراعة، وهوما يسمى «تحويل اليهود إلى قطاع اقتصادى منتج». كما كان لا يُعتقد من اليهود سوى النافع منهم، وكان يُنظر لليهود كمادة بشرية، فكانت تُحد حريتهم فى الزواج حتى لا يتكاثروا. وكان الشباب يجندون لمدد طويلة حتى يتم تحديثهم وتحويلهم إلى عناصر نافعة. ومن الحقائق المرعبة أن البغايا كن يعتبرن من العناصر النافعة ولذا منحن حرية التنقل، وقد أدى هذا إلى زيادة عدد البغايا اليهوديات، زيادة واضحة.

قابل للترحيل

ولا يمكن فهم تاريخ الحركة الصهيونية ولا تاريخ العداء لليهود (بما في ذلك النازية) إلا في إطار مفهوم المنفعة المادية هذا. فقد تبنى المعادون لليهود هذا المفهوم وصدروا عنه في رؤيتهم وأدبياتهم، فراحوا يؤكدون أن أعضاء الجماعات اليهودية شخصيات هامشية غير نافعة، بل وضارة يجب التخلص منها. وتدور معظم الأدبيات العنصرية الغربية في القرن التاسع عشر حول هذا الموضوع، وهي أطروحة لها أصدائها أيضاً في الأدبيات الماركسية، بما في ذلك أعمال ماركس نفسه، حيث يظهر اليهودى باعتباره ممثلاً للرأسمالى الطفيلى الذى يتركز فى البورصة ولا يغامر أبداً بالدخول فى الصناعة. وتظهر نفس الأطروحة فى كتابات ماكس فيبر الذى يرى أن رأسمالية اليهود رأسمالية منبوذة، بمعنى أنها رأسمالية مرتبطة بالنظام الإقطاعى القديم ولا علاقة لها بالنظام الرأسمالى الجديد. (ومن المفارقات أن اليهودى الذى كان رمزاً للرأسمال المحلى المتجذر، أصبح هنا رمز الرأسمال الأجنبى الطفيلى المستعد دائماً للرحيل والهرب).

وقد وصل هذا التيار إلى قمته فى الفكر النازى الذى هاجم اليهود لطفيليتهم وللأضرار التى يلحقونها بالمجتمع الألمانى وبالخضرة الغربية. وقد قام النازيون بتقسيم اليهود بصرامة منهجية واضحة إلى قسمين:

أ - يهود غير قابلين للترحيل، وهم أكثر اليهود نفعا.

ب - يهود قابلين للترحيل Transferable disposable ويستحسن التخلص منهم بوصفهم عناصر غير منتجة (أفواه تأكل ولا تنتج useless eaters حسب التعبير النازى المادى الرشيد الطريف) ويوصفهم عناصر غير نافعة لا أمل فى إصلاحها أو فى تحويلها إلى عناصر نافعة منتجة. (وبما يجدر ذكره والتأكيد عليه، إن هذا التقسيم تقسيم عام شامل، غير مقصور على اليهود؛ فهو يسرى على الجميع، فقد صنف الألمان المعوقين والمتخلفين عقلياً وبعض العجزة والمثقفين البولنديين على أنهم «غير نافعين» أى قابلين للترحيل ويستحسن التخلص منهم، وقد سويت حالة هؤلاء (بما فى ذلك اليهود) عن طريق الترحيل إلى

معسكرات السخرة أو الإبادة، حسب مقتضيات الظروف والحسابات النفعية
المادية الرشيدة.

الشعب النافع

من المعروف أن من أهم وظائف أعضاء الجماعة الوظيفية القيام بوظيفة ما هي
في جوهرها إستغلال للجماهير لصالح النخبة الحاكمة. فتقوم الجماعة بتحصيل
الضرائب من الجماهير أو امتصاص فائض القيمة منها من خلال الإقراض بالربا أو
التخصص في بيع سلعة معينة (مثل الملح) والخمور يحتكرها الحاكم لحسابه. وكان
أعضاء الجماعة الوظيفية يحققون بذلك أرباحاً عالية، ولكنهم بعد ذلك كان عليهم
دفع الضرائب الباهظة للحاكم، ولذا، فقد كانت معظم الأرباح تصب مرة أخرى
في خزائنه - أى أن أعضاء الجماعة الوظيفية اليهودية كانوا في واقع الأمر من أهم
مصادر الربح للنخب الحاكمة في الغرب في العصور الوسطى. ومفهوم الشعب
النافع هو استمرار لنفس هذه الرؤية، وإعادة إنتاج لها داخل أطر حديثة.

وقد تقبل الصهاينة هذه الأطروحة النفعية المادية تماماً، فنجد أن هرتزل يؤكد أن
اليهود في أوروبا فائض بشري غير نافع داخل أوروبا، ولكن يمكن تحويله إلى عنصر
نافع للحضارة الغربية عن طريق نقله إلى الشرق (فلسطين على سبيل المثال) ليصبح
عنصراً استيطانياً، أى أنه سيتم التخلص من اليهود وسيتم تحويلهم إلى عنصر نافع
بضربة واحدة من خلال نقلهم وتحويلهم إلى مستوطنين في إطار الدولة الصهيونية
الوظيفية المملوكية. ويتحدث ناحوم سوكلوف بنفس الطريقة عن اليهود ويقدم
الاقتراحات الكفيلة بتحويلهم إلى مادة نافعة. وكان مفكرو الصهيونية العمالية
(جوردون - بوروخوف - سيركين) يؤكدون ضرورة تحويل الشعب الطفيلي
اليهودي إلى عنصر نافع ومنتج من خلال غزو الجراسة والأرض والعمل والإنتاج.
ويجب أن نشير هنا إلى الفريد نوبينج الفنان الصهيوني الذي تعاون هرتزل في
تأسيس المنظمة الصهيونية وكان أحد زعماء الصهيونية في ألمانيا. وقد امتد به العمر
إلى أن استولى النازيون على السلطة واحتلوا بولندا. فتعاون نوسيج مع الجستابو

ووضع مخططاً لإبادة يهود أوروبا باعتبارهم عناصر غير نافعة. وقد حاكمه يهود جيتو وارسو وأعدموه. قد فعل رودولف كاستنر، المسئول الصهيونى فى المجر نفس الشئ حينما تفاوض مع إيخمان (المبثول النازى) بخصوص تسهيل نقل يهود المجر (باعتبارهم عناصر غير نافعة قابلة للترحيل والإبادة) فى مقابل السماح لبعض الشباب اليهودى بالسفر إلى فلسطين والاستيطان فيها («شباب من أفضل المواد البيولوجية» على حد قول إيخمان أثناء محاكمته).

الدولة الصهيونية الوظيفية النافعة تدور فى نفس الإطار، فهي ستقوم بنفس الأعمال التى تقوم بها الجماعة الوظيفية فى العصور الوسطى ، فتنحول الجماعة الوظيفية إلى دولة وظيفية تغرس فى الشرق العربى فى العصر الحديث. وستقوم هذه الدولة الوظيفية بنفس الأعمال المشينة التى كانت تقوم بها الجماعات الوظيفية، وهى أعمال لا يمكن للدول الغربية المحترمة أن تقوم بها نظراً لأنها دول ليبرالية وديموقراطية تود الحفاظ على صورتها المشرفة فتوكل إلى الدولة الصهيونية بمثل هذه الأعمال. ومن هذه الوظائف تزويد دول أمريكا اللاتينية العسكرية بالسلاح، والتعاون مع جنوب أفريقيا فى كثير من المجالات بما فى ذلك السلاح النووى، والقيام ببعض أعمال المخابرات والتجسس، والسماح للولايات المتحدة بإنشاء إذاعة موجهة فيها للاتحاد السوفيتى (سابقاً). كما تقوم الدولة الصهيونية بتوفير الجو الملائم والتسهيلات اللازمة للترفيه عن الجنود الأمريكين. ويبدو أن الدولة الصهيونية الآن أصبحت مصدراً لكثير من المرتزقة فى العالم، كما يبدو أنها بدأت فى تصدير البغايا لبلدان غربية مثل هولندا (امستردام) وألمانيا (فرانكفورت).

ولكن أهم وظائف الدولة الصهيونية على الإطلاق هو الوظيفة القتالية (لا التجارية أو المالية) فعائد الدولة الوظيفية الأساسى عائد إستراتيجى والسلعة أو الخدمة الأساسية الشاملة التى تنتجها هى القتال: القتال فى نظير المال-أى أنها وظيفة مملوكية بالدرجة الأولى. وفيما عدا ذلك، فإنها ديباجات اعتذارية وتفاصيل فرعية.

وقد تنبه أصدقاء الصهيونية وأعداؤها على السواء إلى طبيعة هذه العلاقة وطبيعة

هذه الوظيفة منذ البداية، فتم الدفاع عن المشروع الصهيونى والترويج له من هذا المنظور، كما تم الهجوم عليه وشجبه من هذا المنطلق. فعلى سبيل المثال، صرح ماكس نوردو، فى خطاب له فى لندن (فى ١٦ يونيه ١٩٢٠) بأنه يرى أن الدولة الصهيونية ستكون بلداً تحت وصاية بريطانيا العظمى وأن اليهود سيقفون حراساً على طول الطريق الذى تحف به المخاطر ويمتد عبر الشرقين الأدنى والأوسط حتى حدود الهند، وكان حايم وايزمان كثير الإلحاح فى تأكيد الأهمية الإستراتيجية (لا الاقتصادية) للجيب الاستيطانى الصهيونى الذى سيشكل، حسب رأيه «بلجيكا آسيوية»، أى خط دفاع أول لانجلترا ولا سيما فيما يتعلق بقناة السويس.

وأما حنه أرنت فقد أكدت أن الصهيونية بطرحها لنفسها «حركة قومية» باعت نفسها منذ البداية للقيام بالوظيفة القتالية الاستيطانية، فشعار الدولة اليهودية كان يعنى فى واقع الأمر أن اليهود ينوون التستر وراء القومية وأنهم سيقدمون أنفسهم باعتبار أنهم «مجال نفوذ» إستراتيجى لأى قوة كبرى تدفع الثمن.

وقد عرض ناحوم جولدمان القضية بشكل دقيق للغاية عام ١٩٤٧ فى خطاب له ألقاه فى مونتريال بكندا وقال فيه: «إن الدولة الصهيونية سوف تؤسس فى فلسطين، لا لاعتبارات دينية أو اقتصادية بل لأن فلسطين هى ملتقى الطرق بين أوربا واسيا وأفريقيا، ولأنها المركز الحقيقى للقوة السياسية العالمية والمركز العسكرى الإستراتيجى للسيطرة على العالم». معنى هذا أن الدولة الصهيونية لن تنتج سلعاً بعينها ولن تقدم فرصاً للاستثمار أو سوقاً لتصريف السلع أو مصدراً للمواد الخام والمحاصيل الزراعية، وإنما سيتم تأسيسها لأنها ستقدم شيئاً مختلفاً ومغايراً وثنميناً: دوراً إستراتيجياً يؤمن سيطرة الغرب على العالم، وهو دور سيكون له مردود اقتصادى دون شك، ولكن غير مباشر.

ولا تختلف المنظمة الاشتراكية الإسرائيلية «ماتزبن» أى البوصلة، فى وصفها وضع إسرائيل عن وصف جولدمان أو حنه أرنت، حيث ترى المنظمة، فى تحليل لها صدر فى الستينيات، أن الدور الذى تضطلع به الدولة الصهيونية لم يطرأ عليه

أى تغيير، فهي لا تزال تشكل قاعدة لقوة عسكرية يمكن الاعتماد عليها، قوة موجهة ضد العرب لخدمة المصالح الإمبريالية الإستراتيجية. وقد بين ب. سبير (فى عليمشمار بتاريخ ٢٩ أبريل ١٩٨٦) أن إسرائيل قد جعلت من جيشها الذراع المستقبلية المحتملة للولايات المتحدة، فهي خدمة حربية كامنة جاهزة على أهبة الاستعداد لتأدية الخدمات فى أى وقت.

الجدوى الاقتصادية للدولة الوظيفية

والدولة الوظيفية الصهيونية لا تقوم، مثل الجماعة الوظيفية اليهودية، بتحصيل الضرائب مباشرة، ولكنها مع هذا تحقق ريعاً عالياً للدولة الراعية لأنها تقوم بضر تلك النظم القومية العربية التى تحاول رفع سعر المواد الخام أو حتى تتحكم فى بيعها وفى أسعارها أو التى تختط طريقاً تنموياً مستقلاً أو تبنى سياسة داخلية وخارجية تهدد المصالح الغربية بالخطر. أما الضريبة التى يدفعها أعضاء الدولة الوظيفية الصهيونية، فهي حالة الحرب الدائمة التى يعيشونها بسبب الدور الذى يضطلعون به.

ومهما يكن الأمر أدرك الصهاينة هذه الوظيفة، كما أدركوا أنهم كلما زاد ما يحققونه من ربح لراعيهم من خلال أداءهم لمهام وظيفتهم زادت فرص استمرار الدعم وفرص البقاء، ومن هنا كان تأكيدهم المستمر وإلحاحهم الدائم على الجدوى الاقتصادية التى يؤديها التجمع الصهيونى وعلى مقدار النفع الذى سيعود على الراعى والممول (الإمبريالى)، تماماً مثلما يفعل أى شخص رشيد مع أى سلعة تباع وتشتري. وبالفعل، نجد أنه فى وقت كان فيه المشروع الصهيونى لا يزال فى إطار النظرية والأمنية، كان الزعماء الصهاينة يؤكدون، الواحد تلو الآخر، أن تمويل مثل هذا المشروع الاستيطانى الصهيونى مسألة مربحة للدولة التى ستستثمر فيه. وقد أدرك هرتزل - بمكره ودهائه - أن ثورة الفلاحين المصريين ستجعل مضر مكلفة للغاية كقاعدة عسكرية بالنسبة لإنجلترا، ولذا فقبل أن أشار إلى أن المشروع الصهيونى، بتكاليفه الزهيدة، شىء مغرٍ، واستخدم وايزمان الاستعارة التجارية التعاقدية ذاتها.

حين كتب لتشرشل قائلاً: "إن السياسة الصهيونية في فلسطين ليست على الإطلاق تبديداً للموارد، وإنما هي التأمين الضروري الذي نعطيه لك بسعر أرخص من أن يحلم به أي فرد آخر". وأفاض وايزمان في شرح وجهة نظره، مبيناً أن الاستعمار البريطاني، بتأييده للمنظمة الصهيونية، قد وضع ثقته في مجموعة مستعدة أن تتحمل قدراً كبيراً من المسؤولية المادية عن الاستعمار. وإذا تبين أن تكاليف الحماية البريطانية ستكون مرتفعة، عندئذ يمكن تنظيم وتسليح المستعمرين اليهود. ثم يتساءل وايزمان بشيء من الخطائية وبكثير من التوتر: "هل تمت أي عملية استعمارية أخرى تحت ظروف مؤاتية أكثر من هذه - أن تجد الحكومة البريطانية أمامها منظمة لها دخل كبير وعلى استعداد لأن تضطلع بجزء من مسئولياتها التي تكلفها الكثير؟". إن الصوت هنا هو صوت بائع متجول يجيد الإعلان عن السلعة، حتى ولو كانت هذه السلعة هي كيانه ووجوده.

وإذا كان سمحا ديتنس قد حاول الترويج للمشروع الصهيوني في الولايات المتحدة من منظور الدور الاستراتيجي، فإن يعقوب ميريدور ركّز على مدي رخصه وانخفاض ثمنه. ففي حديث إذاعي ذكر أن إسرائيل تحلّ محلّ عشر من حاملات الطائرات، ثم قدّم الوزير الإسرائيلي كشف حساب بسيط جاء فيه أن تكلفة بناء الحاملات العشرة هذه تبلغ ٥٠ بليون دولار. ثم أضاف الوزير، وهو الخبير بالأمور الاقتصادية، أنه لو دفعت الولايات المتحدة فائدة قدرها ١٠٪ على تكاليف تشييد هذه الحاملات (وقد كان الوزير متسامحاً مع الولايات المتحدة إذ أنه لم يذكر تكلفة الجنود الذين ستحملهم حاملات الطائرات أو الحرج السياسي الذي سيسببه وجود مثل هذه القوات)، لو دفعت الولايات المتحدة مثل هذه الفائدة لبلغت خمسة بلايين دولار. وحيث أن المعونة الأمريكية لا تصل بأية حال إلى هذا القدر، فقد اختتم ميريدور حديثه بملحوظة فكاهية ولكنها في الوقت ذاته بالغة الدلالة، إذ قال: "أين إذن بقية المبلغ؟". ويبدو أن هذا هو الخط الإعلامي الإسرائيلي في مواجهة الأمريكيين، ففي العام نفسه بينّ أرييل شارون أن المعونات

التي قدمتها الولايات المتحدة للكيان الصهيوني لا تزيد عن ثلاثين ملياراً من الدولارات، أما الخدمات التي قدمتها إسرائيل إلى أمريكا فتتفوق مائة مليار من الدولارات، ثم قال بشكل جديّ ما قاله ميريدور بشكلٍ فكاهي: "إن الولايات المتحدة لا تزال مدينة لنا بسبعين ملياراً".

وترد الفكرة نفسها، كما يرد كشف حساب مماثل، في مقال لشلومو ماعوز المحرر الاقتصادي للجيروساليم بوست بعنوان «صفقة إستراتيجية» حين أشار إلى أن الإسرائيليين يعرفون جيداً أن مساعدة الولايات المتحدة للدولة الصهيونية هي في جوهرها مساعدة لخدمة مصالح الولايات المتحدة الإستراتيجية. فالولايات المتحدة تدفع سنوياً ١٣٠ بليون دولار لقواتها في حلف شمال الأطلسي و ٤٠ بليوناً للوفاء بالتزاماتها في المحيط الهادي. وبالتالي، فإن مساعداتها العسكرية والمدنية لإسرائيل صغيرة بشكل مضحك، إذا ما قورنت بالمبالغ الآتفة الذكر، خصوصاً إذا ما تم النظر إلى مثل هذه المساعدات باعتبارها استثماراً لحماية مصالح أمريكا في المنطقة.

هذا هو المفهوم الغربي لإسرائيل. فالمدافعون عنها في الولايات المتحدة لا يلجأون أبداً إلى الحديث عن المغنم الاقتصادية الثانوية أو المغارم الاقتصادية التافهة وإنما يشيرون دائماً إلى الحليف الذي يمكن التعويل عليه، وإلى المغنم الإستراتيجية الأساسية الشاملة الهائلة. وقد عبّرت مجلة الإيكونوميست (في ٢٠ يولييه ١٩٨٥) عن موقف هؤلاء بقولها: إذا كان من الممكن لأمريكا أن تدفع ٣٠ بليون دولار كل عام ضمن تكاليف حلف الأطلسي (لتحقيق أهداف إستراتيجية)، فإن من المؤكد أن إسرائيل، وهي المخفر الأمامي والقاعدة المحتملة، تستحق مبلغاً تافهاً (نحو ٤ بلايين دولار).

وقد لخص سبير كل الموضوعات والاستعارات السابقة فقال أن الزعماء الإسرائيليين مضطرون دائماً أن يذكروا القيادة الأمريكية في واشنطن بمقدار تكلفة وجود الجيش الأمريكي في غرب أوروبا بالمقارنة بتلك الهبات الممنوحة لإسرائيل. وقد بين سبير أن الجيش الإسرائيلي ليس خدمة حربية كامنة وحسب، وإنما هو

أيضاً خدمة رخيصة، بل إنها أرخص من أي خيار عسكري آخر محتمل لأمريكا في المنطق. وحسبما جاء في مقاله، يوافق البتاجون على هذا الرأي، ولذا لا يبدي خبراؤه أي تأفف إزاء الحساب الذي يقدمه الإسرائيليون، حتى أن هناك من يري فيه أنه رخيص نسبياً، الأمر الذي يدل على أن نبوءات الزعماء الصهاينة وحساباتهم، بخصوص الجيب الصهيوني الوظيفي، كانت تتسم بالدقة، وأن السلعة الصهيونية مربحة ولا شك، وأن العقد النفعي الذي وقّع بين الحضارة الغربية ويهود العالم لا يزال نافذاً حتى الآن وأن عائدته لا يزال مرتفعاً.

استعارات الحوسلة

الدولة الوظيفية هي دولة يتم حوسلتها (أي تحويلها إلى وسيلة) لصالح الدول الراحية الإمبريالية، ولكن يبدو أن الحوسلة الصهيونية في حالة الحركة الصهيونية لن تتوقف عند الدولة الوظيفية، بل ستمتد لتشمل كل المادة البشرية اليهودية أينما كانت. وفي اجتماع بين هرتزل وفكتور عمانوئيل الثالث، ملك إيطاليا، أشار الزعيم الصهيوني إلى أن نابليون دعا إلى عودة اليهود إلى فلسطين ليؤسسوا وطناً قومياً، ولكن ملك إيطاليا بين له أن ما كان يريده في الواقع هو أن يجعل اليهود المشتتين في جميع أنحاء العالم عملاء له. وقد اضطر هرتزل إلى الموافقة على ما يقول، بل وأن يعترف بأن تشامبرلين، وزير الخارجية البريطاني، كان لديه أيضاً أفكار مماثلة. وكان هرتزل يفكر بأنه إذا وافقت إنجلترا على مشروعه الصهيوني، فإنها ستحصل «وفي ضربة واحدة»، على عشرة ملايين تابع (عميل) سري في جميع أنحاء العالم يتسمون بالإخلاص والنشاط، وبإشارة واحدة سيضع كل واحد منهم نفسه في خدمة الدولة التي تقدم لهم العون. "إن إنجلترا ستحصل على عشرة ملايين عميل يضعون أنفسهم في خدمة جلالته ونفوذها". ثم أضاف هرتزل، مستخدماً الاستعارة التجارية التعاقدية الشائعة في الأدبيات الصهيونية "ثمة أشياء ذات قيمة عالية تكون من نصيب الشخص الذي يحصل عليها في وقت لم تكن بعد قد عرفت قيمتها الحقيقية العالية". وأعرب الزعيم الصهيوني عن أمله في أن

تدرك إنجلترا مدى القيمة والفائدة التي ستعود عليها من وراء كسبها الشعب اليهودي، أي أن هرتزل مدرك تماماً لوظيفية الدولة اليهودية والشعب اليهودي ونفعهم وفائدة توظيف اليهود وحوسلتهم.

والخطة الصهيونية الخاصة بتسخير الشعب اليهودي هي جزء أساسي من العقيدة الصهيونية. ففي عام ١٩٢٠، عبّر ماكس نوردو عن تفهمه العميق للدوافع التي حركت رجال السياسة البريطانيين الذين كانت تواجههم مشكلة التوازنات الدولية. وبعد القيام بحساباتهم توصل هؤلاء الساسة إلى أن اليهود يعتبرون في الحقيقة "مصدر قوة" وربما "مصدر نفع" أيضاً لبريطانيا وحلفائها، ومن ثم عرضت عليهم فلسطين.

ويلاحظ أن كل الكتاب السابقين ينظرون إلى إسرائيل باعتبارها «رقعة» أو «مساحة» أو «مكاناً تابعاً» أو «بلداً» تحت الوصاية (فهو مكان تم نزع القداسة عنه وحوسلته تماماً حتى أصبح موضوعاً محضاً). وهم يعتبرون المستوطنين الصهاينة حراساً و"خدمة عسكرية جاهزة": جماعة من المماليك أو المرتزقة على أهبة الاستعداد دائماً. والمملوك أداة ووسيلة، وليس إرادة وقيمة.

وسواء أكانت الإشارات للمكان أو كانت للإنسان، فإن جوهر الاستعارات كلها هو التبعية الكاملة للغرب، والتحوصل الكامل لحسابه، وتحويل المكان والإنسان إلى أداة منعزلة عن المحيط الحضاري الشرقي («ذراع مستقبلية»). وقد مزج هرتزل، مؤسس الصهيونية، كل العناصر في استعارته الشهيرة حين قال: "سنقيم هناك [في آسيا] جزءاً من حائط لحماية أوروبا يكون عبارة عن حصن منيع للحضارة [الغربية] في وجه الهمجية"، فقد مزج الإنسان والمكان بحيث أصبحا حائطاً غربياً في مواجهة الشرق (يلاحظ أن كلمة «إسرائيل» في العبرية كلمة متعددة المعاني متنوعة الدلالات وتشير للأرض والشعب تماماً كما فعل هرتزل).

ولا يزال إدراك الإسرائيليين لدورهم (وإدراك العالم الغربي له) يدور في هذا الإطار. وكثير من الاستعارات التي يستخدمها المستوطنون الصهاينة في وصف الدور الموكل إليهم يبين إدراكهم لعملية الحوسلة الوظيفية هذه. فقد استخدمت جريدة هآرتس استعارة درامية لوصف الدور الذي تم إسناده إلي الدولة اليهودية (في مقال في سبتمبر ١٩٥١) بعنوان "نحن وعاهرة المواني" جاء فيه أن "إسرائيل قد تم تعيينها لتقوم بدور الحارس الذي يمكن الاعتماد عليه في معاقبة دولة واحدة أو أكثر من جيرانها العرب الذين قد يتجاوز سلوكهم تجاه الغرب الحدود المسموح بها".

والاستعارة السابقة (إسرائيل كحارس أجير يشبه العاهرة) تلمس - على ما يبدو - وتراً حساساً في الذات الصهيونية الإسرائيلية، إذ تكشف أخيراً من خلال وثائق وزارة الخارجية البريطانية لعام ١٩٥٦ الخاصة بحرب السويس أنه أثناء المباحثات السرية التي جرت بين إنجلترا والدولة الصهيونية ومهدت للعدوان الثلاثي على مصر، تم الاتفاق على أن تقوم إسرائيل بمهاجمة مصر. وبعد وصولها إلى قناة السويس، تقوم إنجلترا وفرنسا بالتدخل ثم تصدران أمراً إلى الطرفين المصري والإسرائيلي بالانسحاب عدة كيلو مترات من حدود القناة، وبذا يتم تبرير الغزو الفرنسي والإنجليزي أمام الرأي العام العالمي باعتباره عملية محايدة تهدف إلى حماية الملاحة في القناة. وقد ضمننت الدولتان أمن إسرائيل وزودتاها بالغطاء الجوي المطلوب (وهذه أمور معروفة لا تحتاج إلي توثيق). ولكن يبدو أن المندوب الإنجليزي في هذه المفاوضات السرية بالغ قليلاً في الأمر وطلب أن تقوم القوات الإنجليزية بإحراق بعض الإصابات الطفيفة، ولكن الفعلية، بالقوات الإسرائيلية لرفضها الانسحاب أو لتباطئها فيه حتى يتم حرك المسرحية. وهنا ثارت ثائرة بن جوريون واستخدم استعارة شبيهة باستعارة هآرتس لوصف العلاقة بين إسرائيل والدول الغربية إذ قال "إنجلترا تشبه النبيل الإقطاعي الذي يرغب في معاينة إحدى الخادومات جنسياً على أن يتم ذلك في الخفاء وحسب، أي في المطبخ مثلاً

لا في حجرة النوم". ومن الواضح أن بن جوريون لم يرفض الدور الإستراتيجي الموكل إليه (الخادمة الحسنة)، ولكنه كان يطمح في أن يتم اللقاء بين الخادمة والسيد بأسلوب راقٍ يليق بالدولة اليهودية الوظيفية.

ومن الاستعارات المتواترة الأخرى، الاستعارة التي تعتبر إسرائيل كلب حراسة. فقد وصف البروفسور يشعياهو ليبوفيتس في حديث له في صحيفة لوموند بتاريخ ٨ مارس ١٩٧٤ إسرائيل بأنها "عميل للولايات المتحدة" ووصف الإسرائيليين بأنهم "كلاب حراسة للمصالح الأمريكية في الشرق الأوسط، ويتعلق بقاؤنا بقدرتنا علي القيام بهذه المهمة". وقد طُور الصحفي الإسرائيلي عاموس كينان هذه الاستعارة المثيرة من عالم الحيوان وجعلها أكثر حدة وإثارة إذ وصف إسرائيل بأنها "كلب حراسة رأسه في واشنطن وذيله في القدس"، وهي كلب حراسة قوي لكنه يحتاج إلي حماية. ويفضل العرب استخدام استعارة «مخلب القط» لوصف الدولة الوظيفية. وهي استعارة مألوفة وشائعة فقدت كثيرا من قوتها بسبب تكرارها الممل، وإن كانت معبرة تماماً. والاستعارات السابقة (الحارس، والعاهرة، والخادمة الحسنة الطيبة، وكلب الحراسة، ومخلب القط) سواء قبلنا بها لجدتها أم رفضناها لحدتها، تؤكد أن أهمية إسرائيل من وجهتي النظر الغربية والصهيونية لا تكمن في عائدها الاقتصادي وإنما في دورها الإستراتيجي إذ أن كل الاستعارات تفترض وجود دور يؤدي وثمناً يُدفع، لا عائداً اقتصادياً يُحصَّل.

ولكن كل الاستعارات السابقة، اللائق منها وغير اللائق، هي في الواقع استعارات مستمدة من القرن التاسع عشر قبل تفجر الثورة التكنولوجية وتزايد معدلات نمو الصناعات الحربية وتنوعها. ولذا، كان لابد من تطوير الاستعارة بشكل يتفق مع روح العصر في أواخر القرن العشرين (والواقع أن إحدى السمات الأساسية الشاملة للدولة الوظيفية الصهيونية مقدرتها علي تغيير وظيفتها بما يتفق مع متطلبات الدولة الراعية)، وهذا ما أنجزه يعقوب ميريدور وزير التخصيص

والتسيق الاقتصادي (١٩٨٢ - ١٩٨٤)، حيث قال في حديث له للإذاعة التابعة للجيش الأمريكي، أنه لولا وجود إسرائيل كقاعدة ومنطقة نفوذ وحليف للولايات المتحدة لاضطرت الأخيرة إلي بناء عشر من حاملات الطائرات. وهو بذلك يكون قد أحلّ استعارة إسرائيل كحاملة طائرات أمريكية محل الاستعارات الغامضة أو الفاضحة السابقة. وترد نفس الاستعارة وبشكل أكثر تبلوراً، في مقال الصحفي الإسرائيلي سبير والمعنون «مجتمع يتغذى على الهبات الخارجية» إذ قال الكاتب: "إن الأمريكيين يدفعون لنا لأنهم يريدون أن تكون لهم دولة تابعة مجهزة بأفضل الأسلحة والجنود". وقد وصف سبير هذه الدولة بأنها حاملة طائرات عليها أربعة ملايين نسمة في موقع إستراتيجي فريد من نوعه قريب من الاتحاد السوفيتي وقريب من أوروبا الشرقية وقريب من حقول النفط.

إسرائيل إذن «حاملة طائرات»، أي أنها وظيفة تُؤدي أو دور يُلعب وأداة تُستخدم أو ثروة إستراتيجية تُضم أربعة ملايين مقاتل. ولا شك أن استعارة «الحاملة» أكثر دقة ودلالة من سابقتها لأنها لا تتحدث عن دور الدولة الصهيونية أو وظيفتها بشكل عام، وإنما تعرّف - وبدقة بالغة - طبيعتها الإستراتيجية كدولة عميلة توجد في منطقة حدودية قريبة من الاتحاد السوفيتي (سابقاً) وأوروبا الشرقية وحقول النفط، وليس لها عائد اقتصادي مباشر. وتؤكد الاستعارة حركية هذه الدولة النافعة الثمينة وإمكانية نقل جنودها من مكان حدودي إلى مكان حدودي آخر، ولكن الاستعارة تظهر في الوقت ذاته أيضاً أنه يمكن الاستغناء عنها، فالأجزاء الآلية الحركية ليست عضوية ولا ثابتة. وتنفي الاستعارة عن إسرائيل أي دور اقتصادي مباشر. ولعل الاتفاق الإستراتيجي الذي تم توقيعه بين الولايات المتحدة وإسرائيل عام ١٩٨٤ هو تحقق آخر لهذا الإدراك لطبيعة دور دولة إسرائيل وعلاقتها بالعالم الغربي.

الدولة المملوكية

والتعبيرات المجازية التي تُستخدم للإشارة إلى الدولة الصهيونية تؤكد كلها كونها أداة نافعة، ليس لها قيمة ذاتية، وإنما تنبع قيمتها مما تؤديه من خدمات وتجلبه من منفعة، فالدولة هنا وظيفة ودور، لا كياناً مستقلاً له حركياته، وهي تستمد استمرارها، بل ووجودها، من مدى مقدرتها على أداء هذا الدور. ولذا فنحن نشير إلى الدولة الصهيونية باعتبارها دولة مملوكية، علاقتها بالغرب تشبه علاقة المملوك بالسلطان فهي علاقة نفعية محضة، مستمرة طالما استمرت مقدرة المملوك على الأداء. ونحن نشير لها كذلك باعتبارها الدولة الوظيفية، أي الدولة التي تضمن استمرارها وبقائها من خلال أدائها لوظيفتها. وربما يبين هذا مدى أهمية الانتفاضه المباركة التي أثبتت أن الدولة الصهيونية غير قادرة على أداء دورها ووظيفتها كقاعدة استراتيجية في الشرق الأوسط، وأن نفعها من الناحية العسكرية ليس كبيراً، وأن أداءها لوظيفتها أصبح أمراً مكلفاً للغاية. ومن هنا تحرك الدولة الصهيونية السريع لتجد لنفسها وظيفة جديدة، فبدلاً من أن تكون حاملة طائرات أو معسكر لمالليك، فإنها ستصبح مثل سنغافورة مركزاً للسماسرة والسيارة، وربما ركيزة أساسية لقطاع اللذة (ملاهي - كباريهات - مصحات - سياحة) وسوبر ماركت ضخمة، فردوس أرضي يضم كل السلع التي يحلم بها الإنسان، فيذوب فيها ويفقد حدوده وينسى كل المنغصات مثل التاريخ والذاكرة القومية والهوية والكرامة والقيم الأخلاقية. ومن هنا أهمية توقيع اتفاقية السلام والإصرار على ضرورة رفع المقاطعة العربية، حتى يتسنى للدولة الصهيونية أن تلعب دورها الجديد الذي لا يختلف كثيراً عن بعض الأدوار التي كان يلعبها أعضاء الجماعات الوظيفية اليهودية في الغرب.

ومما يجدر ذكره أن سياسة البلاشفة تجاه اليهود كانت تصدر عن نفس المنظور النفعي، فعندما كان من مصلحة الاتحاد السوفيتي دمج اليهود تماماً قررت الدولة السوفيتية أن هذا هو الحل الوحيد للمسألة اليهودية باعتبار أنه لا يوجد شعب

يهودى. ولكن الاتحاد السوفيتى وجد فى الأربعينيات أن من مصلحته الاعتراف بالدولة اليهودية فى فلسطين، على أمل أن تشكل هذه الدولة خلية اشتراكية فى الوسط العربى الإقطاعى المتخلف، فتقوم بثوير المنطقة، ومن ثم سمح بالهجرة السوفيتية، بل ودافع المتحدثون السوفييت عن «حقوق الشعب اليهودى» بشراسة غير معهودة فيهم. وكان الاتحاد السوفيتى، أول دولة اعترفت بشكل قانونى بالدولة الصهيونية.

وقد ظلت سياسية السوفيت تجاه الهجرة اليهودية إلى فلسطين مرتبطة تماماً مع مصالح الدولة السوفيتية ومنفصلة تماماً عن الأطروحات الأيديولوجية (والأخلاقية) التى كانت تشكل أساس شرعيته.

٢ - اليهودى كمسلم فى أفران الفاز

أشرنا فى الفصل الأول من هذا الكتاب إلى حقيقة مثيرة وهى رؤية الصهاينة لأنفسهم كعرب وهى ما سميت اليهودى كعربى ، ثم انقلاب هذا الإدراك بعد ذلك ليصبح العربى كيهودى . وتداخل المقولات الإدراكية مسألة تستحق الدراسة والتوقف . وفى هذا الفصل سندرس ظاهرة مماثلة . فقد وقعت على اكتشاف لا عن طريق الصدفة تماما ولا عن طريق التخطيط أيضا ، وإنما عن طريق نموذج معرفي وتفسيري مختلف عما هو سائد فى الغرب . فالدراسات التى كُتبت عن الإبادة النازية (هولوكوست باليونانية وشواح بالعبرية وترجم أحيانا إلى المحرقة) تتناول هذه الظاهرة كما لو كانت ظاهرة ألمانية مقصورة على الألمان، وكما لو كانت هي جريمة النازيين الأشرار ضد اليهود الأبرياء . والأدبيات العربية تفترض هذا الإطار وتقع فى قبضة إمبريالية المقولات . وإن حاولت توسيع هذا الإطار فهي تقول إن اليهود لم يُقتل منهم ستة ملايين وإنما مليونين ، كما أن اليهود ليسوا هم الضحايا وإنما يستحقون ما حدث لهم إلخ . ، إلى آخر هذه الأحاديث الصبغانية العنصرية . وقد طرحت تصورا مختلفا فى كتاب الأيديولوجية الصهيونية إذ أذهب إلى أن الإبادة النازية لليهود (وغيرهم) ليست جريمة ألمانية/نازية وإنما غربية . فحل الإبادة هو حل طرحته الحضارة الغربية الحديثة (العقلانية المادية) لكثير من مشاكلها ، فتمت إبادة سكان الأمريكتين فى القرن السادس عشر ولا تزال عملية إبادتهم المباشرة مستمرة فى بلاد مثل البرازيل . وقد تمت حروب إبادية أو شبه إبادية أخرى فى بلاد الكونغو والجزائر (بلد المليون شهيد) . وهذا أمر متوقع ، فالتفكير العنصري الغربى يتضمن إنكار حق الوجود للآخر وإن وُجد فهو فى مرتبة أدنى لا بد وأن يوظف فى خدمة العالم الغربى . ويجب أن نذكر أن وعد بالفور كان يهدف إلى تخليص أوروبا من اليهود عن طريق نقلهم إلى فلسطين وتوظيفهم لصالح الحضارة الغربية وهذا ما كان يهدف له هتلر أيضا الذى كان يهدف إلى التخلص من اليهود وغيرهم . وقد حاول هو الآخر أن ينقلهم إلى بولندا وفشل ،

ثم تبني مشروعاً لنقل اليهود لدغشقر ففشل. فكأن هتلر هو بالفور دون مستعمرات، وهذا يعود إلى أن معاهدة فرساي بعد هزيمة ألمانيا في الحرب العالمية الأولى أجهضت مشروع ألمانيا الاستعماري. ولولا هذا لتخلص هتلر من اليهود بالطرق البالفورية المتحضرة بدلا من الطرق النازية الهمجية! فإذا أضفنا إلى كل هذا الفكر الدارويني والنيتشوي والإيمان بالمنفعة كمقياس مطلق وإسقاط قداسة كل شيء (إذ كيف يمكن الإيمان بقداسة أي شيء إن كان مصدر القداسة قد انسحب من الكون وهجره، وإن كان كل شيء مادة في مادة، مجرد أرقام وذرات متجاورة؟) إن فعلنا ذلك اكتشفنا أن الحضارة الغربية الحديثة هي خلطة حضارية تجعل من معسكرات الإبادة أمراً منطقياً ومفهوماً. ولعل الفضيحة فاحت لأن عنصرية الحضارة الغربية في حاله ألمانيا لم يتم ممارستها في أحراش أفريقيا أو غابات آسيا أو سهول الولايات المتحدة قبل أن يعمرها الإنسان الأبيض كما هو الحال مع عنصرية إنجلترا وفرنسا والولايات المتحدة، وإنما تمت ممارستها داخل المجتمعات الأوروبية ذاتها ووقع ضحيتها عناصر بشرية غربية مثل الغجر والسلاف والشيوعيين واليهود وغيرهم، وهي عناصر تم تصنيفها بشكل منهجي على أنها غير نافعة تماماً مثل الأطفال المعوقين والعجزة والجنود الألمان المصابين في الحروب الذين كانوا يطلقون عليهم Useless eaters أي مستهلكون للطعام لا جدوى اقتصادية منهم والذين أنشئت أفران الغاز ابتداء للتخلص منهم. وفي أثناء محاكمات نورمبرج كان خط الدفاع لمجرمي الحرب النازيين أن تفكيرهم إنما هو نتاج طبيعي للأبحاث التي أجراها العلماء الغربيون لمدة أربعين عاماً (أي منذ عصر النهضة!).

المسلمون وأفران الغاز

الجريمة النازية إذن جريمة غربية بمعنى الكلمة تعبر عن شيء أصيل ورهيب وكامن في الحضارة الغربية الحديثة، وهي مثل الصهيونية، ليست انحرافاً عن جوهر هذه الحضارة وإنما هي تعبير متبلور عنه. هذا هو التصور الذي أطرحه منذ أمد طويل وبينما كنت أكمل بعض المداخل الأخيرة الخاصة بالإبادة في موسوعة

اليهود واليهودية والصهيونية. لاحظت إشارات خفية للضحايا الذين سيقادون لأفران الغاز، فقالت أحد المراجع أنهم كانوا يسمونهم تسمية «غريبة» ولاحظت في مقال عن التدرج الاجتماعي في معسكر أوشفيتس تكرار كلمة «مسلم» ، وقد أصبح عندي حساسية غير عادية لمثل هذه الإشارات، فعادة تخبيء المراجع الصهيونية شيئاً محرّجاً ما حينما تفعل ذلك، فقامت بقراءة عدة مراجع وموسوعات إلى أن وصلت إلى حقيقة مذهلة، وهي أن هؤلاء الضحايا كانوا يسمونهم «میزلمان» Muselmann أي «مسلم» بالألمانية، وقد ورد ما يلي في مدخل في الموسوعة اليهودية Encyclopedia Judaica (جزء ١٢ ص ٥٣٧-٥٣٨) عنوانه «مسلم»:

«میزلمان» أي مسلم بالألمانية، وهي إحدى المفردات الدارجة في معسكرات (الاعتقال) والتي كانت تستخدم للإشارة للمساجين الذين كانوا على حافة الموت- أي بدأت تظهر عليهم أعراض آخر مراحل الجوع والمرض وعدم الاكتراث العقلي والإرهاق البدني. وكان هذا المصطلح يستخدم أساساً في أوشفيتس ولكنه كان يستخدم في المعسكرات الأخرى» هذه هي المعلومة، فكأن العقل الغربي حينما كان يدمر ضحاياه كان يرى فيهم الآخر، والآخر منذ حروب الفرنجة (الصليبية) هو المسلم. ومن المعروف في تاريخ العصور الوسطى أن العقل الغربي كان يربط بين المسلمين واليهود، وهناك لوحات لتعذيب المسيح تصور الرسول ﷺ وهو يقوم بضرب المسيح بالسياط.

إن التجربة النازية هي الوريث الحقيقي لهذا الإدراك الغربي، كل ما في الأمر أنه تم توسيع نطاق الحقل الدلالي لكلمة «مسلم» لتشير «للآخر» على وجه العموم، سواء كان من العجر أم السلاف أم اليهود (وهذا لا يختلف كثيراً عن توسيع لكلمة «عربي» في الخطاب الصهيوني لتصبح «الأغيار»). ويحاول كاتب المدخل أن يفسر أصل استخدام الكلمة، ولكن تفسيره هو مجرد تفسير وحسب، فهو يدّعي أن الضحايا سُموا «مسلمين» استناداً إلى طريقة مشيهم وحركتهم: «إنهم كانوا

يجلسون القرفصاء وقد تُسّيت أرجلهم بطريقة «شرقية» ويرتسم على وجوههم جمود يشبه الأقنعة». والكاتب في محاولة التفسير هذه لم يتخل قط عن عنصريته الغربية أو الصور النمطية الإدراكية، كل مافي الأمر حاول أن يحل كلمة «شرقيين» محل كلمة «مسلمين»، لكن المهم أن الضحايا هم الآخر، والآخر ليس غربياً وإنما شرقي أو مسلم.

أوشفتس ودير ياسين

وعثوري على هذه الإشارة لضحايا الإبادة على أنهم «المسلمين» يثير قضيتين واحدة عملية، والأخرى معرفية. فمن الناحية العملية لا بد وأن تتناقل وكالات الأنباء هذه المعلومة حتى يتضح الإدراك الغربي لنا، وحتى نوضح لِمَ لَمْ يتوان الغرب عن حل جريمة أوشفتس عن طريق جريمة دير ياسين وكفر قاسم، فالمهم هو ضرب من سماهم «بالمسلمين»، أي «الآخرين». وتأكيد هذا المصطلح يقلل من احتكار اليهود لفكرة أنهم الضحية الوحيدة ويثير قضية أن ماينشر من معلومات هو الذي يخدم صالح فريق بعينه، وإلا لم اختفى هذا المصطلح ولم يشر إليه أحد؟

أما من الناحية المعرفية، فمن الواضح أننا تحت رحمة الغرب فنحن لا نقرأ تاريخه من منظورنا وإنما نقرأ تاريخه كما ورد لنا من منظوره، وهذا ليس عيباً في الغرب وإنما فينا نحن، فكتب التاريخ موجودة وكل من يود أن يحصل على المعلومات سيجدها هناك، وعليه أن يعيد تفسيرها وأن يستنطقها (وهو فعل لا يوجد في اللغات الأوروبية وترجمته مستحيلة) عن طريق اكتشاف تضميناتها الخفية وعن طريق اكتشاف حقائق جديدة لم تظهر للوجود أو لم تحرر المركزية التي تستحقها.

ونحن إن فعلنا ذلك فإننا قد نصل إلى الدلالات الحقيقية والخفية لكثير من أحداث التاريخ الغربي، وهي دلالات لم يدركها الإنسان الغربي نفسه نظراً لحدوده الإدراكية المفهومة والمتوقعة. إن درسنا هذه الأحداث بطريقتنا قد نتوصل أيضاً إلى رصد أثرها الحقيقي على الإنسان، وبهذا قد نساهم في فهم الأزمة الكونية التي وقع فيها إنسان القرن العشرين، وقد نصل إلى بعض الحلول.

٢ - الإدراك النازي لفهوم الحكم الذاتى

قام الصهاينة وأصدقاؤهم بكتابة تاريخ النازية بطريقة تُعبّر عن رؤيتهم وتخدم مصالحهم . ولذا أرى من الهام بمكان أن نعيد كتابة تاريخ النازية (بل وتاريخ الحضارة الغربية ككل) من منظور عربي، بدلاً من تلقى التواريخ التى كتبوها، وبدلاً من قبول طريقة تنظيمهم للأحداث، فيبقون بعضها ويركزون عليه، ويستبعدون البعض الآخر أو يهملونه . ومن التجارب النازية الهامة التى تُذكر وكأنها واقعة عرضية لا أهمية لها، تجارب الحكم الذاتى اليهودية التى أقامتها السلطة النازية فى كثير من بقاع أوروبا . وتحرص التواريخ الصهيونية على إخفاء هذه الوقائع التاريخية لأنها تبين تشابه الرؤية النازية بالرؤية الصهيونية، وتبين أن ثمة تعاون تم بين الطرفين . وقد اكتسبت هذه التجارب فى الحكم الذاتى أهمية خاصة هذه الأيام بعد توقيع الاتفاقيات الأخيرة، لأنها قد تُلقى بعض الضوء على التصور الإسرائيلى للحكم الذاتى الفلسطينى فى الضفة الغربية . فقد أسس النازيون جيتوات كانت تأخذ شكل مناطق «قومية» تتمتع بقدر كبير من الاستقلال، فكان يتم إخلاء رقعة من إحدى المدن من غير اليهود ثم يُنقل إليها عشرات الآلاف من اليهود . ومن أشهر هذه المناطق جيتو وارسو ولودز وريجا فى بولندا ومستوطنة تيريس ينشتات "النموزجية" فى بوهيميا فى المجر .

جيتو وارسو

ويُعدُّ جيتو وارسو أهم هذه المناطق جميعاً، فقد بلغ عدد القاطنين فيه عام ١٩٤١ حوالى نصف مليون يهودى يعيشون فى رقعة صغيرة حولها حائط طوله ثمانية أقدام، وكان له اثنان وعشرون مدخلاً يقف على كل منها ثلاثة جنود، أحدهم ألماني والثانى بولندى مسيحي والثالث بولندى يهودى . وقد كان التعريف الذى تبناه الألمان للهوية اليهودية هو تعريف قوانين نورمبرج وهو أن اليهودى يهودى بالمولد وليس بالعقيدة (وهو التعريف الذى تبنته دولة إسرائيل فيما بعد) .

ويجب النظر إلى تجربة الجيتو هذه في ضوء المخطط النازي ذى الطابع الصهيونى الواضح الذى ينطلق من تصور استقلال اليهود كشعب عضوى منبوذ ومتدنى له شخصيته القومية المستقلة . ويمكن توظيفه وتحويله لمصدر للعمالة الرخيصة ولذا كان للجيتو مؤسساته المستقلة الخاصة به (عملة خاصة - وسائل نقل خاصة - خدمة بريدية - مؤسسات الرفاه الاجتماعى) . كما سُمحَ لجيتو وارسو بأن يكون له نظامه التعليمي، وبأن يفتح المكتبات لبيع الكتب واستعارتها، وبأن يصدر جريدته اليومية بل وكان لهم ميليشيا ومحاكم خاصة به، أى أن الجيتو كان بمثابة دويلة صغيرة منعزلة ثقافياً واقتصادياً عما حولها .

وقد كان يدير الدويلة - الجيتو «سلطة يهودية» أو «مجلس كبراء» كانت السلطات النازية تُعينُ أعضائه . ولكن استقلالية الدويلة - الجيتو لم تكن كاملة، إذ كان الجيتو يقوم باستيراد كل المواد الخام والطعام والملابس التى يحتاجها من سلطة الاحتلال النازية على أن يسدد ثمن الواردات بالمنتجات الصناعية (الملابس والمصنوعات الجلدية) التى كان ينتجها الجيتو . كما كان على المجلس أن يقدم عدداً من العمال يومياً يبيعون عملهم لتسديد واردات الجيتو . وقد كان العامل البولندي، يهودياً كان أم غير يهودي، يتقاضى ربيع ما يتقاضاه العامل الألماني .

ويبدو أن النازيين قد وضعوا مخططاً لإبادة يهود جيتو وارسو من خلال فرض وضع غير متكافئ عليهم، بحيث يمكن استنزافهم لصالح النازيين . إذ أن قيمة السلع التى كان ينتجها الجيتو والخدمات التى يقدمها كانت دائماً دون حد الكفاف ولا تفى باحتياجات العاملين اليهود الأساسيين، مما كان يعنى سوء التغذية داخل الجيتو وتناقص عدد سكانه مع ضمان تدفق فائض القيمة بشكل مستمر إلى النازيين . وقد أدى عدم تكافؤ العلاقة بين الدولة النازية والجيتو - الدويلة اليهودية إلى أن السكان زادوا فقراً وزادت حاجتهم إلى المواد الغذائية، فكانوا يموتون جوعاً - وبذلك يتم إبادة اليهود بالتدريج وبيطء دون أفران غاز .

وقد قام أحد الباحثين بدراسة إحصائية دقيقة لهذه الإبادة التدريجية البطيئة

مستخدماً جيتو وارسو أساساً لدراسة الحالة . فأشار إلى أنه فى الفترة من ١٩٣٩ إلى ١٩٤٢ ، أى فى خلال ستة وثلاثين شهراً، زاد عدد الوفيات بشكل ملحوظ . فقد كان معدل الوفيات بين أعضاء الجماعة اليهودية قبل الحرب ٣٥٠ كل شهر وحسب، أى أنه كان من المفروض أن يكون عدد الوفيات ١٢,٦٠٠ لو أن المعدل استمر فى معدله الطبيعي، ولكن الجوع والمرض (وكذا غارات الحلفاء وأحكام الإعدام) أدت معاً إلى موت ٨٨,٥٦٨ ألفاً، وهو عدد يشكل ١٩٪ من مجموع سكان جيتو وارسو البالغ عددهم خمسمائة ألف، مما يعنى أنه كان من الممكن إبادة كل سكان الجيتو خلال ثمانية أعوام دون أفران غاز . ويمكن أن نضيف أن هذه العملية كانت ستتسارع نحو النهاية بسبب زيادة ضعف وهزال سكان الجيتو، ولذا فإن ما بين خمس إلى ست سنوات كانت كافية فى تصورنا لإتمام هذه العملية .

وعلاقة الدولة النازية بدويلة - جيتو وارسو كانت علاقة كولونيالية لا تختلف كثيراً عن علاقة إنجلترا بمستعمراتها أو علاقة الدولة الصهيونية بالضفة الغربية . وربما كان الفارق الأساسى هو درجة التحكم، إذ أن جيتو وارسو كان كياناً صغيراً متخلفاً، ومن ثم كان يمكن التحكم فيه بدرجة كاملة أو شبه كاملة، على عكس الضفة الغربية حيث يوجد كيان حضارى مركب يعود إلى أعماق آلاف السنين ويتسم بتجذره، الأمر الذى يجعل مصادر الحياة فيه متنوعة . وكل هذا يجعل التحكم فيه صعباً إن لم يكن مستحيلاً .

مستوطنة تيريس ينشتات النموذجية

أما التجربة الثانية من تجارب الحكم الذاتى التى تهمنا فهى تجربة مستوطنة تيريس ينشتات النموذجية Thereseinstadt . التى أُسِّت عام ١٩٤١ واستمرت حتى عام ١٩٤٥ . وقد رُحِّل إليها حوالى ١٥٠,٠٠٠ يهودى من وسط أوروبا وغربها من المتميزين أو المسنين أو اليهود من أبناء الزيجات المختلطة . وقد أيد زعماء الجماعة اليهودية فى تشيكوسلوفاكيا الخطة، باعتبار أن هذا كان يعنى أن يهود تشيكوسلوفاكيا سيقبضون فى وطنهم . ويقال أن الهدف النازى من تأسيس هذه

المستوطنة النموذجية كان إعلامياً بحيث تقدم للإعلام العالمى باعتبارها مثلاً على "حياة اليهود الجديدة تحت حماية الرايخ الثالث" (وهو اسم أحد الأفلام التى صُورت فى المستوطنة).

وقد أدار المستوطنة مجلس من الكبراء يضم القادة اليهود ويترأسه أحد كبراء اليهود كانت تعينه السلطات الألمانية . وقد تمتعت المستوطنة بحريات كثيرة، فقد كان لها نظامها التعليمى ونظامها البريدى المستقل ومكتباتها وهويتها الثقافية . ومن ثم، كانت من مسئوليات مجلس الكبراء الحفاظ على النظام فى المستوطنة وتوزيع العمل فيها وتوطين المستوطنين الجدد والعناية بالصحة وبالمسنين والأطفال والإشراف على النشاط الثقافى . كما كان يتبع المستوطنة نظام قضائى مستقل (أى أن تيريس ينشآت كانت تتمتع بالحكم الذاتى) . وقد سمحت السلطات النازية لسلطات الصليب الأحمر بزيارة المستوطنة وبالاجتماع بمجلس الكبراء .

وقد رُحِّل حوالى ٩٣٧ , ١٤٠ يهودياً إلى مستوطنة تيريس ينشآت من بينهم ٣٣, ٥٢٩ ماتوا فيها، أى حوالى ٢٥٪، ورُحِّل حوالى ١٩٦ , ٨٨ إلى معسكرات الاعتقال والإبادة، وكان يوجد فيها ٢٤٧ , ١٧ حين تم تحرير المستوطنة .

ولا تختلف علاقة المستوطنة بالسلطات النازية عن علاقة أى دولة فى العالم الثالث بالقوة الإمبريالية التى تحكمها، والحريات التى كان يتمتع بها سكان المستوطنة لا تزيد كثيراً عن تلك التى تعرضها الحكومة الصهيونية على سكان الضفة الغربية باسم الحكم الذاتى .

ولعل مزيداً من دراسة مثل هذه «الدول المستقلة» ذات الأعلام وطوابع البريد تلقى مزيداً من الضوء على التفكير الصهيونى بخصوص مستقبل فلسطين والفلسطينيين . وهذا أمر يجب أن يضعه الفلسطينيون نصب أعينهم . وعلى كلٍ هناك تجارب جنوب أفريقيا فى هذا المجال حين أقامت كانتونات السكان الأصليين التى كانت تُسمى «البانتوستان» .

٤ - الإدراك الغربي والصهيوني

لحروب الفرنجة (الصليبيين)

على الرغم من أن حروب الفرنجة ظاهرة مرتبطة بالتشكيل الحضاري الغربي في العصر الوسيط، فقد ساهمت هذه الحروب وبعمق في صياغة الإدراك الغربي لفلسطين والعرب . ولا يملك الدارس إلا أن يلاحظ عمق التشابه بين المشروع الفرنجي والمشروع الصهيوني الإسرائيلي، وهذا أمر متوقع لأن كليهما جزء من المواجهة المستمرة بين التشكيلين الحضاريين السائدين في الغرب والشرق العربي، كما أن حملات الفرنجة هي نقطة انطلاق أوربا نحو التوسع والإصرار على بسط سيطرتها على الخارج .

إمبريالية جنينية

وقد احتوت حملات الفرنجة على أجنة كافة أشكال الإمبريالية الأوربية التي حكمت فيما بعد حياة جميع شعوب العالم (على حد قول أحد المؤرخين الغربيين لحملات الفرنجة) . ولهذا، أصبحت حملات الفرنجة استخداماً مجازياً أساسياً في الخطاب الاستعماري الغربي، وأصبحت ديباجتها هي ديباجة المشروع الاستعماري الغربي . وقد رأى كثير من المدافعين عن المشروع الصهيوني، من اليهود وغير اليهود، أنه استمرار وإحياء للمشروع الصليبي أي الفرنجي ومحاولة وضعه موضع التنفيذ من جديد في العصر الحديث . فقد ألف سي . آر . كوندرا في عام ١٨٩٧، وهو صهيوني غير يهودي ومؤسس صندوق استكشاف فلسطين، كتاباً عن تاريخ المملكة اللاتينية في القدس أشار فيه إلى أن الإمبريالية الغربية قد نجحت فيما أخفقت فيه الحملات الصليبية أي حملات الفرنجة . والواقع أن تصويره هذا يشبه في كثير من الوجوه تصور الصحافة البريطانية وكذلك تصور بعض أعضاء النخبة الحاكمة في بريطانيا بأن هجوم أللبي على القدس يساوي حملة صليبية أخرى . وقد صرح لويد جورج رئيس الوزراء البريطاني آنذاك، والذي أصدرت وزارته وعد

بلفور، أن اللبني شن وريح آخر الحملات الصليبية وأعظمها انتصاراً . ويمكننا أن نقول أن المشروع الصهيوني هو نفسه المشروع الفرنسي بعد أن تمت علمته، وبعد أن تم إحلال المادة البشرية اليهودية التي تم تحديثها وتطبيعها وتغريبها وعلمنتها محل المادة البشرية المسيحية .

وقد لاحظ روبرت برنارد سولومون، وهو ضابط إنجليزي ورئيس الاتحاد الصهيوني البريطاني، أوجه التشابه بين المشروعين الفرنسي والصهيوني في دراسة له نشرها في جويش ريفيو عام ١٩١٢ تحت عنوان «مستعمرات القرن الثاني عشر في فلسطين» حيث أكد أن المشكلات التي واجهها المستوطنون الفرنجة ونجحوا في التغلب عليها تشبه من نواح كثيرة تلك المشكلات التي تواجه المستوطنين الصهاينة في فلسطين ثم أخذ في تعداد هذه النواحي . كما أشار إلى العوامل التي أدت إلى انهيار ممالك الفرنجة بعبارة "المؤثرات الشرقية التي أدت إلى الانحلال" ليحذر المستوطنين الجدد منها .

بعض جوانب الشبه

فلنحاول حصر جوانب الشبه بين التجربتين الفرنسية والصهيونية، وتصنيفها تحت رؤوس موضوعات قد تكون متداخلة ولكنها مع هذا تيسر لنا عملية تقسيم هذه الأوجه والتعامل معها . ولعل نقطة التشابه الأساسية ذات طابع جغرافي ففلسطين هي النقطة المستهدفة في كل من المشروعين الفرنسي والصهيوني . ويبدو أن فلسطين مستهدفة دائماً من صناعات الإمبراطوريات إذ أنها تُعدُّ مفتاحاً أساسياً لآسيا وأفريقيا، وتُعدُّ معبراً على البحرين الأحمر والأبيض، وتقف على مشارف الطرق البرية التي تؤدي إلى العراق وإيران، وهي أيضاً معبراً أساسياً لشطري العالم الإسلامي . وفلسطين في واقع الأمر ليست سوى جزء من ساحل طويل يضم سوريا ومصر، يشكل فاصلاً بين البحر المتوسط في الغرب والمحيط الهندي في الشرق . ويُعدُّ هذا الموقع، بالتالي، فاصلاً بين مراكز النشاط في أوروبا الغربية والشرق الأقصى . كل هذا يبين تشابك المصير بين سوريا ومصر من جهة

وفلسطين من جهة أخرى، خصوصاً وأن الكثافة السكانية لمصر جعلتها دائماً المرشحة لقيادة المنطقة بأسرها في صراعها ضد الغزوات الغربية . ويُلاحَظ أن كلاً من المشروعين الفرنجي والصهيوني اكتشف أنه لا بد، لحسم الصراع لصالحه، من ضرب مصر أو على الأقل تحييدها .

والواقع أن الغزاة الاستيطانيين عادةً ما يسلكون طريق البحر، ثم تستقر الجيوب الاستيطانية على الساحل أو تحتفظ بركيزتها الأساسية فيه كما حدث في جنوب أفريقيا والجزائر . وكذلك، فإن الغزوتين الفرنجية والصهيونية سلكتا نفس الطريق البحري واحتلتا أجزاء من نفس الشريط البحري، وإن كان الشريط الذي احتله الفرنجة أكثر طولاً من الشريط الذي احتله الصهاينة .

أما من الناحية التاريخية، فيمكن القول أن ثمة تشابهاً بين وضع العالمين العربي والإسلامي في القرن الحادي عشر ووضعهما في أواخر القرن التاسع عشر، فقد كانا في حالة انقسام وتراجع وتجزئة . فالخلافة الفاطمية في مصر كانت في حالة مواجهة مع الخلافة العباسية في العراق، وقد اقتسما فيما بينهما العالم الإسلامي . وكان النظامان العباسي والفاطمي يعانيان من الصراعات الداخلية والمؤامرات . وهما، في هذا، يشبهان النظام السياسي العربي المعاصر، المتجزئ، المنقسم على نفسه، المتصارع مع ذاته .

والغزوتان الفرنجية والصهيونية تهدفان إلى حل بعض مشاكل المجتمع الغربي والتخفيف من حدة تناقضاته . فالمجتمع الوسيط الغربي كان يخوض عملية بعث اقتصادي فتحت شهيته للاستيلاء على طرق التجارة المتجهة إلى الشرق . وهذا يشبه من بعض الوجوه، وإن كان بدرجة أقل، انفتاح شهية رجل أوروبا الشره في القرن التاسع عشر الميلادي الذي لم يهدأ له بال إلا بعد أن وقع العالم كله في قبضته . وقد استخدمت أوروبا كلا المشروعين، الفرنجي والصهيوني، في التخلص مما أطلق عليه في القرن التاسع عشر الميلادي «الفائض البشري»، أي العناصر التي لم تستطع أن تحقق الحراك الاجتماعي داخل مجتمعاتها ولذا كانت تهدد السلام

الاجتماعي وكان لابد من تصديرها للشرق حتى يحقق الغرب سلاماً اجتماعياً داخلياً . فالمشروع الفرنجي كان يهدف أيضاً إلى تخليص أوروبا من فائضها البشري الذي كان يهدد سلامها الاجتماعي حسب تصور البعض على الأقل .

استعمار استيطاني إحلالي

ومن نقط التشابه الأخرى أن المشروعين الفرنسي والصهيوني مشروعان استعماريان من النوع الاستيطاني الإحلالي . فالمشروع الفرنجي كان يهدف إلى تكوين جيوب بشرية غربية وممالك فرنجية تدين بالولاء الكامل للعالم الغربي . ولذا، لم تأت الجيوش وحسب، وإنما أتى معها العنصر البشري الغربي المسيحي ليحل محل العنصر البشري العربي الإسلامي . وهو في هذا لا يختلف عن المشروع الصهيوني إلا في بعض التفاصيل . فغزو فلسطين تم أولاً على يد القوات البريطانية، ثم حضر المستوطنون الصهاينة بعد ذلك بوصفهم عنصراً يقوم بالزراعة والقتال . وقد كانت المؤسسات الاقتصادية للفرنجة، مثلها مثل قرينتها الإسرائيلية، تتسم بطابع عسكري . كما أن التنظيم الاقتصادي التعاوني لم يكن مجهولاً لدى الفرنجة . ويمكن القول أن دويلات الفرنجة، مثلها مثل الدولة الصهيونية، كانت ترسانات عسكرية في حالة تأهب دائم للدفاع عن النفس وللتوسع كلما سنحت لها الفرصة . ويُلاحظ أن كلاً من ممالك الفرنجة والدولة الصهيونية، بسبب طبيعتها الإحلالية، خلقت مشكلة لاجئين . كما يُلاحظ أن هؤلاء اللاجئين تحولوا إلى الوقود الذي جند سكان المنطقة ضد الدولة القلعة .

ومن المعروف أن الكيانات الاستيطانية لا تفقد صلتها قط بالوطن الأم بل تعتمد عليه اعتماداً يكاد يكون كاملاً. لأنها، بسبب تناقضها الجوهرية مع البيئة المحلية التي تلتفها، تستمد مقومات الحياة من دعم عسكري ومالي وهوية ثقافية ومادة بشرية من وطنها الأصلي . وهذه سمة أساسية في الكيانين الفرنسي والصهيوني، مع تنويعات فرعية تنصرف إلى التفاصيل لا الجوهر . فمثلاً اعتمدت ممالك الفرنجة على كل أوروبا كمصدر للدعم، ولكن اعتمادها كان على فرنسا بالدرجة الأولى .

وكذلك، فإن الدولة الصهيونية التي اعتبرت أوروبا قاعدتها الإستراتيجية واعتمدت على معظم دول العالم الغربي الرأسمالي مع التركيز على بلد واحد هو إنجلترا ثم فرنسا لفترة قصيرة وأخيراً الولايات المتحدة منذ منتصف الستينيات . ومع سقوط الاشتراكية في الاتحاد السوفيتي تطرح الدولة الصهيونية نفسها باعتبارها قاعدة للحضارة الغربية كلها في مواجهة العالم الإسلامي . ويشير أحد الدارسين الإسرائيليين إلى أنه كان هناك جباية فرنجية موحدة تماماً مثل الجباية اليهودية الموحدة .

وقد جاءت المادة البشرية لكلا المشروعين من العالم الغربي . ولكنهما، مع هذا، لم يحققا التجانس العرقي المطلوب لتحقيق شيء من التوازن داخل التجمع الاستيطاني، فتولدت درجة عالية من التوتر . فمالك الفرنجة كانت تضم في بادئ الأمر عنصراً فرنسياً غالباً بالإضافة إلى عنصر إيطالي انقسم بدوره إلى جنوي وبندقي نسبة إلى جنوة والبندقية . ولكن عناصر أخرى انضمت إلى هذين العنصرين، مثل : الأرمن وبعض العناصر المسيحية المحلية والمسلمين الذين تنصروا. كما أن ممالك الفرنجة ذاتها استوعبت، بمرور الزمن، العناصر الثقافية من البيئة المحلية . ولكن، ومع هذا، يمكن القول أن ممالك الفرنجة احتفظت بقدر من التجانس أعلى بكثير مما حققه الكيان الصهيوني . فهذه الممالك ظلت فرنجية (فرنسية)، كما أن أعضاء النخبة الحاكمة التي كانت عناصرها الأساسية من الفرنجة ظلت متماسكة، وكذلك كانت الهوية الثقافية مستمدة من فرنسا . ويُلاحظ أن أوروبا في ذلك الوقت لم تكن قد انقسمت بعد إلى كيانات قومية لكل منها لغتها، وكانت اللاتينية هي لغة العبادة والفكر . وكان التشكيل الحضاري يتمتع بشيء من الوحدة الثقافية، على الأقل، بالقياس إلى فترة التفتت القومي التي بدأت بعصر النهضة .

وقد حاول التجمع الصهيوني أن يحتفظ بهوية أشكنازية متجانسة تستند إلى تجربة شرق أوروبا . ولكن أوروبا، في القرن التاسع عشر الميلادي، كان تشكيلها

الحضاري مقسماً إلى كيانات قومية مختلفة تتحدث لغات مختلفة، فجاء يهود من المجر ورومانيا وألمانيا وإنجلترا وفرنسا، كلٌ يتحدث لغته . وجاء من شرق أوروبا ذاتها أنواع غير متجانسة، فثمة يهود جاءوا من بولندا يتحدثون البولندية، وآخرون جاءوا من رومانيا يتحدثون الرومانية، ومن روسيا جاء من يتحدث الروسية إلى جانب الأغلبية التي تتحدث اليديشية . كما كان النسق الديني اليهودي في حالة تفتت وتراجع ومن ثم نجد أن هناك يهوداً أرثوذكساً ويهوداً إصلاحيين أو محافظين أو قرائين . . . إلخ . ثم اجتاحت التجمع الصهيوني الكثافة السكانية الوافدة من العالمين العربي والإسلامي والتي غيرت من بنيته السكانية وتوجهه الثقافي بحيث أصبحت أغلبية العنصر اليهودي شرعية تحكمها أقلية أشكنازية . ولكن الدولة الصهيونية تحاول مع هذا أن تحتفظ بالتوجه الأشكنازي للمجتمع، إذ يتضح هذا في تشجيع الهجرة من الاتحاد السوفيتي وفي المناخ الثقافي الذي تفرضه المؤسسة الحاكمة، وهذا الوضع يولد الكثير من التوتر .

ويلاحظ الصحفي الإسرائيلي يوري أفيري أن كلاً من التجمعين الفرنجي والصهيوني تكون من ثلاث طبقات ذات طابع عرقي : الطبقة الحاكمة من المسيحيين الغربيين في دويلات الفرنجة يقابلها اليهود الأشكناز في الدولة الصهيونية . ثم يأتي في المرتبة الثانية مواطنو الدرجة الثانية من المسيحيين الشرقيين في دويلات الفرنجة يقابلهم اليهود الشرقيون في الدولة الصهيونية . وأخيراً يأتي مواطنو الدرجة الثالثة وهم المسلمون واليهود وبعض المسيحيين العرب في دويلات الفرنجة، والمسلمون والمسيحيون العرب في الدولة الصهيونية .

مجتمع مشتول

والمجتمع الاستيطاني مجتمع مزروع أو مشتول في العادة، فهو يأخذ شكل الدولة الجيتو أو الدولة القلعة . ونشير له الآن بأنه الدولة الشتل . والشتل هي المدن الصغيرة التي أسسها النبلاء البولنديون (شلاختا) في أوكرانيا لأعضاء الجماعات اليهودية ليقوموا بدورهم الذي أوكل إليهم في جمع الضرائب

والإيجارات والإشراف على إدارة ضياع هؤلاء النبلاء حيث كانت تحميهم القوة العسكرية البولندية . وهذا المجتمع منعزل عن بيئته وينصرف جزء كبير من نشاطه إلى عملية القتال ضد السكان المحليين . وهذه مسألة ليست عرضية وإنما هي مسألة جوهرية وتنبع من الوظيفة ذاتها . والعالم الغربي يزود الجيوب الاستيطانية بالعون ومقومات الحياة حتى تظل ركيزة لنشاطاته الإمبريالية والتوسعية . وينطبق هذا الوضع على الجيبيين الفرنسي والصهيوني ، وإن كان يبدو أن الدعم الغربي للجيب الصهيوني يفوق الدعم الغربي للجيب الفرنسي . ولعل هذا يعود إلى أن الغرب أدرك وظيفة الجيب الصهيوني كاستثمار إستراتيجي يأتي بعائد اقتصادي غير مباشر عن طريق تهدة المنطقة وليس كاستثمار اقتصادي يأتي بعائد اقتصادي مباشر . وربما لم تكن لدى أوروبا في العصور الوسطى الرؤية الإستراتيجية الشاملة التي يمتلكها الغرب في الوقت الحاضر .

ويبدو أن أزمة التجمع الفرنسي لا تختلف عن أزمة التجمع الصهيوني . فيلاحظ أن الكيان الفرنسي كان يعاني من أزمة سكانية لا تختلف كثيراً عن أزمة المستوطن الصهيوني ، وذلك نظراً لانخفاض عدد سكان أوروبا عام ١٣٠٠ بعد انتهاء فترة تزايد السكان ، الأمر الذي أدّى إلى عدم مجيء المزيد من المادة البشرية ، كما كان الكيان الفرنسي يعاني من تناقص نسبة المواليد . وكان كثير من الأراضي التي ضمها الفرنجة يزرعها سكانها الأصليون العرب . بل إن بعض الأقبان الذين جاءوا مع حملات الفرنجة اشتغلوا بأعمال أخرى غير الزراعة ، نظراً لعدم درايتهم بالتربة وربما لتفتح فرص اقتصادية أخرى بحيث أمكنهم العمل في التجارة . وهذا يشبه الزحف التدريجي للعرب على الزراعة داخل المستوطن الصهيوني بما في ذلك الكيبوتسات ، وتحول المستوطنين الصهاينة إلى مهام أخرى غير الزراعة .

الديباجات والقصد

ولا تنحصر نقاط التشابه بين المشروعين الفرنجي والصهيوني في الظروف الاجتماعية والجغرافية المحيطة بكل منهما، ولا في بنية الكيانين فقط، وإنما تمتد نقاط التشابه هذه لتضم الديباجات والقصد . فقد قدمت تبريرات للمشروعين وتم الدفاع عنهما عن طريق ديباجات دينية تستخدم الرموز الدينية وتوظفها في عملية التعبئة العسكرية . والرموز الدينية المستخدمة هي في واقع الأمر رموز عرقية أو إثنية أو قومية على الرغم من طلائها الديني اللامع . ويتبدى هذا في واقع أنه لا حملات الفرنجة ولا الحملة الصهيونية تحتكم إلى القيم الأخلاقية المسيحية أو اليهودية، ولا يوجد لدى أي منهما استعداد لأن يُقيم سلوك المقاتلين التابعين لها من منظور مسيحي أو يهودي . فلم يكن الصليب في الحروب التي يقال لها «صليبية» رمزاً للنسق الديني المسيحي وإنما كان رمزاً للهوية الإثنية الغربية المغرقة في الدنيوية، كما أن نجمة داود كان يستخدمها الصهاينة الذين لا يعرفون إلا القليل عن الدين اليهودي ولا علاقة لهم بالنسق الديني اليهودي . فالحملات التي يقال لها «صليبية»، أو تلك التي يقال لها « صهيونية»، هي إذن تعبير عن قوى غير دينية استولت على الرموز الدينية ووظفتها مثلما استولت فيما بعد على الأراضي وقتلت أصحابها .

ومن هنا كانت عنصرية الديباجات الصليبية والصهيونية . ومن هنا أيضاً كان تمييزها الحاد بين البشر وتقسيمهم إلى أدنى وأعلى، أو حاضر وغائب، أو فئة لها كافة الحقوق وفئة لا حقوق لها على الإطلاق . . . إلخ . وهذا مختلف تماماً عن إيمان الديانات التوحيدية الثلاث بالمساواة بين البشر والتي تصدر عن الإيمان بأننا نولد جميعاً من آدم وآدم من تراب .

ويُلاحظ أن ديباجات الفرنجة والصهاينة ترى غزو فلسطين في إطار فكرة أن الغزاة شعب مقدس أو مختار . وكان يسيطر على كل من الفرنجة والصهاينة تفكير نخبوي يجعل زعماءهم ينظرون إلى أنفسهم على أنهم طلائع شعوبهم التي

ستحمل السلاح لتخلص الأرض المقدسة، وأن هذه الحملة العسكرية إن هي إلا خروج ثانٍ يشبه خروج العبرانيين من مصر إلى كنعان . وقد ارتبطت الديباجات في كلا المشروعين بالأحلام الألفية في استرجاع فلسطين بعد عودة المسيح أو تمهيداً لعودته .

حملات الفرنجة في الوجدان

نظراً للتشابه بين المشروعين الفرنجي والصهيوني، ونظراً لأن كليهما اتخذ فلسطين ساحة لتنفيذ أحلامه، نجد أن الوجدان الصهيوني منشغل إلى أقصى حد بالمشروع الفرنجي، خصوصاً وأن الفرنجة قد رحلوا ولم يتركوا شيئاً خلفهم سوى بعض القلاع التي يزورها السائحون ويدرسها علماء الآثار من الإسرائيليين والعرب. ويحاول الدارسون الصهاينة أن ينظروا إلى مشروع الفرنجة من منظور ما يسمونه «التاريخ اليهودي» وكأن حملات الفرنجة جردت بالدرجة الأولى ضد اليهود، تماماً مثلما يمنحون مركزية للجماعات اليهودية في كل الأحداث التاريخية . وتحدث الكتابات الصهيونية الإسرائيلية عن ضحايا حملات الفرنجة وكأنهم هم الضحايا الوحيدون، بل وتدعى بعضها دوراً يهودياً مستقلاً في صد الفرنجة، وهو الأمر الذي يتنافى تماماً مع حقائق التاريخ، ومع ما ورد في كتابات بعض الرحالة اليهود المعاصرين مثل بنيامين التوديللي، فإن مدينة صور كانت (في عام ١١٧٠) تضم خمسمائة يهودي على حين كانت كلٌّ من عكا وقيصرية تضم مائتين، وكانت عسقلون تضم مائتي يهودي حاخامي . وتشير موسوعة التاريخ اليهودي إلى أن هذه هي الجماعات اليهودية الكبيرة ! ويذكر العالم اليهودي الإسباني موسى بن نحمان (نحمانيدس) أنه وجد في القدس عام ١٢٦٧ يهوديين اثنين فقط .

ولكن أهم جوانب الاهتمام الصهيوني الإسرائيلي بالكيان الفرنجي هو دراسته من منظور الصراع العربي الإسرائيلي، بمعنى عقد الدراسات المقارنة في مشاكل الاستيطان ومشاكل الموارد البشرية والعلاقات الدولية فضلاً عن محاولة فهم عوامل الإخفاق والفشل التي أودت بالكيان الفرنجي . وهناك من يهتم بدراسة

المقومات البشرية والاقتصادية والعسكرية للكيان الفرنجي ، ومن يهتم برصد العلاقة بين هذا الكيان والكيان الأوربي المساند له . وقد وجه فريق من الباحثين اليهود اهتمامه لدراسة مشكلات الاستيطان والهجرة .

ولكن الاهتمام لا يقتصر على الدوائر الأكاديمية ، فنجد أن شخصيات سياسية عامة مثل رابين وديان وأفيري يهتمون بمشاكل الاستيطان والهجرة . ففي سبتمبر ١٩٧٠ ، عقد إسحق رابين مقارنة بين ممالك الفرنجة والدولة الصهيونية حيث توصل إلى أن الخطر الأساسي الذي يهدد إسرائيل هو تجميد الهجرة ، وأن هذا هو الذي سيؤدي إلى اضمحلال الدولة بسبب عدم سريان دم جديد فيها . ويعقد أفيري في كتابه إسرائيل بدون صهيونية (١٩٦٨) مقارنة مستفيضة بين ممالك الفرنجة والدولة الصهيونية لا تختلف كثيراً عن المقارنة التي عقدناها في الجزء الخاص بهذا الموضوع والذي استفدنا فيه بتحليله الذكي . ولكن أفيري يخلص إلى أن المقارنة درس لا بد وأن يتعلم منه الصهاينة ، فإسرائيل مثل ممالك الفرنجة محاصرة عسكرياً لا لأن هذا هو المصير الموعود (الذي لا مفر منه) كما يتصور بعض الصهاينة ، وإنما هي محاصرة عسكرياً لأنها تجاهلت الوجود الفلسطيني ورفضت الاعتراف بأن أرض الميعاد يقطنها العرب منذ مئات السنين .

وقد عاد أفيري إلى الموضوع ، عام ١٩٨٣ ، بعد الغزو الصهيوني للبنان ، في مقال نشر في هاعولام هزه بعنوان "ماذا ستكون النهاية" فأشار إلى أن ممالك الفرنجة احتلت رقعة من الأرض أوسع من تلك التي احتلتها الدولة الصهيونية ، وأن الفرنجة كانوا قادرين على كل شيء إلا العيش في سلام ، لأن الحلول الوسط والتعايش السلمي كانا غريبين على التكوين الأساسي للحركة . وحينما كان يقوم جيل جديد يطالب بالسلام كانت مجهوداتهم تضع سدى مع قدوم تيارات جديدة من المستوطنين ، مما يعني أن ممالك الفرنجة لم تفقد قط طابعها الاستيطاني . كما أن المؤسسة العسكرية الاقتصادية للفرنجة قامت بدور فعال في القضاء على محاولات السلام ، فاستمر التوسع الفرنجي على مدى جيل أو جيلين . ثم بدأ الإرهاق يحل

بهم، وزاد التوتر بين المسيحيين الفرنجة من جهة وأبناء الطوائف الشرقية من جهة أخرى، الأمر الذي أضعف المجتمع الاستيطاني للفرنجة، كما ضعف الدعم المالي والسكاني من الغرب . وفي الوقت ذاته، بدأ بعث إسلامي جديد، وبدأت الحركة للإجهاز على ممالك الفرنجة، فأوجد المسلمون طرقاً تجارية بديلة عن تلك التي استولى عليها الفرنجة . وبعد موت الأجيال الأولى من أعضاء النخبة في الممالك، حل محلهم ورثة ضعفاء في وقت ظهر فيه سلسلة من القادة المسلمين العظماء ابتداءً من صلاح الدين ذي الشخصية الأسطورية حتى الظاهر بيبرس . وظل ميزان القوى يميل لغير صالح الفرنجة، كما لم يكن هناك ما يوقف هزيمتهم النهائية . وقد ترك هذا الحدث التاريخي بصماته وآثاره على وعي شعوب المنطقة حتى اليوم .

والواقع أن اهتمام المستوطنين الصهاينة بممالك الفرنجة هو تعبير عن إدراك أولي لطبيعة دورهم في المنطقة كدولة وظيفية تكون مجرد أداة في يد قوى عظمى خارجية، وهو إحساس يشوبه قسط كبير من القدرية والعدمية الناجمة عن إحساس الأداة بأنها لا تمتلك ناصية أمورها ولا تسيطر على مصيرها أو قدرها .

الفصل الرابع

فى تفكيك الإدراك الصهيونى

- ١ - معاداة اليهود: تفكيك وتركيب ثلاث حالات
- ٢ - الصهيونية والرومانسية: إعادة التفكير فى طرق التفكير
- ٣ - الإدراك والمقدرة التنبئية للنموذج

١ - معاداة اليهود: تفكيك وتركيب ثلاث حالات

في الفصول الثلاثة السابقة تناولنا كيف يؤثر الإدراك في سلوك البشر، كما تناولنا طبيعة الإدراك الصهيوني الإسرائيلي للعرب. ويمكننا أن نتقدم خطوة للأمام في هذا الفصل ونقوم بتفكيك هذا الإدراك الصهيوني لنرى كيف يتشكل وكيف يعيد صياغة الواقع. وقد نجح الصهاينة في إشاعة إدراكهم للواقع عن طريق تناول أحداث ووقائع وأساطير العداء لليهودية، بعد تجريدها من سياقها التاريخي والاجتماعي والإنساني بحيث يمكنهم فرض معنى صهيوني عليها. وهذا ما يمكن أن يحدث لأية واقعة تاريخية تتحول إلى مجرد واقعة ليس لها أبعاد تاريخية. وقد تسرب هذا الإدراك الصهيوني إلى وجداننا وأصبح - دون أن نعي؟ - جزءاً من ترسانتنا الإدراكية. وفي هذا الجزء سنتناول ثلاث وقائع عادة ما يشير لها الصهاينة في كتاباتهم، وسنحاول أن نبين كيف يفرضون الدلالة الصهيونية عليها، أي أننا سنقوم بعملية تفكيكية توضح لنا النماذج الإدراكية الصهيونية الكامنة وكيف تنجح هذه النماذج في أن تعيد صياغة الواقع واختزاله بما يخدم الرؤية والمصالح الصهيونية. ولكننا في هذه الدراسة لن نقف عند هذا الحد بل سنقوم بعملية تركيبية وسنحاول أن نطرح تصوراً أكثر عمقا وإنسانية وتفسيرية لنفس الوقائع والأحداث، وسننجز ذلك عن طريق ربط الوقائع التي وردت في الكتابات الصهيونية بوقائع أخرى استبعدتها الصهاينة بحيث تظهر الأنماط التاريخية الإنسانية العامة. كما أننا سنضع هذه الوقائع في سياقها التاريخي والإنساني وبذلك تكسب معناها التاريخ الإنساني الأعمق الذي يحرص الصهاينة على حجبها.

الوقائع الثلاث

أولى الوقائع هو مايسمى بـ «تهمة الدم» أى اتهام اليهود بأنهم يقتلون صبيّاً مسيحياً فى عيد الفصح، سخرية واستهزاء من صلب المسيح. ونظراً إلى أن عيد الفصح المسيحى واليهودى قريبان، فقد تطوّرت التهمة وأصبح الاعتقاد بأن اليهود يستعملون دماء ضحيتهم فى طقوسهم الدينية وأعيادهم، وخصوصاً فى عيد الفصح اليهودى الذى أشيع أن خبز الفطير غير المخمر (الماتزوت) الذى يؤكل فيه يعجن بدماء الضحية.

وتمتد جذور تهمة الدم إلى عصر الأغريق والرومان، أى إلى ما قبل العصور المسيحية. فقد أتى فى كتابات آبيون الهيلينى (السكندرى) وديمقريطس الرومانى إشارة إلى أن اليهود يقدمون ضحايا بشرية الى آلهتهم. ولكن هذا الادعاء لم يصبح جزءاً من صورة اليهود الذهنية، ولم توجه هذه التهمة إليهم بشكل متكرر إلا فى القرون الوسطى المسيحية فى العالم الغربى.

وقد وجهت أول تهمة دم فى القرن الثانى عشر فى انكلترا، فى وقت كان اليهود يمارسون نشاطهم التجارى والمالى، ممّا كان يعنى أن أفراداً كثيرين اقترضوا أموالاً من المرابى اليهودى، ولم ينجحوا فى تسديدها. وآلت ملكية بعض أراضيهم أو ربما منازلهم الى المرابى. وقد اتهم اليهود حينذاك بأنهم ذبحوا طفلاً عمره أربعة أعوام ونصف العام، يدعى وليام فى الجمعة الحزينة فى عام ١١٤٤. وقد قال أحد اليهود المنتصرين أن هذا هو عيد الفصح الذى تقوم فيه إحدى الجماعات اليهودية فى إحدى مدن أوروبا بذبح طفل مسيحى (وقد نُصّب وليام قديساً فيما بعد). ثم وُجّهت تهم دم أخرى فى مناطق مختلفة فى إنجلترا، بين العامين ١١٦٨ و ١١٩٢. وقد انتشرت التهمة إلى فرنسا، فوجّهت التهمة فى بلوا، فى العام ١١٧١. كما وجهت التهمة إلى اليهود خمس عشرة مرة فى القرن الثالث عشر، ومن بينها حالة هيومن لنكولن (١٢٥٥) التى يذكرها تشوسر فى حكايات

كانتربرى . وقد استمر توجيه التهمة حتى منتصف القرن العشرين ، ومن أشهرها
حادثة دمشق (١٨٤٠) وقضية بيليس (١٩١٣) . وتعد حادثة دمشق استثناء في أنها
حدثت في العالم الاسلامى ؛ اذ أنها تكاد تكون ظاهرة مقصورة على العالم
المسيحى . وكانت تهمة الدم تأخذ عادة الشكل التالى : يختفى شخص مسيحى (فى
العادة طفل) أو يوجد ميتاً ، فيتذكر أحد الأشخاص أن هذا الطفل شوهد آخر مرة
بجوار الحى اليهودى أو أن هناك عيداً يهودياً ما (تتطلب شعائره دم نصرانى)
فيوجه إلى اليهود تهمة قتله ويتم القبض على بعض أعضاء الجماعة اليهودية ،
ويتم تعذيبهم ثم شق بعضهم .

أما الواقعة الثانية ، فهي حادثة دريفوس الشهيرة ، وبطلها هو الفريد دريفوس
الذى كان من كبار الضباط الفرنسيين وكان اليهودى الوحيد فى هيئة أركان الجيش
الفرنسى ، وقد ولد دريفوس فى الالزاس لامرأة يهودية ثرية مندمجة فى محيطها
الفرنسى . ونظرا إلى إن اسمه كان فلهاوزن ، وهو اسم ألمانى النكهة ، فقد غيره
الى اسمه الفرنسى الذى اشتهر به . وقد اتهم دريفوس بأنه أعطى وثائق سرية
عسكرية للملحق العسكرى الألمانى فى باريس ، فوجهت إليه تهمة الخيانة العظمى
والتجسس لحساب ألمانيا فى عام ١٨٨٤ . وقد قامت السلطات العسكرية بمحاكمته .
وتابعت الصحافة المعادية لليهود آنذاك الأحداث . وكانت تعبئ الرأى العام ضد
دريفوس ، مما خلق جواً غير ملائم لضمان حياد المحاكمة . وفى نهاية الأمر ، قضت
المحكمة عليه بالسجن مدى الحياة ، وجرد من رتبته علناً أمام الجماهير ، ونفى إلى
« جزيرة الشيطان » (ديفلز ايلاند) التى تقع على الساحل الأفريقى . وكانت مستعمرة
من قبل فرنسا . وقد رحبت الصحافة المعادية لليهود بالحكم .

أما الواقعة الثالثة ، فهي حادثة ليوفرانك ، وهو يهودى أمريكى ولد فى تكساس
ونشأ فى بروكلين . وكان يعمل مديراً لمصنع أقلام فى اتلانتا جورجيا ، حيث قبض
عليه بتهمة قتل فتاة بيضاء عمرها ١٣ عاماً ، تدعى مارى فيغان ، بعد محاولة
اغتصابها . وقد حوكم فرانك وأُصدر حكم بإعدامه ويقال أن كونه يهودى كان

عنصراً هاماً أثر في محاكمته وفي الأحداث التي تلتها. وحينما خفف حاكم الولاية الحكم إلى السجن مدى الحياة، هاجمت مجموعة من المواطنين السجن واختطفوا فرانك وشنقته في المدينة التي ولدت ودفنت فيها ضحيته المفترضة، وهو ما يسمى في اللهجة الانكليزية - الأمريكية Lynching

«تهمة الدم» في سياقها التاريخي

وترد الوقائع الثلاث السابقة في الكتابات الصهيونية بهذا التجريد. والنتائج التي يستخلصها القارئ، أو التي تُستخلص له، هي أن اليهود لا ينتمون إلى مجتمعاتهم؛ إذ أن مجتمعات الأغيار تنبذهم وتضطهدهم، لا لذنوب اقترفوها سوى لأنهم «يهود». والفارق الوحيد هنا بين الصهاينة وأعداء اليهود أن الفريق الثاني يقول أن كل المجتمعات تنبذ اليهود وتضطهدهم لأنهم يستحقون ذلك. ولكن الفريقين يتفقان على حتمية النبذ والاضطهاد، بسبب طبيعة اليهود الخاصة، وبالتالي حتمية خروجهم.

وطبيعة اليهود الخاصة هذه هي التي تصبح «القومية اليهودية» في الخطاب الصهيوني، أما الاضطهاد «والنبذ» فيصبحان الحركة الطاردة من المجتمعات الأصلية، و«الخروج» يصبح الهجرة الاستيطانية إلى فلسطين. وبالتالي، فنحن من منظور أخلاقي ومعرفي وعملي، يجب أن نقف ضد معاداة اليهود. ومن النادر أن نجد مثل هذا التوافق شبه الكامل بين المستويات الثلاثة المتناقضة في أية قضية من القضايا؛ إذ عادة ما يوجد تناقض بين المنظورين الأخلاقي والعملي، كما أن المنظورين المعرفي والأخلاقي قد لا يتفقان بالضرورة.

ولنبداً بتهمة الدم، ولنحاول أن نضعها في سياق تاريخي إنساني عام. ظهرت تهمة الدم بعد أن تحول أعضاء الجماعات اليهودية في العالم الغربي إلى جماعات وظيفية وسيطة تشتغل بالتجارة والربا. وكان يتم تشبيههم بالأسفنجة التي تمتص نقود كل الطبقات، والطبقات الشعبية على وجه الخصوص، ثم يعتصرها

الإمبراطور لحسابه بعد ذلك (وهو أمر لم تكن تدركه الطبقات الشعبية). ومن هنا الإشارة إلى اليهود كأعضاء جماعة وظيفية وسيطة (لا إلى اليهود كيهود) على أنهم مصاصو دماء. وليس من الصعب على الوجدان الشعبى تحويل المجاز إلى حقيقة.

وتوجيه تهمة الدم كان يعنى فى واقع الأمر شتى عدة يهود، من ضمنهم عدد كبير من المرابين، فقد كانت هذه هى إحدى أهم الوظائف التى اضطلع بها اليهود فى التشكيل الحضارى الغربى. وكان هذا يعنى فى كثير من الأحيان سقوط الديون؛ أى أن توجيه تهمة الدم يشبه، من بعض الوجوه، التخطيط لسرقة مصرف من المصارف؛ وشتى اليهود كان بمثابة النجاح فى هذه العملية، وهى عملية تشبه، أيضاً، عمليات روبن هود، الذى كان يسرق من الأثرياء ليعطى الفقراء. ولكن الخزانة الملكية كانت تستفيد أحياناً من تهمة الدم، حينما كانت تترث ديون المرابى الذى يُشتكى أو يطرد. إن النخبة الحاكمة كانت تتهمز الفرصة لابتزاز أعضاء الجماعة اليهودية لحمايتهم.

ويبدو أن تهمة الدم صورة إدراكية نمطية تتكرر فى الوجدان الشعبى؛ وهى عادة اتهام يستخدمه فريق ضد أعدائه ليسقط عنهم إنسانيتهم. وقد اتهم الغجر بأنهم يخطفون الأطفال ويمصون دمهم؛ كما وجهت التهمة عينها الى المسيحيين الأول؛ وكذلك الى الغنوصيين، وإلى إحدى الفرق الدينية الإيطالية فى عام ١٤٦٦. وقد اتهم المبشرون المسيحيون فى الصين، فى عام ١٨٧٠، بأنهم يسرقون الأطفال الصينيين، ليصنعوا منهم دواء سحرياً. واتهم الأجانب فى مدغشقر، فى عام ١٨٩١، بابتلاع قلوب البشر. أما الرهبان الدومينكان، فقد اتهمهم أعداؤهم من الرهبان الفرنسيسكان باستخدام دم وحواجب طفل يهودى فى بعض طقوسهم السرية! أى أن تهمة الدم لم تكن مقصورة على اليهود. وإذا كان المرابون الآخرون فى العصور الوسطى الغربية، مثل اللومبارد والكوهارسين (وهم مسيحيون) لم توجه إليهم تهمة الدم - حسب علمنا - فقد وجهت إليهم تهمة أخرى، لا تقل عنها سوءاً؛ كما أنهم كانوا عرضة للطرد، وللمصادرة، والشتى.

وقد ساعد تكرار مناظر الدم والقتل في العهد القديم على إصاق التهمة باليهود دون المرابين المسيحيين. كما أن طقوس اليهود الدينية، خاصة طقوس عيد الفصح، كانت تثير الريبة في نفوس أعضاء الأغلبية، الأمر الذي كان يجعلهم يبحثون عن تفسير لها (هذا مع العلم بأن العهد القديم يمنع شرب الدم، أو أكل اللحم قبل تصفية الدم منه).

ولم يكن اليهود يقفون في مقابل الأغيار كما يدعى الصهاينة بذلك. فالنخبة الحاكمة (الكنيسة والامبراطورية والملوك) كانت تدافع عن أعضاء الجماعة ضد التهم التي كانت توجهها إليهم عامة الشعب. فبين البابا انوسنت الرابع، في مرسوم أصدره عام ١٢٤٥، أن التهمة باطلة، وحرّم على المسيحيين توجيهها إلى اليهود. ودافع البابا غريغوري العاشر، في مرسوم أصدره عام ١٢٧٤، عن اليهود. كما فعل بابوات آخرون الشيء عينه. وفي عام ١٧٥٨ أصدر الكاردينال لورنزو جانجالي (البابا كليمنت الرابع عشر، فيما بعد) مذكرة يدين فيها تهمة الدم. وقد أصدر التحريم عينه الإمبراطور الألماني فريدريك الثاني (حكم من ١١٩٤ إلى ١٢٥٠) وإمبراطور النمسا رودولف من أسرة الهابسبرج في عام ١٢٧٥. وقد أصدرت الحكومة في بولندا، في العصور الوسطى، قراراً بأن من يوجه التهمة إلى اليهود دون أن يثبتها ببراهين قاطعة يحكم عليه بالإعدام. وقد حاول الكثير من المسيحيين والعلماء تفنيد التهمة وإقناع الناس ببطلانها؛ ولكنهم، مع هذا، فشلوا في مسعاهم، واستمرت تهمة الدم مرتبطة، ارتباطاً وثيقاً، بصورة اليهودي، حتى عهد قريب.

أما تهمة الدم في حادثة دمشق، فقد كانت مرتبطة بالصراع بين الاستعمارين البريطانيين والفرنسيين اللذين كانا يتنافسان على مدّ نفوذهما عن طريق «حماية» أعضاء الأقليات الدينية. فكان الفرنسيون «يحمون» الكاثوليك والمارونيين (الذين وجهوا تهمة الدم) وكان البريطانيون، نظراً إلى عدم وجود مسيحيين بروتستانت بأعداد

كبيرة فى العالم العربى، «يحمون» اليهود، خاصة وأن روسيا، وهى بلدهم الأصيل، لم تكن مهتمة بهم كثيراً بسبب وجود المسيحيين الأرثوذكس، ولأن روسيا لم يكن لها أطماع فى الشرق الأوسط، إذ أن مشروعها الاستعماري كان موجهاً إلى مناطق أخرى. وقد أصدر السلطان العثماني فرماناً يجرّم فيه تهمة الدم.

المسألة إذن أكثر تركيها مما يصورها الصهاينة، فتهمة الدم ظاهرة شعبية، ليست مقصورة على أعضاء الجماعات اليهودية. كما أن العالم لم يكن ينقسم إلى يهود وأغيار، فالسلطات الحاكمة كانت تقف في صف اليهود، إما لأسباب دينية (كما هو الحال مع الكنيسة) أو لأسباب اقتصادية (كما هو الحال مع الأباطرة) أو لخليط منها (كما هو الحال مع الخليفة العثماني).

دريفوس والصراع بين الكنيسة والقوى العلمانية

أما الواقعة الثانية، فهى واقعة الفرد دريفوس، التى وُصفت بأنها تركت أثراً عميقاً فى هرتزل، إلى درجة أنه اكتشف عبث محاولة الاندماج، فتبنى بدلاً من ذلك الحل الصهيونى. وهذه فى حد ذاتها عملية تبسيط فجّة للعوامل التى أدت بهرتزل إلى اقتراح الدولة الصهيونية حلاً للمسألة اليهودية. ولكن من الحقائق التى لا توردها المراجع الصهيونية أن هرتزل نفسه كان مقتنعا فى بادئ الأمر بأن دريفوس كان مذنباً وخائناً، ولا أعرف ما الذى جعله يغير رأيه فيما بعد. ولكن ليس هذا هو موضوع الحديث، ولذلك فلنحاول أن نضع واقعة دريفوس فى إطارها التاريخى والاجتماعى والإنسانى.

ابتداءً، كان دريفوس محل شك المخابرات الفرنسية، لأسباب وجيهة. فالقوات الفرنسية كانت تجنّد كثيراً من يهود ألمانيا ويهود الألزاس واللورين للعمل جواسيس لحسابها. ولذا ساد الاعتقاد بأنه لابدّ وأن ألمانيا ذاتها كانت تفعل الشيء نفسه (وهو أمر متوقع). ويجب أن نتذكر أن هذا جزء من الإدراك الأوروبي لليهود، وهو إدراك كانت تدعمه بعض الممارسات التاريخية. ففي القرن السابع عشر، لعب

أفراد الجماعات اليهودية في أوروبا دوراً أساسياً في عملية التجسس بين الدول؛ وقد حاول أوليفر كرومويل أن يخطب ود اليهود ويوطنهم في انكلترا، حتى يستفيد من خدماتهم كجواسيس له.

ويلاحظ أن تلك الفترة شهدت كساداً اقتصادياً في أوروبا، الأمر الذي أدى إلى انتقال أعداد كبيرة من المهاجرين إلى فرنسا، فجاء مهاجرون من إيطاليا وغيرها من البلدان الأوروبية. فكان عدد الإيطاليين ١١٢ ألفاً في عام ١٨٧٢، ازداد إلى ٣٠٠ ألف في عام ١٨٩٠. وقد جاء معهم قرويون، من القرى الفرنسية، يتحدثون لهجاتهم المحلية، مثل البريتون والأفيرنيان Auvergnat. كما هاجرت أعداد كبيرة من يهود الألزاس واللورين الذين لم يكونوا قد أصبغوا بعد بالصبغة الفرنسية. ووصلت أعداد كبيرة من يهود شرق أوروبا، الذين يتحدثون اليديشية (وهي رطانة ألمانية). وقد أدى كل هذا إلى زيادة عدد الأجانب. كما أن تزايد يهود شرق أوروبا ويهود الألزاس واللورين على حساب العنصر اليهودي الفرنسي المحلي أدى إلى تصنيف كل أعضاء الجماعة اليهودية على أنهم أجانب. ومن المعروف أنه في فترات الكساد الاقتصادي، تتعرض العناصر الأجنبية للهجوم من قبل السكان المحليين الذين يتهمون العناصر الوافدة بأنها سبب الأزمة، إذ أن العامل الأجنبي يرضى بأجر أقل ومستوى معيشي أكثر انخفاضاً. علاوة على هذا، كان الجلو العام في فرنسا آنذاك متوتراً، خاصة بالنسبة إلى أفراد الجماعة اليهودية، بعد هزيمة الجيش الفرنسي على يد الألمان في عام ١٨٧٠، إذ كانت العناصر الليبرالية (التي كانت تضم نسبة عالية من اليهود) تقف ضد فكرة الانتقام من ألمانيا. كما أن المد العلماني كان آخذاً في التزايد، وفي الإصرار على فصل الدين عن الدولة بشكل كامل. ويجب أن نتذكر أن الثورة الصناعية قد اقتلعت الكثيرين من جذورهم، وأدت إلى افقارهم، وقذفت بهم إلى المدن الكبرى مثل باريس. وكان المقتلعون هؤلاء يشعرون بعدم الأمن تجاه المجتمع الجديد، بعلمانيته وثوريته وقيمه التجارية والذي كان اليهود يتواجدون في مركزه. إضافة إلى ذلك، كان هناك

عدد كبير من اليهود بين قادة كومونة باريس فى عام ١٨٧١ . وقد أدى هذا كله الى الربط بين الجماعة اليهودية والعناصر الثورية والعلمانية والفضوية فى المجتمع . وعلى الرغم من هذا ارتبط اليهود (عبر تاريخ أوروبا، منذ العصور الوسطى حتى العصر الحديث) بالمصالح المالية الكبيرة بالمصارف والشبكات المالية والتجارية، وهى صورة دعمها برور أسرة روتشيلد فى عالم التجارة والمال .

وهكذا أصبح اليهودى رمزا متبلوراً لكثير من العناصر المتناقضة ومحط شك الجماهير وكرهها، فهو الأجنبى البغيض، وهو الثورى العلمانى التقدمى الذى يحمل لواء المجتمع الجديد المدمر، ولا يكثرث بأية قيمة سوى الربح، ولا يرتبط بأية أرض سوى السوق . وقد كانت الصحف المعادية لليهود تشير إلى دريفوس باعتباره الزاسياً وأجنبياً وعضواً فى طبقة المولدين الأثرياء .

وقد انضمت أعداد كبيرة من ضحايا الثورة الصناعية إلى التنظيمات المعادية لليهود التى كانت تستخدم خليطاً جذاباً ومريحاً من الديباجات المسيحية والاشتراكية والعرقية، وتطرح صورة لمجتمع مبنى على التضامن المسيحى، والتكافل الاجتماعى، والتعاون الاقتصادى، يقف على طرف النقيض من المجتمع الصناعى الجديد، المبنى على التنافس والتقاتل، والذى يؤمن بإمكانية البقاء للأصلح وللأقوى وحسب . وقد انضمت غالبية أفراد الجماعة اليهودية المتمركزين فى العاصمة إلى القوى العلمانية والتقدمية التى أدارت المعركة مع العناصر الدينية والمحافضة . فاليهودى كان بلا شك رمزاً هاماً للقوى الجديدة؛ ولكنه لم يكن قط أحد أطراف المعركة؛ إذ أنه كان جزءاً من كل، والكل هو القوى الاجتماعية المتصارعة فى المجتمع الفرنسى فى أواخر القرن التاسع عشر، والتى كانت كل واحدة منها تحاول أن تصوغ المجتمع حسب رؤيتها . وقد حولت هذه القوى قضية دريفوس إلى حلبة صراع فيما بينها .

ففى عام ١٨٩١، اكتشف جورج بيكار، رئيس مخابرات الجيش الفرنسى والبطل الحقيقى لواقعة دريفوس، أدلة تثبت براءته من التهمة المنسوبة إليه، وتشير بأصابع الاتهام الى شخص آخر هو الميجور استرهازى، الذى كان قد لعب دوراً

هاماً في سير أحداث القضية بحيث انتهت إلى الإدانة التامة للكابتن دريفوس . وقد حاول بيكار إقناع المسؤولين بإعادة المحاكمة ، ولكنه أُمِر بالتزام الصمت ، ونُقل إلى تونس بسبب ذلك .

وقد شُنت حملة إعلامية مكثّفة ، قادها المفكر الفرنسي اليهودي ، برنارد لازار ، للمطالبة بإعادة النظر في القضية ؛ وكتب مقالات عدّة دافع فيها بحماس عن دريفوس ، كما طالب رئيس مجلس الشيوخ الفرنسي بإعادة النظر في القضية ، لاقتناعه ببراءة دريفوس . وتحت إلحاح الموقف المتفجر وإصرار بيكار قُبض على الميجور إسترهازي ، وحوكم ذرّاً للرماد في العيون ، ولكنه برّىء بسرعة ، لعدم كفاية الأدلة . فكتب الروائي الفرنسي إميل زولا سلسلة مقالات تحت عنوان «إني أتهم» هاجم فيها المحاكمتين ؛ وكانت النتيجة أن اتهم زولا بالقذف العلني ، وحكم عليه بالسجن ، فهرب إلى إنجلترا . وفجأة برزت أحداث جديدة غيرت مجرى القضية ، فقد انتحر شاهد الإثبات الأول في القضية ، الكولونيل هيوبرت جوزيف هنري ، في أثناء استجوابه ، وذلك بعد أن اعترف بتزويره للوثائق التي أدت إلى إدانة دريفوس . وعندما علم إسترهازي بحادث الانتحار ، اعترف بجريمته ، وفرّ إلى إنجلترا . وفي صيف عام ١٨٩٩ ، أمرت محكمة النقض بإعادة محاكمة دريفوس في ضوء الأحداث التي استجدت ، ولكن تحت ضغط بعض الشخصيات ذات النفوذ في الجيش أعلن ، مرة أخرى ، أنه مذبذب . وفي هذه المرة حُكم عليه - مع مراعاة الظروف المخففة - بالحبس عشر سنوات كان قد قضى خمساً منها في المنفى . وبعد أيام عدة ، أمر الرئيس الفرنسي أميل لوبيه بالعفو عنه وقد حثّه كثير من أصدقائه والمدافعين على استئناف المعركة لإثبات براءته التامة ، لأن القضية قضية مبدئية تتجاوز الأشخاص ، غير أن دريفوس نفسه لم يكن مدركاً للأبعاد السياسية التي اتخذتها هذه القضية ، فكان كل ما يطمناه ، وتطمناه عائلته الثرية المندمجة ، هو الإفراج عنه ، سواء عن طريق العفو أو التبرئة ؛ ولذا قبل قرار العفو . أما بيكار فقد أصبح بطلاً قومياً ، ورقاه رئيس الجمهورية إلى مرتبة بريغادير جنرال ، وعيّن فيما بعد وزيراً للحرب .

وقد أعيدت محاكمة دريفوس، مرة أخرى، فى عام ١٩٠٣، بضغط من القوى العلمانية والثورية، وصدر الحكم بتبرئته، وأعيدت إليه حقوقه السابقة؛ وعُيِّن فى هيئة الأركان، مرة أخرى، بوظيفة مأمور، وتلقى وسام شرف؛ ولكنه ما لبث أن ترك الخدمة. وقد عُيِّن فى أثناء الحرب العالمية الأولى كولونياً وقائداً لأحد قطاعات باريس. وقد عمقت هذه القضية الخلافات الموجودة بين مؤيدى، وخصوم، النظام الجمهورى فى فرنسا، وأدت إلى تقوية الأحزاب الاشتراكية، وكانت وراء القانون الذى صدر فى عام ١٩٠٥، بفصل الدين عن الدولة.

إن قضية دريفوس لم تكن قضية بسيطة، كما أنها لم تكن قضية يهودية فدريفوس ذاته كان يهودياً ولكنه لم يكن بطل القصة، وإنما موضوعها وساحتها. أما بطل القصة الحقيقي فلم يكن يهوديًّا، كما أن القوى المتصارعة (العلمانيين ضد الدينين) لم يكن اليهود سوى عنصر واحد من عناصرها الكثيرة، فالقضية كانت قضية خاصة بالمجتمع الفرنسى فى إحدى مراحل تحوله الهامة بعد تصاعد معدلات العلمانية فيه. ولا يمكن فهم القضية بالعودة إلى التاريخ اليهودي أو حتى تاريخ الجماعة اليهودية فى فرنسا وإنما بالعودة إلى تاريخ فرنسا، وتاريخ أوروبا ككل.

واقعة ليو فرانك

أما الواقعة الثالثة، فهى واقعة ليو فرانك. وسنكتشف مرة أخرى أن يهودية ليوفرانك لم تكن هى العنصر الأساسى الذى أدى إلى اضطهاده وقاتله، فأهل الجنوب لم ينظروا إليه باعتباره يهودياً، وإنما باعتباره رمزاً متبلوراً لعناصر تاريخية واجتماعية وثقافية عدة، ليس لها علاقة وثيقة بيهوديته، شأنه فى هذا شأن دريفوس. وأهم هذه العناصر على الإطلاق هو أن المجتمع مسرح الواقعة كان يخوض هو الآخر ثورة صناعية حقيقية متأخرة، مع كل ما يصاحب مثل هذه الانقلابات من ظروف صحية سيئة وأمراض اجتماعية عاش فى ظلها أعضاء الطبقة العاملة من البيض المحليين، أو المهاجرين المقتلحين من جذورهم الزراعية، سواء فى أوروبا أم فى الجنوب.

ومن مظاهر الثورة الصناعية تركّز السكان في المدن. وقد تضاعف عدد سكان مدينته أتلانتا، في ولاية جورجيا، بين عامي ١٩٠٠-١٩١٣، إذ زاد من ٨٩٨٧ نسمة الى ١٧٣,٧١٣ نسمة، وهو يعد أعلى معدل ارتفاع لأية مدينة اميريكية في الفترة عينيها (باستثناء برمنجهام في ولاية ألباما). وكان نمو المدينة عشوائياً فلم توجد المؤسسات اللازمة للحياة الإنسانية الكريمة، مثل أماكن التروبيج، أو أماكن السكن، أو ما يكفي من المستشفيات العامة. وكانت أتلانتا تعاني من أزمة مساكن، فقد كان يوجد ٣٠,٣٠٨ مسكن لـ ٣٥,٨١٣ أسرة، ونصف المساكن لا تصله المياه، وكان حوالي ٥٠ ألف شخص يعيشون في منازل لا يوجد فيها نظام للصرف. وكانت نسبة تلوث الجو عالية للغاية، ولهذا انتشرت الأمراض، مثل التيفوئيد وغيره، وارتفعت معدلات الوفاة. ويقال إن ٩٠ بالمئة من المساجين كانوا يعانون من مرض الزهري. وقد زاد فقر سكان أتلانتا بشكل رهيب (كان الطفل يتقاضى ٢٢ سنتاً نظير عمله لمدة أسبوع، وكانت ماري فيغان قد ذهبت لتتقاضى أجرها عن اسبوع كامل وهو دولارا وعشرين سنتاً).

ولم يكن الجو موبوءاً من الناحية المادية فحسب، وإنما من الناحية الأخلاقية أيضاً (وهذا أمر متوقع في مثل هذا المجتمع). وقد انتشرت كل أنواع الجرائم، من السرقة والقتل والدعارة والسكر. وكانت نسبة الجريمة في أتلانتا أعلى النسب في الولايات المتحدة الأمريكية، وتعادل نسبتها في شيكاغو عاصمة الجريمة في العالم. وقد قبضت الشرطة، في عام ١٩٠٧، على ١٧ ألف شخص من مجموع السكان البالغ عددهم ١٠٢,٧٠٠. ومع هذا، كان جهاز الشرطة هزياً للغاية، إذ أن مجموع عدد العاملين في قوة الشرطة كان لا يزيد على ٢٠٠ شرطي. وكان يوجد في هذه المدينة الواسعة مركز شرطة واحد، ولذا كان كثير من المجرمين يفرون من قبضة القانون، وقيل أنه من كل ستة جرائم قتل كانت تضبط جريمة واحدة. وفي عامي ١٩١٢/١٩١٣ بالذات، كان هناك ١٢ جريمة قتل لم يتم الاهتداء الى مرتكبيها.

هذه هي بعض مظاهر الثورة الصناعية في أتلانتا. ويجب التنبيه الي أن هذه الثورة كانت جزءا من عملية غزو واسعة. فالجنوب الأمريكى مسرح الواقعة كان لا يزال يشعر بمذاق الهزيمة في الحرب الأهلية (١٨٦١-١٨٦٥) حين هزم الشمال الصناعي الجنوب الزراعي وأكد سلطة الحكومة الفيدرالية على حساب استقلال الولايات المختلفة. وقد فقد ما يقرب من ٦٠٠ ألف شخص حياتهم إبان هذه الحرب. وبعد انتصار الشمال، تم فتح الولايات الجنوبية للرأسمال الشمال، وللنخبة الشمالية التي أسست الصناعات وغزت السوق. ويرى بعض المؤرخين أن العلاقة بين الشمال والجنوب كانت علاقه شبه كولونيالية، وأن ما سمّاه الشماليون «توحيد» الولايات المتحدة الأمريكية هو، في واقع الامر، غزو شمالي للجنوب وهيمنة عليه. وهو غزو لمجتمع زراعي، كانت تسود فيه علاقات شبه إقطاعية، توجد على قمته أرستقراطية تعتر بمكانتها الرفيعة، وبقيم الجنوب، وبالالتزام الإقطاعي. وكان مجتمع الجنوب مجتمعاً المجلوساكسونياً بروتستانتيّاً متجانساً، لم يستوطن فيه ملايين المهاجرين، كما حدث في بقية الولايات المتحدة الاميركية، خاصة على الساحل الشرقي. وكانت مؤسسة الأسرة قوية للغاية في مجتمع الجنوب، وتشم بقدر كبير من التماسك. وكانت المرأة هي رمز هذا التماسك الأسري، ولذا كانت محط تقديس المجتمع. وأعضاء مثل هذا المجتمع الزراعي الأرستقراطي عادة ما ينظرون بكثير من الاحتقار، بل والبغض، إلى الاقتصاد النقدي، المبني على التعاقد وعلى آليات العرض والطلب.

وقد كانت شكوك أهل الجنوب في محلها، إذ أنه بعد «توحيد» الشمال مع الجنوب فُتح الجنوب للصناعات الشمالية، التي هاجرت لتستفيد من العمالة الرخيصة والأراضي قليلة التكاليف والأسواق البكر. وهي صناعات لم تخدم كثيراً تقاليد المجتمع، وساهمت في تفكيك نسيجه المجتمعي، وفي تحطيم بنية الأسرة. فكان الأطفال والنساء يعملون في المصانع لساعات طويلة. وقد أدى دخول الصناعات إلى تزايد معدلات التحديث والعلمنة بكل ما يتبعها من تفكك

اجتماعي، خاصة وأن هذه الصناعات لم تظهر نتيجة تطور عضوي بطيء، وإنما فرضت عليه فرضاً من مجتمع اليانكي الشمالي.

كان ليوفرانك رمزاً لهذه القوة الغازية، فهو رجل صناعة ومدير مصنع جاء من الشمال ليستقر في الجنوب، وهو مجتمع زراعي ينظر بعين الشك إلى الصناعة. وكان يقوم باستئجار النساء والأطفال كعمالة رخيصة في مجتمع كان يقّـدس الأسرة حتى عهد قريب. وكانت تتم الإشارة إلى ماري فيغان على أنها «عاملة المصنع الصغيرة»، أي أنها تحولّت إلى رمز الطفولة البريئة التي استغلّها المستثمرون من الشمال. وهو كان خريجاً جامعياً وعضواً في النخبة العلمانية المهيمنة، التي لا تكثرت كثيراً بالقيم التقليدية في وسط بيئة جنوبية عمالية مقتلعة من بيئتها الزراعية، لاتزال تؤمن بالقيم التقليدية والمسيحية (البروتستانتية)، تحلم بالمجتمع المتماسك الذي دُمّر إبّان الحرب الأهلية. ولم تكن يهودية فرانك سوى بلورة لكل هذه العناصر السابقة؛ إذ أن المعركة الحقيقية كانت بين الشمال الصناعي الغازي والجنوب الزراعي الذي تمّ غزوه؛ بين ضحايا التقدّم والصناعة، من جهة، وممثلي هذا المجتمع الجديد الرهيب، من جهة أخرى.

ولعله يكون من المفيد أن نتوقف قليلاً، عند نقطة انتماء فرانك اليهودي. فقد كان يشغل منصب رئيس فرع جماعة بني بريت اليهودية في المدينة. لا بدّ من أن نعرف كذلك، على وجه الدقّة، موقف الجنوب الأميركي من اليهود. وقد حدّد الجنوب الأميركي التضامن على أساس عرقي: أبيض في مقابل أسود، على عكس الشمال الذي عرفه على أساس عرقي، أو اثني ديني: بروتستاني أبيض انجلو-ساكسوني في مقابل كاثوليكي أبيض من أصل إيطالي أو أيرلندي، أو كاثوليكي إسباني، أو كاثوليكي أو بروتستاني أسود؛ وكل هذا في مقابل يهودي بطبيعة الحال (وبالتالي يكون اليهودي الأسود في أسفل الدرك). ومن الواضح، أن التعريف الجنوبي لم يستبعد اليهود، وإنما صنّفهم على أنهم بيض، تماماً كما يحدث في جنوب أفريقيا. وقد سمح لهم هذا التصنيف بدرجة عالية من الاندماج

والحراك الاجتماعي؛ وأصبحوا جزءاً عضويّاً من المجتمع؛ وكانوا أعضاء في النخبة الحاكمة، وامتلكوا العبيد وتاجروا بهم. فلم تكن هناك مقولة مستقلة لليهودي في الوجدان الجنوبي التقليدي.

وقد أشرنا آنفاً إلى أن فرانك كان رمزاً للقوة الغازية الشمالية. ويمكن أن نضيف، هنا، أنه مع التحولات التي أدخلت إلى الجنوب اكتسبت كلمة «يهودي» مدلولاً جديداً. فأعضاء الجماعة اليهودية في جورجيا لم يكونوا يهود الجنوب التقليديين، وإنما كانوا وافدين، عنصراً غريباً جديداً، له طابع اثني وظيفي مميز، ويهود أثلاثنا، في عام ١٩١٠، كانوا يشكّلون أكبر جماعة من المهاجرين الأجانب؛ إذ بلغ عددهم ١٣٤٢ أي ٢٥ بالمئة من مجموع كل الأجانب. وعلى الرغم من أن نسبتهم لم تتجاوز واحداً بالمئة من عدد السكان، إلا أنهم كانوا يشكّلون جماعة وظيفية حققت بروزاً مشيناً. فاليهود المهاجرون كانوا يمتلكون معظم الحانات ومحلات الرهونات وبيوت الدعارة (وهذا جزء من ميراثهم الاقتصادي الأوروبي). وكان زبائنهم، أساساً، من الزنوج. وقيل أن بيوت الدعارة التي امتلكها اليهود، كانت تزيّن بها صور نساء بيض تثير شهوة الزنوج، الذين كانوا يحسّون الخمر في الحانات اليهودية «وينطلقون بعدها كالوحوش»، وهذه صورة إدراكية عنصرية؛ ولكنها، مع هذا، ربطت الجرائم الجنسية في ذهن سكان أثلاثنا باليهود. وكان فرانك، نفسه، مشهوراً بمغازلة العاملات وملاحقتهن. وقيل أن ماري فيغان، نفسها، شكت إلى صديقاتها من محاولات فرانك الإباحية. وقد تكون هذه الاتهامات باطلة تماماً؛ قد يكون سلوك فرانك «الإباحي» ليس سوى سلوك أي شخص من مجتمع حضري مفتوح يتصرّف بحرية رائدة في مجتمع مغلق أو قيمه مغلقة، فتفسّر كل حركاته بشكل مبالغ فيه، قد يكون هذا هو الوضع، ولكن المهم إدراك الناس له، ولسلوكه، خاصة وأن اشتغال اليهود بالمهن المشينة عزّز هذا الإدراك.

إلى جانب كل هذه الخلفية الاجتماعية، والتاريخية، والثقافية، ثمة جانب إحصائي هامّ، فالدراسات الصهيونية لا تكفّ عن الإشارة إلى قضية فرانك، وإلى الظلم الذي حاق به، نتيجة اختطافه من السجن وشنقه، بعد أن خفّف الحاكم الحكم عليه. ولكن هذه الدراسات لا تذكر هذه الحقائق:

١- ان احترام القانون لم يكن سمة سائدة في المجتمع. فعلى سبيل المثال، لجأت الشرطة، ذات مرة، إلى القبض على كل الذكور القادرين، لأن أتلانتا كانت تعاني من نقص في العمالة. كما أنه من المعروف أنه في عام ١٩٠٩، اتُهمت الشرطة بضرب أحد الزوجين ضرباً أفضى به إلى الموت، وأنهم قاموا بتقييد امرأة بيضاء إلى الحائط حتى رهِقت روحها.

٢- اندلعت في عام ١٩٠٦، اضطرابات بين السكان البيض، الذين هاجموا حي السود لعدة أيام واشتبكوا معهم، فقتلوا عشرة زنوج وجرحوا ستين (بينما قُتل من بينهم رجلان وجرح عشرة). واضطرت المدينة إلى استدعاء الحرس الوطني، وقيل أن الاضطرابات اندلعت نتيجة تقارير مثيرة نشرت في الصحف عن هجوم السود على النساء البيضات.

٣- كانت المدينة محتاجة إلى مزيد من الأيدي العاملة، وبالتالي إلى مزيد من المهاجرين، ولكن كلما زاد عدد المهاجرين كانت تزداد نسبة غضب السكان المحليين المقتلعين. ففي عام ١٨٩١، تمّ اختطاف، وشنق، أحد عشر مهاجراً إيطالياً، وفي عام ١٨٩٩، اختطف خمسة آخرون. وفي عام ١٩٠٠، اختفى ثلاثة آخرون تحت ظروف غامضة.

٤- شهدت الفترة من ١٨٨٩ إلى ١٩١٨ ما مجموعه ٢٥٠٠ حالة «لينشنج» أخرى (اختطاف مساجين وشنقهم ضد سلطة القانون)، وكان معظم ضحايا الاختطاف من السود، كما تمّ اختطاف قلّة من أعضاء الأقليات الأخرى. ولكن لم يكن هناك سوي حالة واحدة فقط اختطف فيها يهودي، وشنق،

وهي حالة ليوفرانك. وهكذا تحول الاستثناء إلى قاعدة، وتحول الخاص إلى عام، وتحولت الواقعة العابرة إلى رمز عالمي مركزي! وقد صدر عفو عن فرانك في عام ١٩٨٦ وبريء اسمه.

بين حشد الحقائق ومعرفة الحقيقة

فيما سبق، لم نحاول أن نفرض معني محدداً على الحقائق بدلاً من المعنى الصهيوني العنصري الإنساني، وإنما وضعناها في سياقها التاريخي الاجتماعي الإنساني العريض، فظهر معناها الإنساني الكامن وحده، وتكشف لنا أن الضحايا اليهود لم يسقطوا بسبب يهوديتهم المطلقة ولسبب غير مفهوم أو ميتافيزيقي، وإنما سقطوا نتيجة لركب من الأسباب الاجتماعية التاريخية المفهومة، وأن يهوديتهم لم تكن سوى عنصر واحد ضمن عناصر كثيرة، بل لم تكن يهوديتهم ذاتها سوى بلورة لعناصر أكثر عمقاً: إذ لا يظهر اليهودي كيهودي، وإنما كمراب (تهمة الدم) أو كألزاسي أو عميل ألماني أو أجنبي (دريفوس) أو شمالي علماني جامعي صاحب مصنع (ليوفرانك)؛ وأن الهجوم الذي كان يتم على اليهود ليس مقصوداً عليهم، وإنما هو هجوم موجه ضد كل القوى المماثلة في المجتمع.

وقد ذكرنا كل هذا لا من قبيل تبرير الهجوم على اليهود، أو غيرهم من أعضاء الأقليات؛ فهذا مما لا يسمح به الإسلام (على عكس ما قد يتصوره البعض، وعلى عكس ما يشاع) ولا يمكن تبريره، وإنما ذكرناه من قبيل محاولة فهم الوقائع واستخلاص معناها الحقيقي. ويلاحظ أننا بهذه الطريقة نسقط عن اليهودي عجائبيته وإعجازه وفرادته (التي يصرّ عليها الصهاينة والمعادون لليهود)، ونستعيد له إنسانيته. وإذا ما أدركنا المغزي الإنساني الكامن في واقعة ما، يكون الحزن من أجل الضحية حزناً إنسانياً لا يُوظف في خدمة عقيدة عنصرية استيطانية؛ إذ أنه إذا سقط اليهودي (شأنه شأن أعضاء الأقليات والجماعات الأخرى) ضحية العنف في مجتمعه، يصبح الحل هو أن ينضمّ إلى الجماعات التي تدافع عن حقوق الإنسان (من أعضاء الأقليات الأخرى وأعضاء الأغلبية)، وأن يناضل من أجل حقوقه

داخل مجتمعه . وتصبح القضية هي كيف ندافع عن حقوق اليهود السياسية والمدنية، والدينية (وحقوق غيرهم من الأقليات) داخل وطنهم، لا أن نطالب بتهجيرهم (أو خروجهم) كما يفعل العنصريون من الصهاينة وأعداء اليهود.

وثمة قضية أخرى تتجاوز اليهود والصهاينة والمعادين لليهود؛ إذ أنها قضية معرفية ذات طابع نظري، وهي علاقة الحقيقة بالحقائق. فنحن كثيراً ما نتصور أن الحقائق هي الحقيقة. ولذا، فنحن نحاول أن نكون «موضوعيين في رصد الحقائق» ولكن الحقائق التي أتى بها الصهاينة كانت، كلها، حقائق موضوعية، ووقائع ثابتة، حدثت تحت سمع الناس وبصرهم.

فالصهاينة، في أغلب الأحوال، لا يخلقون الحقائق، وإنما يجتزؤونها وحسب، ومن خلال اجتزائها ونزعها من سياقها يفرضون عليها المعنى الذي يريدون. وحيث أنه من المستحيل أن يرصد الإنسان كل الوقائع الخاصة بحدث ما، يصبح الاختيار مسألة حتمية، ويصبح أساس اختيار الحقائق، لا الحقائق ذاتها، هو ما يشكل مدى صدقها من زيفها، فالصدق والكذب ليسا كامينين في الحقائق الموضوعية ذاتها (هل هي صادقة أم كاذبة؟)، وإنما في طريقة تناولها، وفي القرار الخاص بما يُضم، ويستبعد، منها. ومن هنا قولني أن الحقائق شيء والحقيقة شيء آخر (والحق شيء ثالث). فالحقائق شيء ماديّ صرف يوجد في الواقع على هيئة تفاصيل متناثرة؛ أما الحقيقة فهي لا توجد في الواقع، وإنما يقوم العقل بتجريدتها واستخلاصها بعمليات عقلية، حتى نصل إلى هذه الفكرة الكلية التي تفسر أكبر قدر ممكن من الحقائق المتناثرة (أما الحق، فهو ينتمي إلى عالم المثل والإيمان، وهو يشكل المنظور الأخلاقي المطلق الذي يحاكم الإنسان منه كلاً من الحقائق المادية والحقيقة الفكرية العقلية).

٢ - الصهيونية والرومانسية

إعادة التفكير في طرق التفكير

من أهم الطرق لفهم الآخر هو التوصل إلى رؤيته للكون وإلى مفهومه للإنسان (نموذجه المعرفي). والإدراك الصهيوني للكون هو إدراك روماني (بالمعنى المحدد الذي سنوضحه فيما بعد). وفي هذا القسم لن نكتفي بوصف الرؤية الصهيونية للكون وإنما سنحاول كذلك أن نبين بعض الخطوات التي اتبعناها في عملية تفكيك الإدراك الصهيوني وما نسميه التحليل النماذجي أو تحليل الواقع من خلال استخدام نماذج معرفية ، أي أننا سنتحرك في هذا القسم على مستويين: مستوى المضمون (علاقة الصهيونية بالرومانسية) ومستوى المنهج (كيف وصلنا إلى ما وصلنا إليه من أفكار).

الصهيونية والرومانسية

تعريف الرومانسية أمر صعب للغاية ولكنه ليس مستحيلًا ، فهو اصطلاح شامل لعدد كبير من الاتجاهات، تتباين في أوقاتها وأماكنها ودعاتها. وحيث أن تعريف الرومانسية بشكل جامع مانع قد لا يفيدنا كثيرا، فلنحاول أن نقدم هذا المفهوم الفلسفي عن طريق حصر بعض السمات الرئيسية (التي تهتمنا في المقارنة التي سنعقدها بين الصهيونية والرومانسية ، وهذه السمات هي في واقع الأمر شئ واحد ولكننا قسمناه إلى عناصر مختلفة كضرورة تحليلية).

كانت الرومانسية ثورة ضد النفعية والمادية وكل الاتجاهات الميكانيكية التي تحاول أن ترد ظاهرة الإنسان إلى شئ خارج عنه - ترده إلى الاقتصاد، أو إلى هذا العنصر المادي أو ذاك. ولذا حاول الرومانسيون أن يبحثوا عن حقيقة بسيطة كامنة وراء الأشياء - حقيقة ثابتة وراء التغير، حقيقة مطلقة تتجاوز السطح. ومن هنا لم يعد العالم المادي بالنسبة لهم شيئا ميتاً، خاضعاً لقوانين الميكانيكا، وإنما شئ حي ينبض

بالحياة تسرى فيه الروح يصلح كعلامة وكشاهد على وجود المطلق الذي كان يقارنه بعض الرومانسيين بالله عز وجل. إن الرومانسية أعادت الحقيقة والحياة للأشياء.

ولكن كيف يتأتى لنا أن نصل إلى هذا المطلق؟ عالم الحواس عالم مفلس، ولا بد من طريقة جديدة للإدراك، ومن هنا كانت أهمية الخيال، فالخيال وحده هو الذي يمكن الإنسان من تجاوز عالم المادة ليصل إلى المطلق. والخيال لا يتدع صوراً خرافية لا علاقة لها بالواقع، وإنما يساعد الإنسان على تخطي المعطيات الحسية بأن ينحت صوراً دالة، تعيد صياغة الواقع وعلاقاته، بحيث تجسد جوهر هذا الواقع.

ولكن كيف يمكن للخيال أن يلعب دوره هذا؟ يجيب الرومانسيون على هذا بأن العاطفة هي التي يمكنها أن تفعل ذلك، فالإنسان في حالته العادية، وفي حياته اليومية، لا يستخدم سوى حواسه وعقله (بالمعنى الضيق للكلمة)، أما إذا جاشت عواطفه فإنها ترهف حواسه وتعمق إدراكه بحيث يتجاوز السطح ليصل إلى الأعماق والمطلق وإلى جوهر الأشياء. إن العاطفة تهدم حدود الحواس والأشياء، ولذا فالصور الشعرية الخيالية تتسم بوحدة داخلية عضوية مختلفة تمام الاختلاف عن الوحدة الخارجية (المنطقية) التي تتسم بها الأشياء العادية؛ فالأولى مستقاة من منطق الروح الحي والثانية مستقاة من منطق الأشياء الميتة.

الإنسان الرومانسي الذي يتجاوز السطح ويدرك الجوهر عن طريق الخيال الذي تشحذه العاطفة، إنسان فردي متفرد - فردي لأن العاطفة على عكس العقل لا تخضع لقانون، ولذا فمن يعبر عن عاطفته إنما يعبر عن ذاته، ومن يعبر عن ذاته فهو يعبر عن فرادته التي لا يشاركه فيها إنس ولا جان.

ويمكن تلخيص الموقف الرومانسي بأنه موقف يؤمن بمقدرة عقل الإنسان (بالمعنى الواسع للكلمة الذي لا يستبعد العاطفة) على الإدراك المبدع للعالم وعلى صياغته وتشكيله. ويمكن تفسير كل الموضوعات الرومانسية الأخرى في هذا الإطار، فالعودة للطبيعة وللماضي هي عودة لعالم سهل العثور فيه على المطلق وعلى

الثبات، عالم يتسم بالوحدة العضوية الداخلية، يمكن للخيال أن يحلق فيه، ويمكن للعقل الخلاق أن يطلق لنفسه فيه العنان.

ومن الهام أن نقرر في هذا السياق أن الرومانسية كانت هي الرؤية الفلسفية السائدة في أوروبا منذ نهاية القرن الثامن عشر حتى بداية القرن العشرين. بل ويؤمن كثير من مؤرخي الأفكار أن الفكر الأوروبي الحديث، رغم ثورته على الرومانسية، فكر في صميمه روماني. وقد ظهرت الصهيونية كنكر سياسي في منتصف القرن التاسع عشر، وتبلورت في العقدين الأخيرين منه، وعُقد المؤتمر الصهيوني الأول في العقد الأخير من القرن التاسع عشر، - أي أنها ظهرت في وقت ساد فيه الفكر الروماني في العالم الغربي، والغرب (وليس العالم كله) هو الذي أفرز الصهيونية وهو الذي أرسل بيهوده لنا.

وإن نظرنا إلى الصهيونية لوجدنا أن النموذج المعرفي الكامن وراءها يحمل كثيراً من سمات وملامح الرومانسية، ولنأخذ السمة الأولى، أي البحث عن مطلق يتجاوز السطح. الفكر الصهيوني يدور حول مطلقات ثابتة غير خاضعة للتغير مثل الشعب اليهودي المختار وحقوق الشعب اليهودي والأرض اليهودية المقدسة، فهذه كلها مطلقات تتجاوز التاريخ وسطحه وحدوده. ومصدر إطلاقها كلها هي أنها يهودية- أي أن المطلق الذي لا يتغير هو اليهود واليهودية. أحاول أن أبين في دراساتي عن الصهيونية ما سميت بتداخل النسبي والمطلق في كل الظواهر الصهيونية (الخلولية أو الكمونية الصهيونية)، بحيث تصبح كل الأشياء مطلقة بما في ذلك أتفه التفاصيل: - الدولة - اليهودية - علم إسرائيل - نجمة داود - حفيظة النفوس الإسرائيلية. ولتنظروا إلى المصطلح السياسي الصهيوني وإلى موقف الصهاينة من ضم الأراضي - لا يمكن التفريط في هذا الشبر لأن اليهود لهم علاقة خاصة به، ولا يمكن التنازل عن قطعة الأرض تلك لأنها مقدسة. والحدود الآمنة هي في الواقع الحدود المقدسة أو الحدود المطلقة، أي الحدود اليهودية. ويجب أن نشير هنا إلى أن الصهاينة نظرا لأن معظمهم ملاحدة يتحول المطلق عندهم إلى أمر

ذاتي - فالمطلق هو ما يشاءون. أما بالنسبة للأقلية الصهيونية التي تدعي الانتماء لليهودية فثمة مساواة حلولية في وجدانهم بين المطلق و الشعب اليهودي، ولذا فثمة مساواة بين الاله والشعب اليهودي، وهذا هو أساس فلسفة مارتن بوبر الحوارية، وبالتالي فالمطلق هو أيضا ما يشاء أعضاء هذا الشعب.

والفكر الصهيوني فكر لاعقلاني يعود للعاطفة ويرفض الفكر العقلاني الاستناري- الذي كان يدعو لاندماج اليهود في المجتمعات التي يعيشون فيها والذي كان ينظر الي اليهود باعتبارهم أقلية دينية أو إثنية، مثل أية أقلية أخرى تعاني من الاضطهاد ولكنها يمكنها أن تحصل على حقوقها عن طريق الكفاح من أجل تحقيق مزيد من العدالة الاجتماعية.

أما من حيث الفرادة والفردية فهذا موضوع أساسي في الفكر الصهيوني، وهو ولا شك مرتبط بفكرة المطلق. فالمطلق الصهيوني الذاتي، فريد مقصور على الصهانية. وهم يتحدثون دائماً عن التجربة التاريخية اليهودية باعتبارها تجربة فريدة لا يمكن أن يشارك فيها غير اليهودي، بل ولا يمكن أن يدركها غيرهم. ومن مظاهر فرادة التاريخ اليهودي أنه لا يمكن أن يستمر في مساره الحقيقي خارج فلسطين - ولذا لا بد من العودة إلى هذا المطلق. ويفسر بعض الصهانية معاداة اليهود واليهودية على أنها رد فعل لفرادة اليهود (الميتافيزيقية أو الاجتماعية) لأن الكيان اليهودي الفريد يشير حفيظة الآخرين من الأغيار، ولذا يجب أن يكون لليهود دولتهم الفريدة التي يمارسون فيها فرادتهم بشكل فريد.

والعقل اليهودي الخلاق، القادر على إعادة صياغة الواقع أمر يصر عليه الفكر الصهيوني واعتذارياته. والحديث عن الصحراء التي اخضوضرت والمستنقعات التي جففت هو حديث عن هذا العقل.

وفكرة العمل العبري، وهي فكرة محورية في الفكر الصهيوني، هي فكرة رومانسية حتى النخاع- إذ تحت هذا الشعار يُطلب من اليهودي أن يعود إلى أحضان الطبيعة في بلاده الأصلية، فيعيش ببساطة ويعمل بيديه. وهو حين يعمل

بيديه (عملا عبريا) فإنه سيعيد صياغة أرضه، ومن هذه العملية سيولد الإنسان العبري الجديد (الذي لا يختلف عن الانسان الطبيعي الذي بشر به الرومانسيون منذ روسو حتي الآن). والفكر الصهيوني، شأنه في هذا شأن الفكر الأوروبي منذ نهاية القرن التاسع عشر، فكر عضوي، يصر على أن العلاقات بين الأشياء علاقة عضوية ، والرابطة بين اليهودي وأرض الميعاد رابطة عضوية لا تنقسم عراها.

وفكرة الطبيعة التي تمر بالحياة والحياة التي تتسم بالدينامية والعقل المبدع الذي يطمس معالم الأشياء وحدودها ليبرز جوهرها فكرة أساسية في الفكر الصهيوني الذي وسمته في دراسة أخرى بأنه فكر صيرورة مطلقة يشبه في هذا الفكر الغربي الحديث، خاصة في عصر ما بعد الحداثة.

والفكر الصهيوني، في نهاية الأمر، فكر نيتشوي، وفي تصوري أن نيتشه من أهم الفلاسفة الغربيين في العصر الحديث إن لم يكن أهمهم على الإطلاق، فهو فيلسوف الإمبريالية والداروينية الأكبر. ويمكن أن نرى خطأ واضحاً يمتد من مكيا فيللي عبر الفلاسفة الماديين والنفعيين إلى أن نصل إلى نيتشه الذي عزف معزوفته العدمية- النتيجة الحتمية للفلسفة المادية، بل وعزفها على أنها أغنية الروح الوحيدة. والصهيونية تؤمن لا بالرجل المتفوق وإنما بالأمة المتفوقة، وبكل القيم الداروينية من احتقار للفضيلة إلى تمجيد للقوة. وأجد الصهيونية، مثل النيتشوية، أصدق مثل على ماسميته دين دون إله: من إيمان بحقيقة مطلقة دون أخلاقيات، وبمنطق القوة، وبالتسامي فوق كل الحدود، أي أن تصبح الذات هي المطلق الوحيد (توثن الذات، كما سماها العقاد رحمه الله).

هذه هي بعض مواطن التماثل في بنية الفكرين الصهيوني والرومانسي. ويمكننا أن نخلص إلى بعض النتائج، بعضها ذات طابع منهجي، ينصب على طريقة التفكير وكيفيه استخلاص النتائج من المقدمات، والبعض الآخر ذو طابع مضموني، أي يزودنا بمضامين فكرية جديدة.

النتائج المضمونية

ولنبداً بالأمر الأسر، أي النتائج المضمونية التي يمكن أن نتوصل لها بخصوص الصهيونية، والتي نوجزها فيما يلي:

١- السياق الأساسي للحركة الصهيونية هو الحضارة الغربية في القرن التاسع عشر والتشكيل الإمبريالي الغربي (والرومانسية كانت أحد روافد هذه الحضارة وكانت الفكر المهيمن آنذاك). أما الدين اليهودي فهو - في تصوري - لم يكن سوى مصدر لشكل الصهيونية اليهودي أو ديباجاتها واعتذارياتها، وأما ما يسمى بالتاريخ اليهودي فهو أمر لا وجود له إلا في الكتب الصهيونية والمعادية لليهود واليهودية - أو في كتابات بعض العرب الذين يرددون المفاهيم الغربية دون فحص أو تدقيق. ولعل أكبر دليل على أن الصهيونية ظاهرة غربية استعمارية، وليست ظاهرة يهودية عالمية أنها لم تنشأ في صفوف اليهود العرب أو يهود إثيوبيا (على سبيل المثال)، كما أنها لم تنشأ في صفوف يهود الغرب إلا في القرن التاسع عشر، عصر الرومانسية والإمبريالية والتوسع.

٢- لا يختلف النموذج الكامن وراء الصهيونية كثيراً عن النموذج الكامن وراء معاداة اليهودية: فكلاهما يرى اليهودي على أنه شخص فريد هامشي، ينتمي للشعب اليهودي وللتاريخ اليهودي، ولذا لا يمكنه أن يدين بالولاء للبلد الذي يعيش فيه أو للأمة التي ينتمي إليها، وهو لكل هذا شخصية مخربة مدمرة. ولا بد من إنهاء هذا الوضع الشاذ عن طريق تصفية الوجود اليهودي في المنفى، أي في العالم بأسره. والمنطق الصهيوني والمعادي لليهود متطابقان تمام التطابق، قد يختلف الفريقان في طريقه تنفيذ البرنامج، ولكنهما مع هذا لم يحجما قط عن التعاون الواحد مع الآخر. ولذا فتاريخ الصهيونية هو أيضاً تاريخ تحالف القيادات الصهيونية مع أعداء اليهود في كل مكان. ولذا فالعرب الذين يشغلون أنفسهم بترجمة البروتوكولات والحديث عن الأفعى اليهودية وأختها الحية الصهيونية يخدمون المخطط الصهيوني من حيث لا يدرون.

ولعل المقارنة التي عقدناها بين الصهيونية ومعاداة اليهود واليهودية هي مثال تطبيقي لما سميت به التحليل النماذجي في مقابل التحليل المضموني، إذ أنه من زاوية المضمون المباشر تقف معاداة اليهود على طرف النقيض من الصهيونية، باعتبار أن الأولى تعادي اليهود أينما كانوا، بينما تدافع الثانية عن اليهود أينما كانوا. ولكن التحليل النماذجي المتعمق (للنصوص والظواهر) الذي يصل إلى العلاقات الكامنة يبين التماثل الذي لم يبينه التحليل المضموني المباشر.

وحتى لا يُساء فهم بعض الأفكار التي وردت في هذا الحديث أحب أن أضيف أن الأسطورة الصهيونية، بكل رومانيتها، قُدر لها الاستمرار والانتشار بسبب التمويل الغربي للكيان الصهيوني، فقد يسر هذا للصهاينة الاستمرار في أحلامهم الوردية المطلقة، وفي تركيزهم على الثابت دون المتغير. فالإنسان لا يصل إلى نوع من العقلانية وإلى شيء من التوازن بين الحلم والواقع إلا من خلال الممارسة التي يدفع أثناءها ثمن أخطائه وشطحاته. أما بالنسبة للصهاينة، فثمة قوى خارجية هي التي تسدد فواتير أخطائهم وأوهامهم، ولذا فهم يستمرون في ترديد شعاراتهم الفاشية ويتحدثون عن حدودهم المقدسة الآمنة ويطرحون برامجهم السياسية المطلقة التي تعود جذورها إلى ماضٍ سحيق لم يبق منه سوى بعض الآثار والأطلال.

وفي النهاية أرجو ألا يفهم من دراستي هذه مايلي.

١- أنني قرنت الرومانسية بالصهيونية وعادلت بينهما.

٢- أنني ذكرت أن الرومانسية قد تسببت، بشكل أو آخر، في ظهور الصهيونية.

٣- أنني قلت أن الرومانسية تشبه الصهيونية.

٤- أو أنني قلت إننا يجب أن نقبل الصهيونية لأنها رومانسية، أو نرفض الرومانسية لأنها مقترنة بالصهيونية.

كل ماقلته هو أنني من خلال تحليل نماذجي متعمق (تضمن النصوص الأدبية والوثائق التاريخية والفلسفية والاجتماعية وحركة التاريخ نفسها) توصلنا إلى أنه ثمة تماثل بين بنية الصهيونية وبنية الرومانسية أو إلى أن بنية الصهيونية رومانسية وهو تماثل متوقع باعتبار أن الرومانسية كانت تشكل أهم عناصر السياق العام للفكر الغربي في القرن التاسع عشر.

بعد هذا التصنيف والتوصيف لكل من الرومانسية والصهيونية يجب ألا نقنع بهذا المستوى، وإنما ينبغي كمسلمين وكعرب أن نصدر أحكاماً أخلاقية قيمة، وإن لم نفعل نكون كجماد ينظر إلى جماد. أما الرومانسية فأنا من المعجبين بكثير من جوانبها، وأعتقد أنها كنسق فلسفي وكطريقة للإدراك تخلق التوجه المطلوب نحو الرؤية الإيمانية، وذلك على عكس الفلسفة النفعية العقلانية التي تخلق التوجه نحو الفلسفات العلمانية والمادية. إن الرومانسية هي المرحلة التي يدخلها الإنسان الذي يؤمن بإفلاس الحواس ويفشل الأمر الواقع في إشباع جوعه الروحي.

ولتلاحظوا ما أقول - لا الرومانسية تؤدي إلى التدين ولا العقلانية تؤدي إلى العلمانية والمادية - فهناك ماديون رومانسيون (مثل النازيين والماركسيين) وهناك متدينون عقلانيون مثل المعتزلة وكثير من المفكرين المسيحيين في القرن الثامن عشر. كل ما أقوله أنه ثمة ترابط اختياري أو علاقة قريى بين الرومانسية والتدين.

بعض الملاحظات المنهجية

يمكننا الآن أن نذكر بعض الملاحظات المنهجية التي يمكننا استخلاصها من عملية التفكير والتركيب التي قمنا بها:

١- يجب أن نفصل وبجده، على مستوى التحليل، بين الوصف والتقييم، فالوصف يتطلب نوعاً من التجرد من القيم ورفضاً لمحاكمة الأشياء والظواهر من أي منظور أخلاقي أو فلسفي، كما يتطلب الرؤية الدقيقة التي تحاول أن تصل إلى القوانين الخاصة التي تتحكم في الشيء والتي نطلق عليها منطق

الظاهرة. فإن وصفت الصهيونية بالرومانسية فهذا لا يعني رفضاً أو قبولاً للصهيونية، كما لا يتضمن حكماً قيمياً على الرومانسية.

٢- الوصف المتعمق والتصنيف الدقيق والتحليل النماذجي يجب أن يتجاوز المضمون الواضح والمباشر ليصل إلى بنية الفكر ونموذجه المعرفي الكامن. والنموذج المعرفي يتجاوز المضمون بل والشكل بالمعنى السطحي ليصل إلى العلاقات الأساسية التي تربط بين العناصر المختلفة المكونة للظاهرة - وهذا مختلف تماماً عن تصور دعاة البنيوية لفكرة النموذج، فهم يتبنون أساساً نماذج لغوية أو أنثربولوجية أو رياضية عامة ومجردة يرصدون وجودها في كل الظواهر في كل زمان ومكان بغض النظر عن خصوصيتها وتفردتها، ولذلك فالبنيوية تنكر التاريخ والزمان لأن تجريدتها تجعلها تصل إلى بنايا ثابتة جامدة شبه مطلقة. أما رؤيتنا نحن للنموذج فأكثر تركيبيّة وإنسانية، فالنموذج ليس له وجود إمبريقي ومع هذا فإن الباحث يقوم بتجريده من خلال قراءته المتعمقة لنصوص وظواهر متماثلة مختلفة محاولاً الوصول إلى ما هو عام وخاص فيها وكيف يتقاطعان. ولذلك فهو يتجاوز النصوص والظواهر إلى حد ما، ولكنه لا يصل إلى مستوى عال من التجريد بحيث يفقد الصلة بخصوصية النصوص والظواهر موضع الدراسة أو باللحظة التاريخية التي توجد فيها. بل إن التاريخ أو البعد الزمني يشكل أحد عناصر النموذج الأساسية الذي يمنحه كثيراً من خصوصيته وتفردته. والنموذج المعرفي التحليلي في نهاية الأمر يمكن اختبار مقدرته التفسيرية بالعودة للظواهر والنصوص التي تم تجريده منها. وكلمة «نموذج» كما استخدمها هي قريبة في معناها من كلمة Theme الإنجليزية وهي تعني الفكرة المجردة والمحورية في عمل أدبي ما والتي تتجاوز العمل ولكنها مع هذا كامنة فيه وفي كل أجزائه، تمنحه وحدته الأساسية وتربط بين عناصره المختلفة. كما أن الكلمة قريبة في معناها من مصطلح «النمط المثالي» Ideal Type الذي استخدمه ماكس فيبر كأداة تحليلية. والنمط المثالي ليس

حقيقة إمبريقية أو قانونا علميا، وإنما هو أداة تحليلية تهدف إلى عزل بعض جوانب الواقع وإبرازها حتى يتسنى إدراكها بوضوح، ومعرفة أثرها على الواقع. ومعظم الظواهر التي نفكر فيها ليست حقائق إمبريقية، «فالرأسمالية اليابانية» و«الحضارة الغربية» و«النفعية» و«المفهوم العذري للحب» ليست أشياء مادية محددة، ولا يمكن فهمها عن طريق القرائن والاستشهادات، وإنما يمكن للمرء أن ينحت نموذجا إفتراضيا للحضارة الغربية الحديثة يكون بمثابة استعارة أو صورة مصغرة تحوي في داخلها بنية تشاكل بنية الواقع. ولذا فمثل هذا النموذج قادر على تفسير هذا الواقع أو تفسير جزئياته الكثيرة لا كمضامين متناثرة وإنما كبنية متكاملة متداخلة وكمجموعة من العلاقات الحية.

٣ - وفي تصوري أن إحدى مشاكل الفكر العربي أنه لا يزال فكراً مضمونياً أي يتعامل مع المضامين المباشرة ولا يصل إلى العلاقات المجردة الكامنة، أو إلى النماذج المعرفية كما عرّفها. ولنضرب مثلاً عملياً على ما نقول بالإشارة إلى حديثين شريفيين.

أ- قال رسول الله ﷺ: «عذبت امرأة في هرة، حبستها حتى ماتت، فدخلت فيها النار. فلا هي أطعمتها وسقتها إذ حبستها، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض».

ب- قال رسول الله ﷺ: «بينما رجل يمشى فاشتد عليه العطش فنزل بئراً فشرب منها ثم خرج، فإذا هو بكلب يلهث يأكل الثرى من العطش، فقال: لقد بلغ هذا مثل الذي بلغ بي، فملأ خفه ثم أمسكه بفيه، فسقى الكلب فشكر الله له، فغفر له. قالوا: يا رسول الله، وإن لنا في البهائم أجراً؟ فقال: في كل ذات كبد رطبه أجر» (أي كل حي من الحيوان والطير ونحوهما).

لو نظرنا إلى هذين الحديثين الشريفين من منظور المضمون المباشر لقلنا إنهما يقفان على طرفي النقيض، الحديث الشريف الأول عن القطط والنساء وجهنم

والثاني عن الرجال والكلاب والجنة، وإذا نظرتُ إليهما بمنظار بنيوي (بالمعنى الغربي الشائع الآن) لجردتهما إلى بنية لغوية ولقلتُ إنَّ ثمة تعارضات ثنائية (المرأة ضد الرجل، قط ضد الكلب، الجوع ضد العطش، وزيادة الجوع ضد السقيا، والجنة ضد جهنم) ولقلنا - على سبيل المثال - إنَّ العلاقة بين العناصر المختلفة في الحديثين الشريفين تشبه علاقة الفاعل بالمفعول.

وأعتقد أنه لا التحليل المضموني الأول، الذي يكتفي بالمضمون المباشر الواضح، ولا التحليل البنيوي الثاني، الذي يجرد الحديث من أي مضمون ويحوّله إلى بنية لغوية مجردة أو بنية هندسية طريفة خالية من المضمون - لا هذا ولا ذاك يفي بالغرض، ويمكننا أن نقول إنَّ التحليل النماذجي، بالمعنى الذي أطرحه للكلمة، لن يقوم بتحليل الحديثين للوصول إلى نماذج لغوية أو أنثروبولوجية عامة، وإنما سيجرد منهما نماذج معرفية تؤكد العام والخاص، وتتحرك من المضمون الخاص إلى البنية العامة المجردة دون أن تنسى خصوصية الحديثين ويمكننا أن نرى الحديثين في هذا الضوء على أنهما يحاولان تحديد علاقة الرجل والمرأة بالقطّة والكلب، أي علاقة الإنسان بالحيوان، بل والإنسان بالطبيعة. ويمكننا القول أنها في جوهرها علاقة توازن مع الطبيعة (عُذبت المرأة في هرة) (بلغ هذا مثل الذي بلغ مني) (في كل ذات كبد رطبة أجر) ولكنه توازن لا ينطوي على مساواة بين الإنسان والطبيعة (إننا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا)، وإنما تفترض تميز الإنسان وتفردّه ومسئوليته. ففي الحديثين الشريفين الفاعل هو الإنسان (رجل أو امرأة) والمتلقي هو الحيوان (قطّة أو كلب) والثواب والعقاب من نصيب الفاعل المسئول. وإن تعمقنا لوجدنا أن بنية الحديثين تتسق مع النهج الإسلامي في التفكير ومع البنية الكامنة في القرآن الكريم والحديث الشريف ومع النموذج المعرفي الإسلامي وبنية الإسلام الفلسفية ككل.

٤- يتسم التفكير المضموني أنه لصيق بالواقع لا يحاول تجاوزه، ولذلك كما بينا نجد أن النظم التصنيفية ذات الطابع المضموني ليست جيدة ولا مفيدة. فالتفكير المضموني يبدأ عادة من الشواهد الملموسة والقرائن الجزئية- أي من مكونات أو عناصر المضمون المختلفة، ولذا فهو يظل حبيس هذا المضمون وحبيس الأجزاء، لا يمكنه أن يصل إلى الكل إلا بصعوبة بالغة. وحين يصل إلى هناك يصعب عليه أن يربط بين هذا الكل وكميات أكثر تجريداً لأن عيونه مستقرة دائماً على الشواهد والقرائن والاستشهادات الجزئية المتناثرة الملموسة. فالتفكير المضموني «يحدد ولا يخلق» (على حد قول جمال حمدان) ولا يمكن أن يصل إلى الكميات ولذلك فمثل هذا التفكير لا يمكنه أن يأتي بأطروحات جديدة خلاقة، ويمثل حجرة عثرة في طريق الإبداع، فالإبداع هو أساساً اكتشاف علاقات جديدة بين الأشياء. بل إن الهوية الحقيقية لأي شئ لا توجد فيه في حد ذاته أو في عناصره المختلفة وإنما توجد داخل شبكة مركبة من العلاقات بين هذه العناصر.

ولنتخيل عالماً إسلامياً يتعامل مع الأحاديث الشريفة من منظور المضمون وحسب لا شك أنه سيفشل في ربطها مع المفاهيم الكلية الإسلامية الأخرى. هذا على عكس عالم إسلامي على قدر كبير من الخيال والثقافة والاطلاع. والمعرفة بالتراث الديني، كنصوص وكممارسات عبر التاريخ الإسلامي قادر على تجريد النماذج المعرفية الكامنة فيها، وعلى تجريد النموذج المعرفي الكامن في الحديثين. سيكون بوسع هذا العالم أن يأخذ النموذج الذي جردناه بخصوص التصور الإسلامي لعلاقة الإنسان بالطبيعة، باعتبارها علاقة اتصال وانفصال، علاقة استخلاف وليس علاقة هيمنة على الطبيعة أو اذعان لها. وسيكون بوسعه أن يزيد هذا النموذج كثافة بالعودة لبعض ممارسات الصحابة- رضي الله عنهم- وممارسات بعض المسلمين في أندونيسيا - على سبيل المثال- وممارسات المسلمين في العصر العباسي. ويمكنه أن يربط هذا النموذج المعرفي التحليلي بالموقف الإسلامي من الذبح الشرعي

وقوانين الطعام، بل ويمكنه أن يربط هذا النموذج بفكرة السنة القمرية الإسلامية (التي تخالف فصول الطبيعة بحيث يأتي رمضان في الصيف أحياناً وفي الشتاء أحياناً أخرى) وبفكرة التقويم الإسلامي الذي يبدأ بالهجرة وليس بميلاد الرسول - باعتبار أن الهجرة عمل يقوم به فاعل بوحى من الخالق - عمل إنساني واع، وليس عمل طبيعي مثل الميلاد.

٥ - ومن خلال النماذج المعرفية يمكن أن نقوم بعمليات ذهنية فنقول: إن كان كذا فمن الممكن أن يكون كذا. ثم نختبر هذه الافتراضية الجديدة التي ولدت من النموذج بالعودة للواقع. ويمكن تصور العلاقة بين النموذج التحليلي والواقع على أنها علاقة حلزونية، إذ أننا نحتسب النموذج الافتراضي عن طريق معاشتنا لواقع ما وعن طريق تأملنا فيه وعن طريق قراءتنا وتمحيصنا. وبعد نحتسب النموذج نعمل فيه الذهن والفكر لنولد علاقات افتراضية، تكثفه وتصقله ثم نعود به إلى الواقع، فينيره لنا. ولكن الواقع في كثير من الأحيان، يتحدي النموذج فيعدله ويزيد من (تكثفه و صقله). الحركة إذن من الواقع إلى العقل ومن العقل إلى الواقع، وأثناء هذه العملية الحلزونية يزداد النموذج التحليلي كثافة وحيوية أو مقدرة على التفسير تماماً كما فعل العالم الإسلامي، صاحب الثقافة والإبداع.

٦ - النموذج المعرفي التحليلي هو استعاره مكثفة منفتحة على الواقع، وهو كاستعارة يعبر عن جوهر الواقع كعلاقات متشابكة، دون أن يكون لصيقاً به. وحينما نقول استعارة فنحن لا نعني شيئاً خيالياً هبط علينا من القمر، وإنما نتحدث عن وسيلة لإدراك ما لا يمكن إدراكه بشكل مباشر نظراً لتركيبته. وكما نعلم يصف القرآن الكريم الله سبحانه وتعالى بأنه (ليس كمثله شيء) أي أنه لا توجد لغة يمكنها أن تساعدنا على إدراك كنه الله عز وجل. ولكن مع هذا ينقل القرآن الكريم مفهوم الله إلى عقل الإنسان القاصر عن طريق الاستعارة المركبة، (الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح). ويالها

من استعارة متواضعة، ولكنها تعكس لعقل الإنسان القاصر فكرة اللامتناهي .
ثم ينطلق القرآن من هذه الاستعارة فيكثفها (المصباح في زجاجة، الزجاجاة
كأنها كوكب دري). وهكذا خرجنا من الاستعاره المتواضعة المستقرة في عالم
الحدود إلى استعارة أخرى تكاد تكون لا متناهيه، فعقل الإنسان حينما ينظر
الى الكوكب الدري، فإنه يشعر بالرهبة- ولكن الرهبة هنا لاتزال رهبة أمام
المخلوق، ولكنها مع هذا تصلح كاستعارة على الرهبة التي يمارسها الإنسان
أمام الخالق- إستعارة وحسب إذ يظل الله وحده هو اللامتناهي . ثم بعد
الإشارة إلى اللانهائي والإيحاء به نعود مرة أخرى لعالم المؤلف (يوقد من
شجرة مباركة زيتونة لاشرقية ولا غربية). لازلنا في عالم النور الإلهي، ولكننا
انتقلنا من المشكاة إلى الكوكب ثم نعود إلى وقود المشكاة؛ إلى تلك الشجرة
المباركة التي أخذ منها الزيت، ثم نصل إلى الزيت نفسه (يكاد زيتها يضيئ ولو
لم تمسه نار). وهكذا تزداد الاستعارة كثافة بإضافة الأبعاد لها، ويزداد تشتت
مركزها مما يبعتها عن أي تجسد أو تشبيه. ولا يمكن أن ندعى أننا ندرك الذات
الإلهية إدراكاً كاملاً في نهاية الآية، فهو عز وجل ليس كمثله شيء، وإن كنا
قد اقتربنا منه في إدراكنا بعض الشيء.

٧- الدعوة إلى التفكير النماذجي، أي التفكير من خلال نماذج تحليليه والابتعاد
عن التفكير المضموني، هي أيضا دعوة للابتعاد عن الإصرار على مستوى عال
من اليقينية، وأن نبحت عن مستوى من اليقينية في العلوم الإنسانية يختلف عنه
في العلوم الطبيعية (ولعل الفكر المضموني هو نتاج العقلية العلمية بالمعنى
الشائع للكلمة التي ترى أنه لايمكن أن نصل الى الحقيقة إلا عن طريق الملاحظة
الامبريقية وتراكم المعطيات ثم التوصل إلى النتائج). فمستوى اليقينية الذي
نطمح له في دراستنا لتاريخ العباسيين أو لعلاقه الرومانسية بالصهيونية مختلف
عن مستوى اليقينية في دراسة عن تكوين الأرض في منطقة الرياض أو منسوب
المياه الجوفية فيها. فالعناصر المكونة لسظاهرتين الأوليين عناصر مركبة، بعضها

مجهول لدينا، وربما قد يظل مجهولاً أبداً الأبدية. كما أن العلاقة بين عنصر وآخر وتأثير الواحد في الآخر أمر صعب التحقق منه، ومن هنا كانت ضرورة النماذج الافتراضية، ومن هنا أيضاً البحث عن مستوى خاص من اليقين.

٨ - يمكن أن نؤكد في هذا المضمرة أن الواقع الإنساني (أو التاريخي أو الاقتصادي) مكون من عناصر وأنساق مختلفة ليست مترابطة بشكل عضوي أو حتمي، إذ توجد بينهما مسافات. فالعناصر الاقتصادية في مجتمع ما قد تكون فاعلة في وقت ما، بينما يمكن أن تكون العناصر العقائدية أكثر فعالية في وقت آخر، أي أنه لا يوجد أولوية سببية لأي عنصر علي وجه التحديد، وبشكل مسبق. كما أننا يجب أن نؤكد أن العلاقة بين الفكر والسلوك وبين العناصر الفكرية والاجتماعية والعناصر الأخرى في المجتمع ليست علاقة سببية وإنما علاقة احتمالية، ولذا نجد أن بنية فكرية أو حضارية ما قد تؤدي إلى شيء ما وعكسه. فالرومانسية على سبيل المثال ساهمت في البعث الديني في أوروبا وفي بعث الإيمان بفكرة الجماعة العضوية المترابطة (جما ينشافت)، على عكس المجتمع الحديث الذي تراه النظرية الرومانسية باعتباره مجتمعاً ذرياً تعاقدياً، الروابط فيه خارجية وليست عضوية (جيسيلشافت). ولكن الرومانسية أيضاً أفرزت الفردية المتطرفة والنيتشوية والصهيونية ومعظم التبريرات الفلسفية الإمبريالية. والثورة الصناعية هي الأخرى قد أدت إلى ظهور نقيضين: الفردية الكاملة والجمعية المفرطة. ولنفس السبب نجد أن مجتمعاً عنصرياً مثل التجمع الصهيوني من الممكن أن يكون رومانسياً في رؤيته لنفسه وفلسطين، عملياً في سلوكه. والمجتمع الناري مثل آخر على مجتمع تبني أسطورة عنصرية ثم وظّف العلم والتكنولوجيا لترجمة الأسطورة إلى حقيقة.

٩ - لعله بسبب وجود مسافة بين الفكر والممارسة، وبين الفكرة والفكرة، يجب ألا نحكم على فكر سياسي كبنية فكرية محضة وإنما يجب أن نضع هذا الفكر في سياق أفكار أخرى وفي سياق الممارسات التي يقوم بها حاملو هذا الفكر. ولتخيل النسق الفكري الصهيوني باعتباره محاولة أيديولوجية لبعث التراث

اليهودي بين يهود المنفى وحسب، أو أن التجربة الصهيونية قد نُفذت في أرض فراغ في الأرجنتين كما كان مقرراً لها في بداية الأمر، بحيث يؤدي الاستيطان الصهيوني إلى حل مشكلة يهود شرق أوروبا وإلى ازدهار الاقتصاد الأرجنتيني دون طرد للسكان وتشريد للملايين، وغارات تقذف النابالم على مخيمات اللاجئين - دون حاجة إلي صابرا وشاتيل. أعتقد أن اعتراضنا عليها ما كان ليصبح بهذه الحدة. والفكر النازي إن قُرأ بمعزل عن الممارسة النازية فكر قومي رائع. وقد كتب النازيون على أحد معسكرات الاعتقال: (إن العمل سيمنحك الحرية) وهي ولاشك أفكار سامية لم يكن يشارك فيها المعتقلون الذين كانوا يعملون في نظام السخرة.

١٠- يجب ألا نحكم على نسق فكري أو اجتماعي ما إلا بعد توصيفه وتصنيفه، ثم ننصرف بعد ذلك لإطلاق الأحكام القيمية. وحينما نفعل ذلك يجب أن نكون واعين بما نفعل وبأن التقييم يختلف عن الوصف. كما يجب أن نكون مدركين للمنظومة القيمية التي ننطلق منه والفلسفة التي تصدر عنها، وأن نعرف أن الحكم القيمي هو في نهاية الأمر حكم يحوى داخله شرعيته، فإن كنت تحكم على الظاهرة من منظور إسلامي فأنت تفعل ذلك لأنك مؤمن بالإسلام، وبالتالي فمنطق الحكم (الذاتي) مختلف عن منطق الأشياء (الموضوعي). ولعل هذا الموقف يمكننا نحن المسلمين من أن ننفتح على العالم دون أن نفقد هويتنا وقيمنا، إذ يمكنني، في هذه الحالة، أن أقوم بقراءة عمل أدبي ما فأصفه وأحلله وأبين بنيته والصور المتواترة فيه ومعناه وارتباط شكله بمضمونه، بل يمكنني أن أبين مواطن الجمال فيه كعمل أدبي وأربطه بالتقاليد الأدبية التي يصدر عنها-أي أن أقوم بعمل كناق أدبي. ثم بعد أن أنتهي من المرحلة الأولى هذه أنتقل إلى المرحلة التقييمية التي أتحدث فيها كمسلم وأرفض القيم التي وردت في العمل الذي قمت بتحليله وتوصيفه وتقييمه كناق أدبي- أرفضه كمسلم لأنه ربما يجسد قيما أخلاقية لا تتفق مع قيمتي الدينية. وبهذا لن يضطر المسلم إلى رفض دراسة عمل ما أو ظاهرة ما لأنها

منافية للدين والأخلاق، وإنما سدرسها بموضوعية وحيادية ثم يقيّمها من منظوره. وقد يقال إن في هذا تناقض مع الذات، ولكنني أرد قائلاً إن في هذا تقبل حقيقة أساسية وهي أن الواقع الإنساني مركب يحتوي على بنى متداخلة غير مترابطة. وحيث أنه لا توجد علاقة حتمية بين الجمال والخير والقبح والشر، فعلى أن نتقبل تعدد البنيات فنصف ثم نقيم.

١١- وأخيراً يجب ألا نخجل من التعميم وألا نصدق ما يقوله بعض التجريبيين والوضعيين (في العالم الغربي أساساً) من أن التعميم والتجريد أمور يجب الابتعاد عنها بقدر المستطاع وأنهما يجب أن يستندا إلى التجريب وحده وإلى ما يدرك بالحواس الخمسة وحسب. إن التجريد والتعميم أمور أساسية وضرورية للفكر الإنساني فنحن إن قلنا «أخلاقيات العالم الغربي» أو «الرومانسية» أو حتي «الصهيونية» فإننا نكون قد فكرنا من خلال تعميمات واستخدمنا مقولات ليس لها أساس تجريبي ولا يمكن إدراكها بالحواس الخمسة وإنما توصلنا لها من خلال نماذج عقلية افتراضية تساعدنا على تصنيف معطيات الواقع، وهي مقولات لا يمكن أن ندرك العالم ونصنفه ونعرفه ونتعامل معه دونها. وبدون تعميم لا يمكن أن يكون هناك إبداع. فمن خلال التعميم (وتجريد النماذج الكامنة) نصل إلى علاقات الأشياء كما ندركها نحن من خلال تجاربنا ونصل إلى تعريفات يمكن لتجاربنا التاريخية الخاصة أن تنضوي تحتها.

بل ويمكننا القول أنه بدون المقدرة على التعميم والتجريد الخلاق لا يمكن أن نحقق أي تحرر من الواقع المباشر، وواقعنا العربي -أي حاضرتنا- ساهم الغرب في صياغته عن طريق سلعه ومفاهيمه وجيوشه. وإذا استمر الآخرون في القيام بعملية التعميم بالنيابة عنا، من خلال تجاربهم هم ومن خلال إدراكهم، فإنهم سيلقون علينا بمقولاتهم جاهزة إما أن نقبلها فنخضع لرؤيتهم أو نرفضها فنقف في مهبط ريح التفاصيل المتناثرة - وهذا ما أشرنا له في المقدمة بعبارة «إمبريالية المقولات».

ومن أهم الأمثلة على ما نقول تعريف كلمة «قومية» أو «أمة» كما هو شائع في

العلوم الاجتماعية. هذا التعريف ناتج عن التشكيل الحضاري الغربي في القرن التاسع عشر، أفرزته الحضارة الغربية الصناعية الرأسمالية (والاشتراكية) بعد قرون من الحروب بين كل دول ومقاطعات أوروبا، وأعقب تبنيه عدة حروب صغيرة وحربان عالميتان تمت كلها في إطار هذا المفهوم. وقد صُدر لنا -ولكل دول آسيا وأفريقيا- هذا التعريف. وبدأنا نحكم على أنفسنا وعلى تجربتنا الحضارية من منظوره بل وبدأ بعضنا يتحدث عن «الشعوب العربية» أو عن «الشعوب المتحدثة بالعربية» باعتبار أننا لسنا أمة. ولكنهم يقولون في واقع الأمر أننا لسنا أمة بالمعنى الغربي للكلمة الذي جرى تجريده من البنية السياسية الغربية في القرنين التاسع عشر والعشرين.

لكل هذا يجب ألا نرفض التعميم بل وأن نصر عليه، على أن يكون منطلقاً من كل التجارب التاريخية والحضارية في الشرق والغرب. بل ويمكن أن يكون التعميم مؤقتاً وهو أمر مقبول طالما أنه يفسر جوانب من الواقع، وهو ما يسمى بالتعريف الإجرائي - أي تعريف قادر على تفسير جوانب هامة من الظاهرة ولكنه لا يدعي أنه تعريف جامع مانع.

إن ما يجب أن يحدد موقفنا ليس هو مدى دقة التعميم أو مدى تطابقه مع الواقع بشكل مجرد، وإنما مدى مقدرته التفسيرية وملاءمته للمستوى التحليلي الذي اختاره الباحث لنفسه - أي مدى ملاءمته للواقع الذي يجري تفسيره. فلو كان الحديث عن معدل الجريمة في مدينة ألمانية في القرن التاسع عشر فإن المستوى التحليلي لا يسمح بالحديث عن الحضارة الغربية إلا كعنصر واحد من بين عناصر أكثر خصوصية ومباشرة. ولكن لو كان الحديث عن أزمة المجتمع الحديث فإن الحضارة الغربية تصبح مقولة أساسية ومستوى تعميمياً مقبولاً لأنه يتفق مع المستوى التحليلي، أي أن مستوى التجريد لا بد وأن يتطابق مع المستوى التحليلي. وهذا في تصورنا هو مشكلة البنيوية الأساسية، فهي تصل إلى مستوى تجريدي عال وتصل إلى بنيات تشبه البنيات الرياضية، ثم تطبقها على كل النصوص والظواهر

بغض النظر عن المستوى التحليلي، ولذا فهي غير قادرة على التعامل مع خصوصية الأعمال الأدبية ولا مع تاريخية الظواهر الاجتماعية، وتظل ضائعة في الثنائيات المتعارضة. ونحن لا ننكر هنا جدوى المستوى التجريدي العالي، مهما بلغ ارتفاعه، ولكن نبين عدم جدواه بالنسبة لمستويات تحليلية تكون خصوصية الظاهرة وتاريخيتها أكثر أهميته من جوانبها العامة التي تشترك فيها مع ظواهر أخرى. فقد قال الرسول ﷺ (لا فضل لعربي علي عجمي إلا بالتقوى) فهو يؤكد تساوي كل البشر وإنسانيتهم المشتركة، وبذا تصبح التقوى مقياساً واحداً ينطبق عليهم كلهم في كل زمان ومكان. ولكنه مع هذا أكد هوية كل، وهي هوية لها خصوصيتها وتاريخيتها. فتوجه للعربي وللعجمي ولم يطلب من أي منهما التنازل عن هذه الهوية وإنما اعترف بها بأن توجه لها.

٣- الادراك والمقدرة التنبئية للنموذج

يمكن القول أنه كلما ازداد النموذج إحاطة بجوانب الظواهر وأبعادها المختلفة، أي كلما ازداد تركيبية، زادت قدرته التفسيرية والتنبئية. ونحن نرى أن استرداد العامل الإنساني (بدوافعه ورؤاه وذاكراته وأحزانه وأفراحه ومصالحه ومصالحته الحقيقية والمتخيلة) هي أهم عناصر التركيب، ومن ثم أهم العناصر في زيادة المقدرة التنبئية للنموذج. وقد يكون من المفيد أن أضرب مثلاً بمحاولة سابقة قمت بها في محاولة رصد الواقع من خلال نموذج مركب وكيف أن زيادة التركيب تؤدي إلى زيادة المقدرة التفسيرية والتنبئية. فقد نشرت في جريدة الرياض (المملكة العربية السعودية) مقالاً بعنوان "إلقاء الحجارة في الضفة الغربية" وذلك في ٢٤ فبراير ١٩٨٤. وقد تنبأت في هذا المقال بأن استخدام الحجارة سيكون أحد أشكال النضال الأساسية. والواقع أنني توصلت إلى هذه النتيجة بعد صياغة نموذج مركب يسترجع العامل الإنساني الإسرائيلي والعامل الإنساني العربي وادراك كل منهما للواقع. فبدأته بالإشارة إلى الوهم الإسرائيلي الذي يستند إلى الرؤية المادية بأن «المقاومة قد اجتثت تماماً من جذورها» وأن هناك علامات وقرائن على ما سماه الجنرال بنيامين بن أليعازر (منظم الأنشطة في الضفة الغربية وحاكمها العسكري) "الاتجاه المتردد أو الحذر نحو البرجماتية" والذي يعني في نهاية الأمر «التكيف مع الأمر الواقع وتقبله» (الجيروساليم بوست ١٤ نوفمبر ١٩٨٣). وقد رأى الجنرال إمكانية تقوية هذا الاتجاه عن طريق إنشاء عدد أكبر من البنوك والشركات الاستثمارية، أي عن طريق إشباع الحاجات الاقتصادية لدى العرب وإغراق هويتهم، الأمر الذي يؤدي إلى استغراقهم فكرياً في أمور الدنيا والمال بدلاً من قضايا الوطن والأرض والهوية!

ولم تكن الولايات المتحدة بعيدة عن هذا الاتجاه التطبيعي البرجماتي، فقد قامت الولايات المتحدة (كما أذكر في المقال) بمد يد المساعدة إلى الجنرال الإسرائيلي المذكور، فدُعي إلى الولايات المتحدة ليجتمع مع وزير الخارجية الأمريكية وكبار موظفي الوزارة لبحث معهم كيف يمكن تحسين مستوى معيشة العرب في الأرض

المحتلة (أي مزيد من البنوك) وكيف يمكن للولايات المتحدة أن تساهم في التخفيف من حدة بعض جوانب الاحتلال الإسرائيلي عن طريق المساعدات الفنية والتنمية .

وبعد أن عرضت للرؤية الصهيونية المادية الاختزالية للعرب، حاولت أن أحدد الحالة العقلية والنفسية للصهاينة والأهداف المحددة التي يرمون إلى إنجازها، فوصفت الاستعمار الصهيوني بأنه استعمار استيطاني إحتلالي لا يود استغلالنا أو استغلال مواردنا الطبيعية وحسب (كما كان الحال مع الاستعمار الإنجليزي في مصر) وإنما يرمي إلى ما يلي :

١ - استلاب الأرض .

٢ - العيش فيها ينعم براحة البال والهدوء .

٣ - كما أنه يود أن يسلبنا أسباب الحياة والاستمرار حتى نرحل من الأرض ليحل محلنا فيها .

والمستوطنون الصهاينة، في تصورنا، هم أساساً مرتزقة، ولكن بينما كان القدامى منهم على استعداد لتحمل شظف العيش وإرجاء الإشباع وانتظار المكافأة المادية المؤجلة، نجد أن المستوطنين الجدد، مع تزايد معدلات العلمنة، يصرون على تحقيق مستويات معيشية وأمنية عالية عاجلة دون تأجيل . ولذا، فإن المنظمة الصهيونية تدفع لهم الرشاوي الباهظة على هيئة منازل مريحة وطرق مُعدّة خصيصاً لهم ومدارس لأطفالهم وحراسة مشددة حتى ينعموا بالعيش في هواء «أرض الميعاد المكيف» . إن النموذج الإدراكي للصهاينة نموذج آلي اختزالي مادي، وبالتالي كانت رؤيتهم للعرب ولأنفسهم آلية اختزالية مادية .

في مقابل ذلك، رصدت موقف العرب فلاحظت أنهم يرفضون الانصياع للنموذج الاختزالي المادي الذي يُطبق عليهم . وقد لاحظ الجنرال بن أليعازر نفسه أن العرب يلقون بالحجارة على الإسرائيليين، وصرح لجريدة معاريف (١٤ نوفمبر ١٩٨٣) عن قرار بوضع حد لظاهرة إلقاء الحجارة . ثم بعد يومين اثنين، اصطحب

الجنرال الإسرائيلي البرجماتي أحد مؤسسي روابط القرى لافتتاح مبنى بلدية جديد في إحدى مدن الضفة . ولكن الجماهير الفلسطينية العنيدة لم تبد أي برجماتية أو اعتدال أو تقبل للقانون الطبيعي المادي، ولم تقابل أبطال البنوك والاستثمارات بالزهور وإنما بالحجارة (الجيروساليم بوست ١٦ نوفمبر ١٩٨٣) . وقد أشرت في المقال إلى وقائع عديدة أخرى عن إلقاء الحجارة أدت إلى غضب المستوطنين الصهاينة وإلى مطالبتهم الجيش الإسرائيلي بالتدخل لوضع حد لهذه الظاهرة . بل إن رئيس وزراء الكيان الصهيوني (كما ورد في الجيروساليم بوست ٢٤ يناير ١٩٨٤) اجتمع مع عضوي الكنيست من كتلة هتسيا وأخبرهما أن إلقاء الحجارة من أسباب قلقه العميق ووعد بأن يدرس القضية شخصياً .

بعد أن رصدت ما تصورته النموذج الإدراكي للفلسطينيين العرب وتصورهم لأنفسهم، حاولت أن أرصد إدراكهم لحالة الإسرائيليين النفسية والعقلية ولنموذجهم الإدراكي، فقلت بالحرف الواحد : "إن مواطني الضفة الغربية أدركوا أن كل ما ينقص على المستوطنين (مكيّفِي الهواء) حياتهم هو في نهاية الأمر إحباط للمخطط الصهيوني"، ومن هنا أصبح إلقاء الحجارة سلاحاً أساسياً في الضفة الغربية . وقد تنبأت في المقال ذاته أن هذا السلاح، رغم ضعفه وبدائيته، قد أصبح سلاحاً فعالاً سيتزايد في أهميته .

والواقع أنني قد وصلت إلى ما توصلت إليه من نتائج لا من خلال عملية رصد خارجية لأحداث لا معنى لها تتم على مساحة وإنما من خلال مراقبتي لبشر لهم رؤية محددة تحدد استجاباتهم وتوقعاتهم وبالتالي سلوكهم . فالصهيوني الذي يحاول أن يرفع مستوى معيشة العرب، حتى ينسوا الوطن والهوية، هو نفسه الذي يود أن يتمتع بحمام السباحة في المستوطنة والذي يصبر على مستويات عالية من الراحة والمتعة . والعربي الذي يرفض الانصياع للرؤية البرجماتية التي تود تطبيعته وتدجينه هو نفسه القادر على أن يدرك التآكل الداخلي للمستوطنين وتحولهم إلى شخصيات شرهة مستهلكة غير منتجة . من هنا الحجر الذي قد لا يقتل ولكنه يعكر صفو المستوطنين ويسقط معنى حياتهم . ومن هنا كانت الانتفاضة . والله أعلم .

* المؤلف *

الدكتور عبد الوهاب المسيري مؤلف عربي معني بالحضارة الغربية الحديثة وبشتون أعضاء الجماعات اليهودية في العالم وبالفكر الإسلامي.

ولد في دمنهور (البحيرة) عام ١٩٣٨ ويعمل أستاذاً غير متفرغ للأدب الإنجليزي والمقارن بجامعة عين شمس (كلية البنات).

له عدة دراسات في الصهيونية وتاريخ الحضارة والنقد الأدبي من أهمها :

* نهاية التاريخ : مقدمة لدراسة بنية الفكر الصهيوني (القاهرة، ١٩٧١).

* الأيديولوجية الصهيونية : دراسة حالة في علم اجتماع المعرفة (الكويت ١٩٨٨)

* الانتفاضة الفلسطينية والأزمة الصهيونية : دراسة في الإدراك والكرامة (القاهرة ١٩٩٠)

* هجرة اليهود السوفييت : منهج في الرصد وتحليل المعلومات (القاهرة ١٩٩٠)

* الجمعيات السرية في العالم (البروتوكولات - الماسونية - البهائية) (القاهرة ١٩٩٣)

* العرس الفلسطيني : مختارات مزدوجة اللغة من شعر المقاومة الفلسطينية (واشنطن ١٩٨٨)

* الفردوس الأرضي : دراسات وإنطباعات في الحضارة الأمريكية الحديثة (بيروت ١٩٧٩)

* الشعر الرومانتيكي الإنجليزي : النصوص الأساسية وبعض الدراسات النقدية (بيروت ١٩٧٩)

* إشكالية التحيز (جزآن) (القاهرة ١٩٩٥)

وله العديد من المقالات في الشعر الإنجليزي والأمريكي والأدب المقارن والحضارة الغربية الحديثة والصراع العربي الإسرائيلي. وسيصدر له في مطلع عام ١٩٩٦ العمل الذي عكف على إنجازه منذ خمسة وعشرين عاماً : موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية : نموذج تفسيري وتصنيفي جديد (سبعة أجزاء) ، كما سيصدر له في غضون عام ١٩٩٦ كتاب من ثلاث أجزاء بعنوان مقدمة لتفكيك الخطاب العلماني.

٣	مقدمة: في الإدراك والسلوك والتبعية الإدراكية
٢٥	الفصل الأول: في الإدراك الصهيوني للعرب
٢٧	١ - من العربي المتخلف إلى العربي الغائب
٥٠	٢ - الاستجابة الصهيونية للعربي الحقيقي
٦٧	الفصل الثاني: في الإدراك الإسرائيلي للعرب
٦٩	١ - الإدراك الإسرائيلي للعرب
٨٣	٢ - الإدراك الإسرائيلي للدولة الفلسطينية
٩٢	٣ - الإدراك الإسرائيلي للانتفاضة
١١١	الفصل الثالث: في الإدراك الغربي لليهود
١١٣	١ - اليهودي كعنصر نافع داخل الحضارة الغربية
١٣٤	٢ - اليهودي كمسلم في أفران الغاز
١٣٨	٣ - الإدراك النازي لمفهوم الحكم الذاتي
١٤٢	٤ - الإدراك الغربي والصهيوني لحروب الفرنجة (الصليبيين)
١٥٣	الفصل الرابع: في تفكيك الإدراك الصهيوني
١٥٥	١ - العداء لليهود: تفكيك وتركيب ثلاث حالات
١٧٣	٢ - الصهيونية والرومانسية: إعادة التفكير في طرق التفكير
١٩٢	٣ - الادراك والمقدرة التنبئية للنموذج

هذا الكتاب

لا يمكن دراسة الظواهر الإنسانية كما ندرس الظواهر الطبيعية، ولا يمكن أن نسجل سلوك الإنسان كفرد أو كجماعة كما نسجل سلوك وجماعات النحل والنمل. وهذا يعود إلي أن الإنسان لا يسلك كرد فعل للواقع المادي بشكل مباشر، وإنما كرد فعل للواقع كما يدركه هو، من خلال مصلحته كما يدركها هو، ومن خلال ما يسقطه علي هذا الواقع من أفراح وأتراح وأشواق ومعان ورموز وذكريات. ولكن كثيراً من الدارسين في تحليلهم للصهيونية (والحضارة الغربية) أسقطوا بُعد الإدراك من حسابهم، وبالتالي أسقطوا خصوصية الظواهر الصهيونية فسقطوا في التعميم المخل.

وهذا الكتاب يحاول أن يلقي الضوء علي هذه القضية المركبة من خلال وقائع محددة، فيتناول الفصلان الأول والثاني الإدراك الصهيوني والاسرائيلي للعرب، ومحاولة تجريدهم وتغييبهم لتصبح فلسطين «أرضاً بلا شعب». كما يقدم الفصلان أمثلة مختلفة عن إدراك الصهاينة للمقاومة العربية وإدراك الإسرائيليين للدولة الفلسطينية وللانتفاضة. ويتناول الفصل الثالث بعض جوانب الإدراك الغربي لليهود باعتبارهم عنصراً نافعاً يمكن نقله وتوظيفه والاستفادة منه، وللدولة الصهيونية باعتبارها أداة نافعة تخدم المصالح الغربية نظير أن يقوم الغرب بدعمها وضمان بقائها. كما يتناول هذا الفصل التصور النازي لقضية الحكم الذاتي ومدي تأثير الصهاينة به، وإدراك العالم الغربي والصهاينة لحروب الفرنجة (الصليبيين). أما الفصل الرابع والآخر فيقدم دراسة لعدة حالات (تهمة الدم - واقعة دريفوس - حادثة ليوفرانك - علاقة الصهيونية بالرومانسية) بهدف تفكيك الإدراك الصهيوني، وتوضيح أبعاده. ويثير المؤلف في ثنايا الكتاب، وفي مقدمته ونهايته، بعض القضايا المنهجية مثل: أهمية التجريد - حتمية التعميم - التبعية الإدراكية - أهمية استخدام النماذج التحليلية .

دار الحسام

ص.ب ٥١ الغورية - القاهرة